

كتاب
حول تفسير
سورة الحجرات
بقلم
الإمام المفسر المحدث
الشيخ
عبد الله سراج الدين
الحسيني
رضي الله عنه

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

أیها القارئ الكریم : اقرأ سورة الفاتحة
كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهد
ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف
الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة
، المفسر والمحدث بالأسانيد المتصلة ،
عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق
والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية -
بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي
- سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ
محمد نجيب سراج الدين الحسيني ،
رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين
خيراً ، إنه هو السميع العليم . آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين .

سورة الحجرات مدنية

وقد اشتملت على جوامع من الحقوق الإيمانية الأدبية :

أولاً : مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

ثانياً : مع المؤمنين عامة ، وبيان الرابط بين المؤمنين ، وهو الأخوة الإيمانية التي عقدها الله تعالى بينهم ، ثم بيان حقوق هذه الأخوة .

ثم بيان سبب التفاضل والكرامة عند الله تعالى .

ثم بيان ما يتميز به المؤمن الصادق عن المسلم المنافق - إلى ما وراء ذلك من ذكر الإرشادات الإلهية .

ففي سورة الحجرات حجرات جامعة لمجامع الخيرات وأنواع السعادات ، وفيها التوجيهات والإرشادات للفضائل والكمالات الإيمانية والخُلُقية ، وفيها التحذير من المفسدات والضلالات ، وأنواع المظالم ، وانتقاص الحقوق الإنسانية الأدبية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

{يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إنّ الله سميع عليم} .

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه :

الأول : قوله تعالى : {يا} أعلم أنّ يا في اللغة هي موضوعة للبعيد مكاناً أو رتبة ، وقد جرت عادة الله تعالى في ندائه لعبادة أن يناديهم بقوله : {يا} لا للبعد المكاني ، وإّما هو من باب تعالي مقام الربّ ، وعزّة سيادة ألوهيته سبحانه ، وعظمة سلطان ربوبيته وعلوّ شأنه ، فينادي عباده الذين هم عبيده بقوله : {يا} ، وأين رتبة العبودية بالنسبة لعلو مقام الربوبية ، على أنّ في قوله تعالى : {يا} تنبيهاً للعباد كي يُقبلوا بكليتهم إلى ما سيلقى عليهم من الخطاب المشتمل على الأوامر والمناهي ، وما في ذلك من جوامع الإرشادات ومحاسن التوجيهات إلى مراتب الكمالات ، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم .

وأما نداء العباد ودعائهم ربهم فإنه يأتي غالباً بحذف أداة النداء ، فقد ذكر الله تعالى دعاء الأنبياء والأولياء والمؤمنين .

قال تعالى - مخبراً عن دعاء أبينا آدم عليه السلام - : {قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} .

وقال تعالى - عن نوح عليه السلام - : {رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات} .

وقال تعالى - عن الخليل عليه السلام - : {ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب} .

وهكذا الكليم عليه السلام : {قال : ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إّنه هو الغفور الرحيم} .

وأخبر سبحانه عن دعاء أوليائه :

فقال تعالى : - في أصحاب الكهف - : {إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً} .

وقال تعالى : {والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . . .} الآية .

وقال تعالى - في دعاء المؤمنين - {إِنَّه كَانَ فَرِيقَ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ :
رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} .

فكلُّهم دعوهُ باسمِ الربِّ ، لأنَّه ربُّهم ، هو خالقهم ومربيهم ، وأرحم بهم من
أنفسهم ، وأعلم بما يصلح شأنهم ، ويصلح بالهم ، دعوهُ سبحانه ولم
يذكروا أداة النداء وهي يا استشعاراً بقربه سبحانه ، وتحققاً بالأدب الذي
أرشدهم إليه حيث قال : {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ، فأيقنوا بقربه
، وأنَّه أقرب إليهم من حبل الوريد - فدعوهُ بذلك - .

**وما ورد من الدعاء : ب : يا رب فقد يلاحظ الداعي بذلك ذلُّه وبعده عن
عزة مقام الألوهية ، وسلطان مقام الربِّ سبحانه ، وقد يقصد بذلك إظهار
لهفته وفقره ، وشدة حاجته ، فهو يدعو دعاء المستغيث اللهفان - وقد ورد
جميع ذلك ، فكل حال مقال ، ولكل مقال رجال .**

الثاني : {يا أيها} هذا نداء بالتأبيه ، وهو أقوى في التنبيه إلى ما سيلقى
عليهم بعد النداء ، وليعلموا أنَّه أمر عظيم يجب الانتباه إليه والتحقق بما
يتطلبه .

فقولك : يا أيها الرجل ، أقوى في التنبيه من قولك : يا رجل .

الثالث : {يا أيها الذين آمنوا} .

إنَّ كل من تدبر في آيات القرآن الكريم يعلم أنَّ الخطابات الإلهية التي فيها
إرشادات الله تعالى لعباده ؛ والتي فيها الأوامر والمناهي ونحو ذلك ؛ جاء
ذلك على أنواع في الصفات والنعوت ، فيقول سبحانه : {يا بني آدم} ،
ويقول : {يا أيها الناس} ، ويقول : {يا أيها الذين آمنوا} .

**فما جاء في خطابه سبحانه لعباده بوصف بني آدم - يدل على أنَّ ما وراء
ذلك هو أمر عام ، وحكم شامل لجميع بني آدم من أولهم إلى آخرهم ، وفيه
رشادهم وصلاح أمورهم وسعادتهم ، على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ،
فمن ذلك ما جاء في سورة الأعراف حين أهبط البشرية إلى عالم الأرض -
قال تعالى :**

{قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلمهم يذكرون يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون} .

ثم قال تعالى بعد آيات : {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد} - أي: عند كل صلاة - {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} ، وفي هذا إرشادٌ إلى وجوب تناول ما ينفع الجسم من الغذاء والشراب ، وتحذيرٌ مما يضر الجسم وهو الإسراف في المأكل كماً أو كيفاً ، من تناول الأنواع من المأكل لمختلفة .

ثم قال سبحانه بعد آيات :

{يا بني آدم إنا يأتينكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} .

وأما الخطاب بوصف الناس : فقد يراد به جميع الناس من المؤمنين وغيرهم : قال تعالى : {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً} .

وقد يراد به المشركون : قال تعالى : {يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب} .

وكثيراً ما كانت تنزل الخطابات الإلهية بصفة الناس في مكة المكرمة ، وقد نزل منها الكثير في المدينة ، كقوله تعالى في سورة البقرة : {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} ، وقوله تعالى في سورة الحجرات : {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . { الآية ، وقوله تعالى في أول سورة النساء : { يا أيها الناس اتقوا ربكم . . { الآية كما تقدم - فهذه الخطابات عامة .

وأما الخطابات الإلهية بصفة الإيمان فهي موجهة للمؤمنين : ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات : { يا أيها الذين آمنوا } جاء ذلك خمس مرات في هذه السورة الكريمة ، وفي الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم:

أولاً : تشريفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين ، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير ، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله ومدحهم بذلك فقال تعالى : {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به . . . { الآية .

ثانياً : في هذا النوع من الخطاب تحريض للمؤمنين وحثٌ للاهتمام بما يليه من الأوامر أو المناهي ، لأنَّ لها ارتباطاً وثيقاً بإيمانهم ، فليُسارعوا إلى تحقيق ذلك ، ليكمل لهم إيمانهم ، فإن الأوامر التي وجهت إليهم هي مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به .

ثالثاً : فيه بيان أنّ ما سيلقيه عليهم بعد هذا النداء يجب عليهم أن يسارعوا إلى تطبيقه والتحقق به ، ائتماراً بالأمر ، وانتهاءً في النهي ، لأنَّ ذلك هو مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به ، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب ، ويكون هذا من باب البيّنة على دعواهم الإيمان الصادق ، لأنَّ المدّعي عليه البيّنة : فمن هذا قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون } .

فخاطب سبحانه المؤمنين وأمرهم بالتقوى وترك الربا بأنواعه وأجزائه كلها ؛ إن كانوا صادقين في دعواهم الإيمان ، وإذا لم يفعلوا ذلك فليعلموا أنّ الله تعالى العزيز المنتقم هو محاربهم ، وأنَّ رسوله صلى الله عليه وسلم هو أيضاً محاربهم ، فما ظنك بمن أعلن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه

وسلم الحرب عليه وهو يدعي أنه مؤمن ، ومن الذي يثبت أمام حرب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ¹ .

فقل للمرابين من بعض أغنياء المال المتخمين ، الذين يدعون أنهم من المؤمنين ومع ذلك يتعاطون الربا الصريح المباشر ، أو يتعاطونه من تحت القناطر التي نصبها لهم شياطين الإنس والجن فقل لهم : إن كنتم تخادعون الله تعالى فالله العظيم هو خادعكم ، وإن كنتم تحتالون على شرع الله تعالى فالله تعالى يعلم سركم وجهركم وخفاياكم ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك ، وأسعدنا بتقواك ، ولا تشقنا بمعصيتك يا أرحم الراحمين بنور وجهك الكريم .

روى البيهقي بإسناده أن رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه : أوصني .

فقال له : إذا سمعت الله عز وجل يقول : {يا أيها الذين آمنوا} فأصغ إليها سمعك ، فإنه خير توصى به ، أو شرُّ تصرف عنه . اهـ .

الرابع : في معنى {لا تقدموا} في {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا² بين يدي الله ورسوله} .

¹ وفي قوله تعالى : {فأذنوا بحرب من الله ورسوله} دليل على أنه صلى الله عليه وسلم هو لا يزال حياً ، وأنه عليه الصلاة والسلام لا يزال يحب ويسالم من سالمه الله تعالى ، ويعادي ويحارب من حاربه الله تعالى .

² **هذا الفعل يحتمل أن يكون من قدم المتعدي ، ومعناه :** جعل الشيء متقدماً على غيره ، كما تقول : قدمت فلاناً على فلان ، وحذف المفعول به هنا ليعم ؛ أو المراد هو النهي عن نفس الفعل وهو التقديم ، والمعنى : لا تفعلوا التقديم ولا يصدر منكم أبداً ، فهو نهى عام عن التقديم .

ويحتمل أن يكون الفعل من قدم اللازم بمعنى : تقدم كوجه أي : توجه ، وبين : أي تبين ، ومنه : مقدمة الجيش أي : الجماعة المتقدمة من الجيش خلاف الساقة ، ومنه مقدمة الكتاب ، ومقدمة العلم ، أي : ما تقدم بين يدي الكتاب وبين يدي البحث فهو نهى عام عن التقدم .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يقدموا أمراً من الأمور قولاً أو عملاً أو رأياً بين يدي الله ورسوله ، أو أن يتقدموا بشيء من ذلك ، بل الواجب عليهم أن يكونوا مطيعين متبعين لما جاء عن الله تعالى ، وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتدين به صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور ، دون أن يُحدِثوا شيئاً من تلقاء أنفسهم أو يتكلموا في أمرٍ ما قبل كلامه صلى الله عليه وسلم .

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } قال : لا تقدموا خلاف الكتاب والسنة .

كما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه صلى الله عليه وسلم .

كما جاء عن الحسن رضي الله عنه أنه قال : إن ناساً ذبحوا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر - أي : قبل صلاة العيد - فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا ذبحاً ، وأنزل الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } .

وفي صحيح البخاري عن مجاهد في قوله تعالى : { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } قال : لا تفتاتوا¹ على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقضي الله على لسانه صلى الله عليه وآله وسلم .

فقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بقول أو عملٍ ما ، بل الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم غير متقدمين عليه .

¹ أي : لا تفعلوا شيئاً لم يرد في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . . وهو مشتق من الافتيات ، أي : من باب الافتعال ، والمعنى : كونوا متبعين لما جاء عن الله تعالى في كتابه ، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه وحي من الله تعالى أيضاً .

فالأية عامة ، لأن خصوص سبب النزول لا يمنع عموم الكلام ، فإنّ العبرة لعموم الكلام لا لخصوص السبب ، ولكن خصوص السبب هو قطعي الدخول ، وقد قال بعض المحققين من المفسرين : يجوز أن يكون المراد بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو النهي عن التقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنه قيل : لا تقدموا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما ذكر الله تعالى اسمه - جلّ وعلا - أولاً ليقرن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر اسمه ، رفعة لذكر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بكرامته وشرف منزلته عند الله تعالى ، فقال سبحانه : { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } وإنّ شرف الرسول وكرامته هي تابعة لعظمة مرسله وكرامته ومجده .

كما أن في هذه الإضافة { ورسوله } بيان مزيد اختصاصه به سبحانه ، وعنايته الخاصة به صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد هذا المعنى أنّ الآيات الآتية هي كلها جاءت في تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان وجوب الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، لأنه رسول الله ونبيّه وإذا كان التقدم بين يديه صلى الله عليه وسلم منهيّاً عنه لأنّه رسول الله الذي رفع الله ذكره ، وعظّم شأنه وأكرم مقامه ، وشرفّ منزلته - وإذا كان التقدم في أمر من الأمور بين يديه صلى الله عليه وسلم منهيّاً عنه - فالتقدم بين يدي الله عز وجل هو أدخل في النهي من باب أولى ، وعلى هذا فقد نهى الله تعالى المؤمنين بالله ورسوله أن يتقدموا على الله تعالى ، أو على رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرٍ ما ، بل يكونون مقتدين ومتبعين لما جاء عن الله تعالى ، وما جاء عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

فلا يجوز للمؤمن أن يبتدع أمراً : قولاً أو عملاً ليس له أصل وارد في كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما ما كان له أصل أو يدخل تحت قواعد الشريعة المستندة إلى الكتاب والسنة فليس ببدعة ، فإن البدعة هي ما لا أصل له في الشرع ولا دليل ولا نظير .

كما لا يجوز للمؤمن اتباع الآراء المخالفة ، ولا النظريات المناقضة لما جاء عن الله تعالى ، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الحق والهدى هو ما جاء في الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو مردود .

وفي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى للمؤمنين ما يجب عليهم من الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يجب عليهم من الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، وعدم التقدم عليه بأمر ما ، وأنّ التقدم عليه صلى الله عليه وسلم بقول أو عمل فإنه قبيح أشد القباحة ، كالذي يمشي أمام النبي عليه الصلاة والسلام غير محترم ولا معظم له صلى الله عليه وسلم ، ولذلك حذّر سبحانه من الوقوع في ذلك فقال : {واتقوا الله} أي : توقّوا غضبه سبحانه وعقابه بالانتهاء عمّا نهاكم عنه {إنّ الله سميع عليم} - للأقوال كلها : سرها وعلايتها ، ومن ذلك أقوالكم كلها {عليم} بكل شيء ظاهر أو خفي ، ومن ذلك أعمالكم كلها ، فإياكم أن تتقدموا بقول أو عمل لم يأت في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن ثمّ كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يلتزمون الأدب الكامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحرصون كل الحرص على متابعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعاً مطلقاً ، سواء أدركوا الحكمة أو لم يدركوها ، لأنهم آمنوا وأيقنوا بالدليل القاطع أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا ينطق عن الهوى ، وقد أنزل الله عليه الكتاب والحكمة ، فما صدر عنه من قول وعمل فهو الحكمة ، فيجب اتباعه والتسليم بلا توقف ، هذا مقتضى إيمانك بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب} ، والمعنى : واتقوا الله أن تخالفوا أمره أو تقعوا في نهيه .

ومن هنا كانوا - أي الصحابة - يرون أن الدين هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم بلا توقف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به صلى الله عليه وسلم .

فقد نزعوا خواتيم الذهب لما نزع صلى الله عليه وسلم خاتم الذهب ، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (اصطنع رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب فصنع الناس خواتيم الذهب ، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه وقال : ((والله لا ألبسه أبداً)) فنبتذ الناس خواتيمهم)¹ .

¹ أخرجه السنة .

فانظر في هذا الاقتداء فعلاً ثم تركاً - وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليعلن فوق تحريم التختّم بالذهب إعلاناً فعلياً ، بنزعه لخاتم الذهب علناً فوق تحريمه قولاً ، فهذا أبلغ في النهي والتحريم .

وعن علي بن ربيعة قال : رأيت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه أتى بدابة ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون} ، ثم حمد الله تعالى ثلاثاً ، وكبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت ، قد ظلمت نفسي فاغفر لي - ثم ضحك .

فقلت له : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ !!

فقال رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت له : مم ضحكت يا رسول الله ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : ((يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال : رب اغفر لي ، ويقول سبحانه : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري))¹.

فانظر يا أخي في متابعة الصحابة واقتدائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله اقتداءً كاملاً .

ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه توضأ في بيته ثم خرج وقال لألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأكونن معه يومي هذا ، قال فجئت المسجد ، فسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : خرج ، ووجهه ههنا ، فخرجت على أثره أسأل - حتى دخل بئر أريس - أي : البستان الذي فيه بئر أريس - فجلست عند الباب - وبابها من جريد - فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت إليه فإذا هو جالس على بئر أريس ، وتوسط فُفَّها - يعني حافتها - وكشف صلى الله عليه وسلم عن ساقيه - أي : تحت الركبة - ودلّهما في البئر فسلمت

¹ رواه أصحاب السنن والإمام أحمد واللفظ له .

عليه ثم انصرفت ، فجلست عند الباب ، وقلت لأكوننّ بواب رسول الله اليوم .

فجاء أبو بكر فدفع الباب ، فقلت : مَنْ هذا ؟ فقال : أبو بكر ، فقلت : على رسلك ، ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((ائذن له وبشره بالجنة)) فأقبلت حتى قلت لأبي بكر : ادخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرك بالجنة . . فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في القُفِّ ، ودلّى رجليه في البئر ، كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكشف عن ساقيه .

قال أبو موسى : ثم رجعت فجلست عند الباب ، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقتني ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً - يريد أخاه - يأت به ، فإذا إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال عمر بن الخطاب ، فقلت : على رسلك ، ثم جنّت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((ائذن له وبشره بالجنة)) .

فجنّت فقلت له : أدخل وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، فدخل فجلس مع النبي صلى الله عليه وسلم في القُفِّ عن يساره ودلّى رجليه في البئر وكشف عن ساقيه .

ثم رجعت فجلست عند الباب ، فقلت : إن يرد الله بفلان - أي: بأخيه - خيراً يأت به فجاء إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رسلك ، فجنّت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته .

فقال : ((ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه)) .

فقلت له : أدخل وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة على بلوى تصيبك ، فدخل فوجد القُفِّ - أي، جانب البئر الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ملئ ، فجلس وجاهه - أي: أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم - من الشق الآخر - أي الجانب الآخر .

قال سعيد بن المسيب : فأولتها قبورهم . اهـ يعني كان سعيد وغيره - كما في رواية : كنا نتأولها قبورهم .

ففهموا من ذلك ترتيب وفياتهم ، وترتيب قبورهم ، وأن عثمان رضي الله عنه في الشق المواجه وهو البقيع .

فانظر يا أخي في اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسليمهم له ، فلم يقل أحد منهم : يا رسول الله لمّ جلست ههنا بل اجلس ثمّة تحت الشجر وظلاله أو نحو ذلك ، بل فعلوا مثل ما فعل ، لأنهم موقنون أنه رسول الله ، ما يفعل ذلك عبثاً ولا عن غفلة ، بل عن حكمة ، ولحكمة تتجلى فيها أسرار نبوية دالة على أمور غيبية - فافهم .

وهكذا لما نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعله في الصلاة خلع الصحابة رضي الله عنهم وراءه نعالهم ؛ اقتداءً به واتباعاً وعملاً بالآية الكريمة .

روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم . . . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال : ((ما حملكم على إلقاء نعالكم؟)) .

قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا .

فقال : ((إنّ جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أنّ فيهما قدراً أو أذى ، فإذا جاء المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قدراً)) - أو قال : ((أذى)) - ((فليمسحه وليصل فيهما)) .

فقوله تعالى : { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله . . } الآية فيه بيان الموقف الذي يجب على المؤمنين أن يقفوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو موقف المقتدي مع الإمام ، وموقف التابع في الأمور القولية والفعلية والخلقية والنفسية مع أكمل متبوع ، إمام الأئمة من الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي خُتمت به النبوات والرسالات ، فلا يجوز بل لا يسع العاقل

إلا أن يتَّبَع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويسلم له تسليماً في جميع الأمور التي جاء بها ، من غير اعتراض ولا انتقاد ، ولا توقف ، بعد أن آمن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بالحكمة من عند الله تعالى .

قال سبحانه : {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} أي: تسليماً مطلقاً من غير توقف ولا نظر ، ولا تحكيم عقولهم ولا آرائهم ، لأنهم آمنوا بأنك رسول الله ، وأيقنوا بذلك ، لما رأوا من آيات صدق نبوتك ، وحقية رسالتك ، فأسمعتهم الآيات المتلوة التدوينية ، وأريتهم البيّنات والمعجزات المرئية ، وأثبت لهم الأدلة والبراهين العقلية القطعية ، الدالة على حقية ما جئتهم به ، فكيف يجوز لهم بعد ذلك أن يتخلفوا عن متابعتك ، والتسليم لك ، فإنهم إن فعلوا ذلك فإنهم غير مؤمنين بصدق نبوتك ، وحقية رسالتك ، بل هم في شك من ذلك ، وهذا معنى : {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك} . { الآية .

فأنت الذي يُتْحَاكَمُ إليك مع الانقياد والتسليم المطلق إليك ، ولا يجوز لهم أن يحكموا عليك ، ولا أن يتقدموا بأمر ما بين يديك ، بل بمقتضى أنهم عقلاء ، وقد آمنوا بك ، وهو واثقون كل الثقة بصدق رسالتك ، فما يسعهم إلا التسليم المطلق إليك .

قال الإمام الهمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه وعليه السلام : لو أنّ قوماً عبدوا الله تعالى ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصاموا رمضان ، وحجوا البيت ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألاّ صنع خلاف ما صنع ، أو وجدوا في أنفسهم حرجاً مما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا مشركين - أي: كافرين - ثم تلا هذه الآية الكريمة : {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} .

قال عبد الله : وهذا أمر واجب معقول ، ولازم مقبول ، لدى جميع أهل العقول ، ألا ترى الرجل العاقل يذهب إلى الطبيب الموثوق بعلمه فيقول له

الطبيب : اضطجع ، فيضطجع ، ويقول له : افتح فمك لأنظر فيه فيفتح فمه ، فيمتثل أمره دون توقف ، ثم يقول له : اشرب الدواء كذا وكذا بمقادير كذا وكذا ، وتناول من الطعام كذا وكذا فقط ، ولا تأكل من الطعام الذي فيه من المواد كذا وكذا - فيسمع ويطيع دون توقف ولا اعتراض ولا يقول له : بل أشرب الدواء دفعة واحدة . ولا يقول له : أنا لا أشرب هذا الدواء ، بل تراه يسلم له ويطبق التعليمات التي بيّنها له الطبيب الذي وثق بعلمه لأنه عالم بالطب .

فما الذي حمّله على هذا الانقياد والسمع والطاعة ؟ نعم هو ثقته بالطبيب ، وبعلمه بالطب ، وبعلمه بأنه طبيب ماهر خبير ، يضع الدواء حين الداء ، وهذا يسمى حكمة ، وهي وضع الشيء في مواضعه ، فإذا كانت ثقّتك بالطبيب وبعلمه وخبرته حمّلك ذلك على الاستسلام له وامتنال أوامره ، مع أنه قد يُخطيء ، وقد لا يصيب الدواء الداء الذي فيك ، بل ربما أضرك ، فكيف لا تُسلم ولا تُستسلم مطلقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي قال الله تعالى فيه : { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا } وقد عصمه الله تعالى عن الخطأ فما ينطق عن الهوى ، وقد ثبت ذلك بالأدلة العقلية والسمعية والبصرية ؛ والكونية ؛ والإخبارات الغيبية ؛ إلى ما وراء ذلك من البيّنات القطعية ، فكيف لا تتبعه وتتقدي به مع التسليم الكامل المطلق له صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم !!!!!

فإنه صلى الله عليه وآله وسلم هو مهبط الحكمة ، وقد أنزل الله عليه الكتاب والحكمة ، فهو مجمعا ومنبعها ، وأمره الله تعالى أن يعلم الناس الكتاب والحكمة ، كما جاء في كثير من الآيات القرآنية ، قال تعالى : { كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون } .

فالواجب على العاقل التسليم المطلق لهذا الرسول الكريم السيد العظيم صلى الله عليه وسلم ، سواء أدرك الحكمة في ذلك الحكم أو لا ، لأنّه حكم صادر عن حكيم ، أتاه الله تعالى الحكمة ، فأحكامه كلّها حكمة . . .

ولما تم صلح الحديبية وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نحر بُدنه ، ودعا حالقه فحلق رأسه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قام الصحابة رضي الله عنهم مُسرعين فنحروا وحلقوا رؤوسهم ، وكادوا يقتتلون من تسارعهم إلى الحلاق اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوه فعل ذلك ، بدون توقف ، وتهافت الناس على شعره الشريف صلى الله عليه وسلم ، وأخذت أم عمارة رضي الله عنها من شعره الشريف فكانت تغسلها للمريض وتسقيه فيبراً بإذن الله تعالى ، وأرسل الله تعالى ريحاً عاصفة فحملت شعور الصحابة حتى ألقته في الحرم جبراً لقلوبهم ، حيث صدّهم المشركون في ذاك العام عن البيت المعظم ، فاستبشروا بقبول عمرتهم ، ووفور أجورهم - كما جاء في رواية ابن سعيد وغيره .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش في مكة يُعلمهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قدم معتمراً ، ولم يرد قتال قريش ، وأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عثمان رضي الله عنه أن يبشر المستضعفين الذين بقوا في مكة المكرمة يبشرهم بالفتح قريباً ، وأن الله تعالى سيظهر دينه ، فأتى عثمان رضي الله عنه أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقرأ عليهم كتابه واحداً واحداً ، فما أجابوا ، وصمّموا أن لا يدخلها صلى الله عليه وآله وسلم في هذا العام ، وقالوا لعثمان رضي الله عنه إن شئت أن تطوف فطف ، فقال رضي الله عنه : ما كنت لأفعل - لأطوف - حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال المسلمون : هنيئاً لعثمان خلس إلى البيت فطاف به دون أن تطوف ، بل منعونا وصدونا عن البيت ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((إنّ ظني بعثمان أن لا يطوف حتى تطوف معاً)) اهـ .

فانظر في اقتداء الصحابة رضي الله عنهم ، وتمسكهم باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمسك المشركون عثمان بن عفان رضي الله عنه عندهم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم أنّ عثمان قد قتل ، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة - كان نازلاً تحتها صلى الله عليه وسلم يستظل بها - فبايعوه على الموت ولا يفرّوا ، ولما بايع الناس رسول

الله صلى الله عليه وسلم هذه البيعة الميمونة المرضي عن أهلها ، قال
صلى الله عليه وسلم : ((اللهم إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك))
وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، وقال ((هذه عن عثمان)) فكانت يده
صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

وفي رواية : فوضع صلى الله عليه وسلم شماله في يمينه وقال : ((هذه
عن عثمان)) فكان عثمان يقول بعد ذلك : شمال رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم خير لي من أيمنهم .

فقوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله . . . }
الآية فيها بيان ما يجب على المؤمن من حق الله تعالى عليه من الطاعة ،
ووجوب الأدب والانقياد ، والافتداء بكتاب الله تعالى ، وبيان حق رسول
الله صلى الله عليه وسلم أيضاً من الاتباع له ، ووجوب الأدب معه ،
والتسليم المطلق له دون توقف ، وذلك يكون بالاعتصام بكتاب الله تعالى
والتمسك بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم عن ابن
عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية : (أمر الله تعالى أن لا يقولوا
خلاف الكتاب والسنة) فإنهما الأصلان العظيمان في فهم الدين ، الذي جاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وأما الإجماع والقياس فهما فرعان
عنهما ، ثابتان فيهما أي: في الكتاب والسنة كما هو مفصل في كتب
الأصول .

روى الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم خطب يوم حجة الوداع فقال : ((إن الشيطان قد يبس
أن يعبد بأرضكم ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من
أعمالكم ، فاحذروا ،¹ إنني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا
أبداً : كتاب الله وسنة نبيه)) .

ورواه الترمذي بلفظ : ((إنني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما :
كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم)) .

¹ أي : احذروا الوقوع في المعاصي والمحرمات التي يُزينها لكم الشيطان . .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقول : ((أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة)) الحديث^١ .

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك))^٢ .

وعنه أيضاً قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟

فقال صلى الله عليه وسلم : ((قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)) الحديث^٣ .

{يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} .

في هذه الآية بيان وجوه من الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن فيها النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والعمل والتقدم عليه بذلك في الآية السابقة ، فها هنا نوعان : النهي مع التحذير الشديد ، والوعيد والتهديد لمن يقع في ذلك ، وهو حبوط الأعمال مهما عظمت وكثرت وكبرت .

{يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} صلى الله عليه وسلم وقد أعاد سبحانه النداء مع التأنيه مع قرب العهد بالنداء الأول وذلك للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه ، وأعاد وصفهم بالإيمان ليعلموا حقاً أن

^١ كما في مسلم وغيره .

^٢ رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن .

^٣ كما في (المسند) .

القضية هي قضية متعلقة بأصل الإيمان ، وليست من باب الفضول أو الامتنان ، وفيه الإشعار بأن كلاً من الندائين وما جاء بعدهما من النهي يتطلب تمام الاعتناء ، وقوة الاهتمام كي يتباعدوا عن الوقوع في هذه المناهي : { لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي } صلى الله عليه وآله وسلم .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يبلغوا بأصواتهم وراء حد يبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوته ، بحيث لا يكون لصوتهم الرفعة والفوقية على صوته صلى الله عليه وسلم ، بل يكون لصوته صلى الله عليه وسلم الرفعة والفوقية على أصواتهم ، بأن تكون أصواتهم أخفض من صوته صلى الله عليه وسلم في مكالمته ومخاطبته كلها . . .

{ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض} وفي هذه الآية الكريمة نهى الله تعالى المؤمنين أن يعاملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهر بالقول معاملة الأقران لبعضهم بعضاً - من حيث المساواة في أصواتهم ، بل يجب الغضّ والخفض ، وتشمل الآية النهي عن صيغة القول التي تجري بين النظراء ، بل الواجب عليهم غض الصوت وخفضه ، والقول اللين القريب من الهمس ، تهيئاً وتعظيماً له صلى الله عليه وسلم ، وإجلالاً لمقام نبوته الخاتمة ، ورسالته العامة ، التي أكرمه الله تعالى ورفع بذلك مستواه على الأنبياء والمرسلين ، وسائر الأولين والآخرين ، فأعطوا أنتم أيها المؤمنون به صلى الله عليه وسلم المقام حقّه من الأدب والتوقير ، وإياكم من التساهل والتقصير ، ويدخل في هذا النهي التحذير من مخاطبته باسمه أو كنيته ، كما يخاطب بعضهم بعضاً ، بل يجب أن يكون خطابهم إياه بأوصاف التكريم والتعظيم ، فلا يقولوا : يا محمد ، أو يا محمد ، بل يقولون : يا رسول الله ، يا نبي الله ، مراعاة لرفعة منصب نبوته وشرف رسالته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : {ولا تجهروا له بالقول . . } الآية قال : لا تتنادوه نداءً ، ولكن قولوا : يا نبي الله يا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكيف يتساهلون في ذلك وقد سمعوا خطابات الحق له صلى الله عليه وآله وسلم ، وتشريفه له ، وتكريمه له بأوصاف النبوة والرسالة ونحوهما ، مما

يدل على التعظيم والتكريم ، فإنه سبحانه نادى جميع الأنبياء بأسمائهم ، ولكن نادى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بألقاب التكريم بالنبوة والرسالة ونحوهما .

قال تعالى : {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً} .

وقال سبحانه : {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} .

وقال تعالى ملاطفاً له صلى الله عليه وسلم بالخطاب : {يا أيها المزمل} .

وقال جلا وعلا : {يا أيها المدثر} .

فخاطبه بالصفة التي كان عليها ، تكريماً وملاطفة له صلى الله عليه وسلم ، فلم يناده في القرآن الكريم قطُ باسمه صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فإنه سبحانه ناداهم بأسمائهم .

قال تعالى : {يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة} .

وقال تعالى : {يا نوح إنه ليس من أهلك} .

وقال سبحانه : {يا إبراهيم أعرض عن هذا} .

وقال تعالى : {يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم} .

وقال جلا وعلا : {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس . . . } .

وقال تعالى : {يا زكريا إنا بنشرك بغلام اسمه يحيى} الآية .

وقال تعالى : {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض} الآية .

{يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} .

وقد سابق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية الكريمة إلى الزيادة في كمال الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، والابتعاد كل البعد عما ينافي كمال الأدب والتعظيم له صلى الله عليه وسلم .

فروى الحاكم وصححه والبخاري وابن عدي وغيرهم عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : (لما نزلت هذه الآية : {لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} قلت يا رسول الله : والله لا أكلمك إلا كأخي السرار) .

وروى البيهقي في (الشعب) والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه : (لما نزلت : {إن الذين يغيضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} قال أبو بكر رضي الله عنه : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى).

وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة والوقار وخفض الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك .

وفي (صحيح) البخاري وغيره عن ابن الزبير رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية : {لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} كان إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يستفهمه .

وهكذا بقية الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون من هذه الآية ، لما فيها من التهديد بحبوط أعمالهم الصالحة وهم لا يشعرون .

ففي (صحيح) البخاري وغيره - واللفظ له - عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم افتقد ثابت بن قيس بن شماس ، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه¹ فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه.

فقال له : ما شأنك ؟

فقال شرٌّ - كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد حبط عمله وهو من أهل النار .

¹ أي : خبره .

فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا .
فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ((اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل
النار ، ولكنك من أهل الجنة)) .

وفي رواية : أن ثابت بن قيس لما نزلت آية : { لا ترفعوا أصواتكم فوق
صوت النبي } صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخل بيته ، وأغلق بابه ،
وظفق يبكي ، فافتقده رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . . .
الحديث .

وفي رواية الطبراني والحاكم وصححه أن عاصم بن عدي بن العجلان
قال : أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحال ثابت بن قيس ،
فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فلما جاء قال : ((ما
يبكيك ؟)) .

فقال ثابت : أنا صيِّتٌ - وفي رواية : رفيع الصوت - جهوري الصوت -
وأخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ .

فقال له صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أما ترضى أن تعيش حميداً ،
وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة ؟)) .

فقال : رضيت ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم .

وقد قتل ثابت شهيداً يوم اليمامة رضي الله عنه كما أخبر النبي صلى الله
عليه وعلى آله وسلم مُبشراً له .

فقد روى البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وغيرهم أنه لما كان يوم
اليمامة خرج ثابت بن قيس مع خالد بن الوليد إلى قتال مسيلمة الكذاب -
أيام حرب الردة - فلما رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد انكشفوا
¹ ، قال ثابت بن قيس لسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما ما هكذا كنا

¹ تراجعوا كأنهم منهزمين .

نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم حفر كل من ثابت وسالم حفرة وحمل عليهم القوم فقاوما وقتلوا من العدو كثيراً حتى قُتلا .

وكان على ثابت رضي الله عنه يومئذ درع نفيسة ، فمر به رجل من المسلمين - ليس من الصحابة - فأخذ الدرع ، فبينما رجل من المسلمين الصادقين نائم إذ أتاه ثابت بن قيس رضي الله عنه في منامه فقال له : إني أوصيك بوصية ، إياك أن تقول هذا حلم فتضيّع وصيتي ، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزله في أقصى العسكر وعند خبائه فرس يستنّ في طوله ، وقد كفاً على الدرع برمة ، وجعل فوق البرمة رَحلاً فأت خالد بن الوليد رضي الله عنه - أي : قائد جيش المسلمين - فَمُرّه أن يبعث إلى درعي فيأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي بكر رضي الله عنه فأخبره أن عليّ من الدّين كذا وكذا ولي من الدّين كذا وكذا ، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيّعه .

فأتى الرجل خالد بن الوليد رضي الله عنه فأخبره ، فبعث إلى الدرع فنظر إلى خباء في أقصى العسكر فإذا عنده فرس يستن في طوله ، فنظر في الخباء فإذا ليس فيه أحد ، فدخلوا فرفعوا الرّحل فإذا تحته برمة ، ثم رفعوا البرمة فإذا الدرع تحتها ، فأتوا به خالد بن الوليد رضي الله عنه - أمير الجيش - فلما قدموا المدينة حدث الرجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم برؤياه ، فأجاز أبو بكر الصديق رضي الله عنه وصيته بعد موته - أي : عمل بها - ووفى الديون التي عليه ، واستوفى له ديونه .

وهذا دليل على حياة الشهداء كما أخبر الله تعالى عنهم ، وأنهم يشهدون ويُشاهدون ما لا يشاهد غيرهم بعد الموت من أمور الدنيا وأمور الآخرة وغير ذلك .

¹ يقال : استنّ الفرس إذا عدا إقبالاً وإدباراً ، والطول والطيلة بكسر الطاء الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره ، والطرف الآخر في يد الفارس فيدور الفرس حوله .

فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول آية : {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . . } الآية ، كانوا يخافون من رفع الصوت في حضرته صلى الله عليه وآله وسلم ، خشية أن تحبط أعمالهم ، فتبطل حسناتهم وعبادتهم ، ويردّها الله تعالى عليهم عقوبة لهم .

روى الترمذي عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعل يناديه بصوت له جهوري يا محمد يا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال صفوان فقلنا له : ويحك اخفض صوتك ، فإنك قد نُهِيتَ عن هذا .
فقال : لا والله حتى أسمع .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((هاؤم)) .

فقال الرجل : أرأيت رجلاً يحب قومًا ولم يلحق بهم - من حيث العمل - .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ((المرء مع من أحب)) .

وفي رواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة قائمة ؟

قال صلى الله عليه وسلم : ((وما أعددت لها ؟)) .

قال : ما أعددت لها ، إلا أنني أحب الله ورسوله .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((إنك مع من أحببت)) .

قال أنس رضي الله عنه : ونحن كذلك ؟

قال : ((نعم)) .

ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً .

وفي رواية للترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه ، قال

رجل : يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله - أي : لا يستطيع ذلك - .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المرء مع من أحبّ . .)) .

وفي رواية للشيخين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال يا رسول الله : كيف ترى في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم - أي : لم يعمل مثلهم - .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المرء مع من أحبّ)) .

اللهم زدنا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حباً ، ومنه قرباً ، واجعلنا معه بجاهه عندك يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب .

فانظر يا أخي في آداب الصحابة رضي الله عنهم مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وشدة حبهم له ، وشدة حرصهم على معيته .

وبذلك على صدق محبتهم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنهم فرحوا فرحاً شديداً لما سمعوه يقول : ((المرء مع من أحب)) فهذا الفرح الشديد لا يحصل إلا لمن صدق في حبه ، ألا ترى الرجل الذي يحب المال كيف يفرح إذا كثر ماله . . . نعم يفرح من صميم فؤاده لأنه ظفر بمحبوبه كما تُشاهد ذلك في الأكثر من أهل هذا الزمان!!! ومع الأسف بل المال أحب شيء إليهم إلا من رحمه الله تعالى وحفظه من حب الدنيا وشرها .

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة ، وحبك الشيء يعمي ويصم)) .

فتراهم عمياً وبكماً وصماً عن كل شيء إلا عن جمع المال وتكثيره ، هائمين بذلك ، فهو صنمهم الأكبر - والعياذ بالله تعالى .

وقوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} .

قال العلماء - الأولون - نفعنا الله تعالى بهم : ليس المراد برفع الصوت المنهي عنه ولا الجهر المنهي عنه في هذه الآية الكريمة ليس المراد به رفع الصوت والجهر بالقول ما كان من باب الاستخفاف أو الاستهانة ، لأنَّ ذلك كفر صريح ، والذين خاطبهم الله تعالى في الآية هم المؤمنون ، وإنما المراد رفع الصوت هو نفسه ، والمسموع من جرسه¹ ، فإنه غير لائق بمقام الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهو أمر قبيح جداً ، يتعرض صاحبه لِحَبْطِ عمله وهو لا يشعر .

وإنَّ التزام الأدب مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشدة الاهتمام بكمال الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك من أهم الواجبات الإيمانية ، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس كغيره في علو المنزلة ورفعة الدرجة ، فالأدب كل الأدب مع مَنْ رفع الله رتبته فوق جميع الرتب صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعلينا معهم .

واستدل العلماء بهذه الآية الكريمة على المنع من رفع الصوت في مسجده صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعند قبره الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وذلك لأَنَّهُ حَيٌّ في قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم حياة أقوى وأعظم من حياة أهل الدنيا ، كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة :

أولاً : الأنبياء أحياء :

روى مسلم والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أتيت ليلة أسري بي على موسى قائماً يُصَلِّي في قبره عند الكئيب الأحمر)) .

فالأنبياء أحياء في قبورهم يصلون ، كما روى ذلك البيهقي في جزء سمّاه : (حياة الأنبياء في قبورهم) ، وقد اجتمع صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة الإسراء ، بالأنبياء وصلى بهم إماماً كما قال ((فحانت الصلاة فأمتهم)) - أي: صلى بهم إماماً - .

¹ الجرس : بفتح الجيم وقد تكسر هو الصوت .

ثانياً : بلوغه صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة المصلين والمسلمين عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبداً أبداً :

فعن علي رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((حيثما كنتم فصلوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني))^١ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من صلى عليّ بلغنتي صلاته ، وصليت عليه وكُتِبَ له سوى ذلك عشر حسنات))^٢ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلّوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم))^٣ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((ما من أحد يُسَلِّمُ عليّ إلا رَدَّ الله إليّ رُوحِي حتى أُرَدَّ عليه)) .

وقد ذكر الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : أنّ قوله صلى الله عليه وسلم : ((إلا رَدَّ الله إليّ رُوحِي)) كما في رواية أبي داود ، وعند أحمد والبيهقي : ((إلا رَدَّ الله إليّ رُوحِي)) قال السيوطي : هذه جملة حالية ، وقاعدة العربية أنّ جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدّر فيها قد كقوله تعالى : {أو جاؤوكم حصرت صدورهم} أي: قد حصرت .

قال : ولا سيما وقد أخرج البيهقي الحديث بلفظ : ((قد رَدَّ الله عليّ رُوحِي)) كما في رواية له .

وقد بسطت الكلام على هذا الحديث في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فارجع إليه .

ثالثاً :

^١ قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن . اهـ .

^٢ رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به كما قاله المنذري .

^٣ رواه أبو داود في (سننه) كما في (الفتح) وغيره .

روى الدارمي في (مسنده) أنّ الأذان والإقامة تُركا أيام الحرّة ، وأنّ سعيد بن المسيب لم يبرح مقيماً في المسجد النبوي الشريف ، فكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهممة من القبر الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم .¹

واستدل العلماء أيضاً بهذه الآية الكريمة على المنع من رفع الصوت عند قراءة حديثه صلى الله عليه وآله وسلم .

قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : حُرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمته قبلها ، وكلامه المأثور عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد وفاته - في الرفعة - مثل كلامه المسموع من لفظه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه ، ولا يُعرض عنه - أي: يجب الإقبال عليه والإصغاء إليه - كما كان يلزمه ذلك في مجلسه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند تلفظه به . اهـ .

فمجلس يُقرأ فيه حديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو مجلس معظّم ، يجب فيه الأدب والاحترام ، ولزوم التوقير والتعظيم ، ويجب صيانة ذلك المجلس عن العبث واللهو .

وهكذا يجب الأدب والاحترام والإصغاء عند قراءة سيرته الشريفة ، وبيان أوصافه وشمائله الحميدة ، وخصاله المجيدة ، ويدخل تحت هذا وجوب الأدب والتكريم والإصغاء وعدم اللغظ عند قراءة قصة مولده الشريف ، وعند سماع المدائح النبوية الشريفة ، كما يجب على المادحين مراعاة الأدب والتكريم والتعظيم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإنّ تلك المجالس كلّها يجب فيها الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم . . .

وقوله تعالى : {أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} فيه وَعِيدٌ شَدِيدٌ ، وترهيب وتهديد لمن يرفع صوته على صوته صلى الله عليه وسلم ، أو

¹ وهذه القصة رواها غير الدارمي بأسانيد متعددة ، ومنهم أبو نعيم في (الدلائل) وابن سعد في (الطبقات) والزيبير بن بكار في (أخبار المدينة) .

يجهر له بالقول كجهره مع غيره ، فإنّه مهدد بحبوط العمل - أي: أعماله الصالحة تحبط وتفسد وتهدر . . .

قال الإمام العلامة القسطلاني وغيره رحمهم الله تعالى : إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به اهـ .

ولا شك أنّ الترفع بالآراء على رأيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى ما جاء به صلى الله عليه وسلم هو داخل تحت النهي من باب أولى ، ألم تسمع قول الله تعالى - في الوالدين - : { **ولا تقل لهما أف** } فإنه من باب أولى أن لا يجاوز إلى ما هو أقبح من ذلك .

بل الواجب على الآراء أن تكون تابعة لرأيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعلى العقول أن تكون مُسلّمة لما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مطلقاً دون محاكمة عقلية ، ولا ترفع بفكر أو رأي أو عقل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فمن فعل شيئاً من ذلك فقد حبط عمله من باب أولى .

فقوله صلى الله عليه وسلم صادر عن حكمة ورأيه صادر عن عقل محمدي معصوم صلى الله عليه وسلم .

فما على العاقل إلا التسليم والطاعة .

وقوله تعالى : { **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** . . . } الآية .

هذا النهي لا يتناول رفع الصوت المشروع الذي لا يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم كرفع الصوت بين يديه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالأذان ، وفي حالة الحرب ، أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدوّ له صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ونحو ذلك مما لا يُوهم الإيذاء أو الاستهانة ، بل فيه ما يُرضي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما يسرّه .

ففي (صحيح) مسلم أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر عمه العباس رضي الله عنه يوم حنين أن ينادي بصوت عال ، فقال له : ((يا

عباس ناد يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمره يا أصحاب سورة البقرة)) .

وكان العباس رجلاً صَيِّتاً ، ولذا خصّه صلى الله عليه وسلم بالنداء - قيل كان يُسمع صوته من بُعد ثمانية أميال - .

قال العباس رضي الله عنه : وكنت رجلاً صَيِّتاً فناديت بأعلى صوتي : يا أصحاب السمره - يعني : شجرة الرضوان التي بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها على أن لا يفرّوا ولا يهزموا عنه ، بل جاء في (صحيح البخاري أنهم بايعوه على الموت .

فجعل العباس رضي الله عنه ينادي بأعلى صوته يا أصحاب السمره وجعل يقول أيضاً : يا أصحاب سورة البقرة - وخُصَّت بالذكر لأنّ فيها قوله تعالى : {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله} ، وقوله تعالى : {والموفون بعهدهم إذا عاهدوا} ، وقوله تعالى : {ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله} .

فلما سمع المسلمون صوت العباس رضي الله عنه أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنّت على أولادها .

وفي رواية : قال العباس : فوالله لكأنّ عطفهم أي: إقبالهم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سمعوا صوتي عطفة - أي: حنو - البقر على أولادها .

والمراد أنهم أقبلوا في غاية السرعة نحو الصوت إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإنّ ارتفاع صوت العباس رضي الله عنه لا يدخل تحت هذا النهي في الآية الكريمة .

يروى عن العباس رضي الله عنه أن غارة أُنْتهم يوماً فصاح العباس ، فأسقطت الحوامل لشدة صوته ، وذكر أنّه كان يَزجر الذئب عن الغنم فتفتق مرارة الذئب في جوفه ، فقيل لابنه عبدالله رضي الله عنهما : فكيف

لا تتفتق مرارة غنمه؟ فقال : لأنها أَلَفَتْ صوته رضي الله عن سيدنا العباس وعن ابنه . . .

وفي الحديث كان صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه : ((أهجم - يعني المشركين - فإن روح القدس معك)) فيهجوهم بأشعاره .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((اللهم أيدِّ حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ويردُّ على المشركين ويهجوهم فإن ذلك مما يُرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

{إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم} .

جاءت هذه الآية الكريمة بأنواع من الترغيب بغضِّ الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعدما تقدم الترهيب والوعيد الشديد في رفع الصوت عنده صلى الله عليه وسلم ، وبيان ما في ذلك من علو الدرجة ورفعة المنزلة ، وضمان المغفرة للذنوب ، وضمان الأجر العظيم مقابل غض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ومجيء هذا الترغيب الأكيد بعد ذلك الترهيب الشديد - فيه قوة التحذير والمنع من الوقوع في النهي عن رفع الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كما أنّ فيه قوة الحث والدفع إلى التحقق بمقام غضِّ الصوت عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وما فيه من الفضل الكبير والأجر العظيم - والجمع بين الترهيب والترغيب والوعد والوعيد هو سنة القرآن الكريم في مجالات الدعوة إلى الخير والتحذير من الشر عاجلاً وأجلاً ، ويعتبر ذلك أعظم تأثيراً في مقام الدعوة .

وتفصيل الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه :

الأول : قوله تعالى : {إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} .

في هذه الآية دليل ساطع ، وبرهان قاطع على عظيم فضل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكرامة منزلته عند الله تعالى ، ومن ثمّ كان غض الصوت عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتزام الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها .

الثاني : في الآية الكريمة دليل واضح يدل على أنّ عندية رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لها شرفها الأعلى ومجدها الأرفع ، ولذلك أوجب سبحانه على مَنْ كان عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقوقاً خاصة ، وآداباً يجب مراعاتها وعدم التساهل فيها ، فإذا تحقق بها من جلس عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم انجلت الغياهب عن قلبه ، ورقّ وخشع ، وشاهد أنوار ربّه ، وشعر أنّه في مقام القرب من حضرة الرب ، وصار في حال غير التي كان عليها ، وذاق طعم الأنس الرحماني الذي يجده أهل حظيرة القدس الربّاني إلى ما وراء ذلك - اللهم بجاهه صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجعلنا من أولئك .

ولا ينبغي لمريض القلب أن يعاند أو يعارض في شيء من ذلك ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك .

روى مسلم والترمذي عن حنظلة بن الربيع الأسيدي - كاتب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ فقلت : نافق حنظلة .

فقال : سبحان الله ما تقول ؟

فقلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُذكرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين ، فإذا خرجنا من عنده ؛ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً .

قال أبو بكر رضي الله عنه : والله إنني لأجد مثل هذا .

فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكر له ذلك .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي ، وفي الذكر ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم ، وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات)) .

وفي رواية لأحمد في (المسند) : عن حنظلة قال رضي الله عنه : قلت يا رسول الله إنا إذا كنا عندك كنا - أي : كنا على حال صفا وحضور وتذكر ، فإذا فارقتنا كنا على غير ذلك .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((والذي نفسي بيده لو كنتم تكونون على الحال الذي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة ، ولأظلتكم بأجنحتها)) .

وروى البزار بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال : قالوا - أي : الصحابة - : يا رسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقتنا كنا على غيره . قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((كيف أنتم وربكم؟)) .

قالوا : الله ربنا في السر والعلانية .

فقال : ((ليس ذلكم النفاق)) .

فكان الصحابة رضي الله عنهم يخافون من تغيير الحال أن يكون نفاقاً ، فسألوه صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فبين لهم أن الحال عنده لا يقاس بغيره ، فإنه حال صفاء ونقاء ، وانكشاف وقرب ، وشاهد لمن كان له قلب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا ، وزهدنا في الدنيا ، وكانت الآخرة كأنها رأي العين ، فإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهالينا ، وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لو أنكم إذا خرجتم تكونون على حالكم عندي لزارتكم الملائكة في بيوتكم ، ولصافحتكم في طرقكم ، ولو لم

تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بخلق جديد يُذنبون فيغفر لهم)) وفي رواية أحمد : ((يذنبون ثم يستغفرون كي يغفر لهم))^١.

وروى البزار وأبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على الحال الذي تكونون عليه لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة))^٢.

وإذا كانت عيادة المؤمن الصالح المريض الجسم ، والجلوس عنده تجعل الذي يعود في حال يجد الله عنده متجلياً برضوانه وغفرانه ورحماته وصلواته ومؤانسته ، وما ذاك إلا لأن العبد الصالح المريض صار في حال توجه إلى الله تعالى ، ولجوء إليه ، وإقبال بكلية عليه ، منكسراً قلبه لربه ، راجياً رحمة ربه ، لا يدع دعاءه سبحانه ، ولا يترك نداءه ، لعلمه أنه سبحانه القريب المجيب ، فإذا دخلت عليه عائداً بصدق نية ، وحسن طوية ، وجدت الله تعالى عنده ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إن الله تعالى يقول يوم القيامة :

يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي^٣ فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده .

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ؟

فقال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي^١ .

^١ رواه الترمذي وأحمد وغيرهما .

^٢ قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير غسان بن مرر وهو ثقة . اهـ .

^٣ أي : عبدي الصالح ، بدليل إضافته إليه تشريفاً وتخصيصاً .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ؟

قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استسقاك عبي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي . . .)) .

فتأمل كيف قال سبحانه في مقام عيادة المؤمن الصالح ؟ لوجدتني عنده ، وأما في الإطعام والسقيا لوجدت ذلك - أي : ثواب ذلك عندي - إرشاداً لفضل زيارة المؤمن الصالح وعيادته .

قال العلامة السبكي رحمه الله تعالى : وسر ذلك أنّ المريض لا يتوجه إلى أحد - أي : بل هو متوجه إلى الواحد الأحد ومستأنس به - فالناس تأتي إليه فناسب قوله : لوجدتني عنده ، بخلاف ذينك فإنهما لغيرهما من الناس . اهـ .

فإذا كانت زيارة المؤمن الصالح وعيادته تجعلك أيها المسلم في حال ((تجد الله عنده)) فما ظنك بالذي يكون عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويجلس في حضرته ؟ !!

وتأمل في قوله تعالى : {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً} كيف نالوا مقام التوابين ، لأنّ من تاب عليه التواب جعله من التوابين ، وسُجّل في ديوان التوابين ، والله تعالى يُحب التوابين فنالوا مقام المحبة ، ونالوا مقام الرحمة الخاصة المشار إليها بقوله تعالى : {لوجدوا الله تواباً رحيماً} .

وهذا المقام أعلى من المقام المشار إليه في آية : {ومنّ يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً} فإن مقام التواب يشمل مقام المغفور له وزيادة خصائص .

فمهما تصورت من شرف عنديته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ومهما قدّرت من فضلها ، وما فيها من مشاهد الأنوار ، وانكشاف الحجب والأستار ، وفيوضات الأسرار ومعابنة الآخرة لأولي الأبصار ، فمهما

¹ أي : لوجدت ثواب ذلك عندي ثواباً عظيماً وفضلاً كبيراً .

تصورت من عظمتها وقدرت من عجائبها فالأمر أعظم من ذلك ، وما ذاك إلا لقوة أنواره الساطعة صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبوارقه اللامعة ، وإفاضاته بالمعارف الهامعة ، والعلوم النافعة ، وبذلك تصير قلوب مَنْ عنده رقيقة لطيفة خاشعة ، وذراتهم كلها آذان مُصْغية وسامعة ، وأيضاً كلها أعين مُبصرة - ولكن كلُّ من الجلساء عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم له حظه الكبير من ذلك على حسب قابليته ، فإنَّ تأثير الفاعلية الكبرى القوية يكون على حسب الاستعداد والقابلية .

ألا ترى قوة التيار الكهربائي الكبير ومولد الطاقة ، فإن تأثيره في الإنارة يظهر في الشمعات - اللمبات - على حسبها ، فالصغيرة تأخذ بمقدارها ، والكبيرة تأخذ بمقدارها ، ولكن التيار أعظم ، والمولد تأثيره وفاعليته أقوى من ذلك بكثير ، ولولا تخفيض المحطات ، وتعديل ما يسمى بالساعات لاحتُرقت جميع الشمعات - اللمبات - فاعتبروا يا أولي الألباب الصادقين الأحباب .

ولذلك كان أدب الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وتعظيمهم له ، وخفض أصواتهم عنده ، وتوقيرهم إياه ، ومراعاتهم لأمواره ، وردِّعهم من جفاً عليه بقول أو فعل ، وتبركهم بأثاره صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان ذلك عن إيمانهم الكامل ، ويقينهم الصادق ، وفيه التنبيه والإرشاد لمن بعدهم .

فإياك أن تتكر ما جاء ثابتاً في الخبر عنهم ، أو تستعظم ذلك منهم ، ولو كنت بينهم ولم تعمل مثلهم لحكموا عليك بالنفاق ، وأبعدوك عن مجالسة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أو لحكموا عليك بالكفر الصريح إن أسأت الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم - على وجه صريح .

وإنَّ قوله تعالى : { أن تحبب أعمالكم وأنتم لا تشعرون } يجعل كل مؤمن خائفاً من التقصير في الأدب مع إمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم خلق الله أجمعين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإياك أن تذكره بدون تعظيم كما تذكر أمثالك من الناس ، فإنه في الكمال فوق مستوى الناس ، ولا ينقاس بالناس صلى الله عليه وسلم .

والآن أذكر بعض ما ورد في أدب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتعظيمهم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم . .

جاء في (صحيح) البخاري وغيره في حديث صلح الحديبية وقد بعثت قريش عروة بن مسعود يُكلم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وكان عروة وقتئذ مشركاً ثم أسلم وحسن إسلامه ؛ وفي الحديث يقول الراوي : ثم إنَّ عروة جعل يرمُق - أي : يلحظ - أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعينيه ، قال : والله ما تنخَّم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده - وفي رواية ابن إسحق : ولا تسقط من شعره شيء إلا أخذه^١ ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره^٢ ، وإذا توضأ صلى الله عليه وعلى آله وسلم كادوا يقتتلون على وُضوءه^٣ ، وإذا تكلم صلى الله عليه وعلى آله وسلم وفي رواية : وإذا تكلموا - أي : الصحابة - خفضوا أصواتهم عنده وما يُحدُّون النظر إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تعظيماً له .

قال : فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه فقال : أي قوم ، والله لقد وفدتُ - أي : قدمت - على الملوك : وفدت على قيصر - ملك الروم - وكسرى - ملك الفرس - والنجاشي - ملك الحبشة - والله إن - أي : ما - رأيتُ ملكاً قطُّ تُعظِّمه أصحابه مثل ما يُعظم أصحاب محمد محمداً - صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

والله إن - أي : ما - تنخم نخامة ، إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على

^١ أي : أخذوا تلك الشعرة الشريفة واحتفظوا بها متبركين ومستشفعين بها .

^٢ أي : أسرعوا إلى فعله .

^٣ بفتح الواو - الماء الذي يتوضأ به ، والمعنى : أنهم تهافتوا على ما يجتمع من القطرات وما يسيل من الماء الذي باشر أعضاء الشريفة عند الوضوء - كما في (المواهب وشرحها) .

وضوئه ، وإذا تكلم ، وفي رواية ، تكلموا : خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدون¹ النظر إليه تعظيماً ، وإنه قد عرض عليكم خطّة رُشد فاقبلوها - أي : فأنا ناصح فإن أمره حق .

وفي رواية ابن أبي شيببة : فقال عروة : أي قوم قد رأيت الملوك ما رأيت مثل محمد وما هو بملك - أي : ما رأيت مثل محمد في هيئته العظمى التي تجعل كل من نظر إليه هابه - كما قال أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه في حديث وصفه صلى الله عليه وسلم : ((من رآه بديهته هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . . .)) الحديث .

وروى البيهقي وغيره عن أسامة بن شريك قال : أتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه عنده ، وكان على رؤوسهم الطير .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يا أيها الناس تداووا فإن الله عز وجل لم يُنزل داءً إلا وأنزل له دواء إلا الهرم)) .

فقيل : يا رسول الله : ما خير ما أعطي الناس؟

فقال : ((خلق حسن)) .

فكان الصحابة إذا جلسوا عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم كأن على رؤوسهم الطير ، وهو كناية عن الإطراق وإمالة رؤوسهم إلى صدورهم ، مع سكوتهم وسكونهم أدباً معه وتوقيراً ، فكانت صفتهم في ذلك صفة رجل على رأسه طائر يريد أن يصيده فهو يخاف أن يتحرك فيطير الطائر .

ومن توقيرهم وأدبهم معه صلى الله عليه وسلم ما رواه البيهقي وغيره عن أنس رضي الله عنه أن أبواب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كانت

¹ أي : لا يُحدقون النظر إليه ، ولا يديمونه مهابة وتعظيماً ، بل كانت نظرات الصحابة رضي الله عنهم إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، نظرات سريعة ، لأن شدة هيئته كانت تعجزهم عن الإحداق ، كما بيّنت ذلك مفصلاً مع الأدلة في كتاب : (شمائله الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم) .

تُقرع بالأظافير - وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من إزعاجه وإساءة الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم . .

روى البيهقي عن أبي رمة قال قدمت المدينة ولم أكن رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فخرج صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعليه ثوبان أخضران فقلت لأبي : هذا والله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فجعل أبي يرتعد هيبته من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

{أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} .

التقوى والتوقي معناهما في اللغة واحد ، وهو : الأخذ بأسباب الوقاية .

وأما في عرف الشرع : فتقوى الله تعالى هي : توقي عذابه وعقابه ، وعتابه وحجابه ، وغضبه وسخطه سبحانه وتعالى - وهذا التوقي إنما يكون بامتثال أوامره سبحانه واجتناب ما نهى عنه ، وهي على مراتب بعضها فوق بعض ، فمن حصل على مراتبها كلها تحقق بالأدب الكامل والتوقير والتعظيم لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فهو من المتقين الكُمَّل أهل الولايات والمقامات والمكرامات والكرامات ، ونيل الإكرام عند الملك العلام كما سيتضح ذلك عند قوله تعالى : {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} .

فالمرتبة الأولى في التقوى هي توقي أنواع الكفر ، والمكفرات القولية والعملية .

الثانية : توقي كبائر الذنوب القولية والعملية .

الثالثة : توقي صغائر الذنوب القولية والعملية .

الرابعة : توقي الشبهات ، وهي الأمور التي لها وجه يُشبهه أن تكون حلالاً ، ولها وجه يشبهه أن تكون حراماً .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الحلال بَيْنٌ والحرام بَيْنٌ ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى

الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام)) الحديث .

الخامسة : تقوى المباحات مخافة الوقوع في المكروهات .

وفي الحديث عن عطية السعدي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس)) .

رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم .

السادسة : تقوى الله حق تقاته ، قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} .

وقد جاء تفسير ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه - مرفوعاً وموقوفاً - قال : (أن يطاع فلا يعصى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكفر) .

وقد عد كثير من العلماء مراتب التقوى خمسة فأدخل بعضها في بعض ، ولكن لا تتم مراتب التقوى إلا بعد النجاح في الامتحان المشار إليه في الآية الكريمة ، وبيان ذلك يتضح في الوجه الآتي :

الوجه الثالث في الكلام على آية : {إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} .

الامتحان والمحنة في لغة العرب هو : استخلاص الشيء وتصفيته تقول : امتحنت الذهب - أي : اختبرتها في النار حتى خلص الذهب الإبريز ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما في معنى {امتحن الله قلوبهم للتقوى} : طهرها من كل قبيح وجعل في قلوبهم التقوى .

فمعنى قوله تعالى : {امتحن الله قلوبهم للتقوى} أي : استخلصها من الكدورات ، و صفاها حتى خلصت لتقواه سبحانه ، وصفت من جميع الكدورات والشوائب ، كما خلص إبريز الذهب بعد دخول النار في البودقة ، فخرج إبريز ذهب خالص من الغش والخبث .

وفي هذه الآية دليل على أنّ إبريز التقوى لا يظفر به الأتقياء مهما عملوا من الطاعات ، وتباعدوا عن المخالفات ، لا يظفرون بإبريز التقوى وتكمل لهم تقواهم إلا بعد التحقق بمقام الأدب الكامل مع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتحقق بمقام : {وتوقروه} كما جاء في الآية الكريمة : {لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه} ومعنى : {تعزروه} أي : وتمنعوا أعداءه من أن ينالوا منه ، {وتوقروه} : أي : تعظموه وتفخموه صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لم يشهد للمتقين بنجاحهم في امتحان التقوى ، وإخلاص قلوبهم واستخلاصها لتقواه وصدقها ؛ إلا لأهل الأدب الشامل والتوقير الكامل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولم يشهد ببلوغ كمال التقوى ، وبلوغ أعالي مقاماتها إلا للمتأدبين معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والموقرين له كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى : {أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} .

ففي قوله تعالى : {أولئك} إشارة لرفعة مقامهم ، وعلو منزلتهم في التقوى ، وعلو درجاتهم عند الله تعالى الذي خلصت قلوبهم لتقواه ، فلم يبق لغير تقواه فيها حق ، بل صارت خالصة من الأغيار المنافية لتقواه سبحانه .
وتفسير {امتحن} في الآية الكريمة بالإخلاص رواه ابن جرير وغيره عن مجاهد ، وهو موافق لقول ابن عباس كما تقدم .

{لهم مغفرة وأجر كبير} .

الغفر في اللغة هو : الستر والتغطية ، يقال : غفر الله تعالى لك غفراً وغفراناً ومغفرةً .

فالمغفرة : إلباس الله تعالى ثوب عفوه للمذنب .

والمغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه للصيانة من الضربات ، في ساحة الحروب والقتال .

وهو سبحانه الغافر والغفور والغفار ، ومعنى ذلك أنه السائر لذنوب عباده وعبوبهم ، والمتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، فهو سبحانه كما قال : {وَمَنْ يَغْفِر الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} . . وذلك لأنّ الذنوب لها آثارها الظلمانية في

نفس المذنب وقلبه ومكانه ، ولها تسجيل وكتابة في صحيفة أعماله ، فإذا غفر الله تعالى للعبد ذنوبه ستر جميع ذلك ، وغطاه بمحو آثارها ومحو كتابتها .

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إذا تاب العبد من ذنوبه : أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ، ومعالمه من الأرض ، حتى يلقي الله تعالى يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنوب))^١ .

وفي الحديث : ((الله أفرح بتوبة التائب من الظمان الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد))^٢ .

فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه ، وجوارحه ، وبقاع الأرض كلها خطاياهم وذنوبهم ومحاها .

روى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له : ((يا معاذ اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن)) .

فقوله سبحانه - في الذين يَغضون أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : **{لهم مغفرة وأجر عظيم}** أي : لهم مغفرة عظيمة ماحية لذنوبهم - والتذكير هنا لتعظيم أمر المغفرة .

{لهم مغفرة وأجر عظيم} .

الأجر ما يقابل العمل ، وقد وصفه سبحانه بأنه عظيم ، ليعلمهم بأنه ليس من باب الأجر ، مثلاً بمثل ، بل إنه سبحانه يُضاعفه أضعافاً لا يعلم عدّها إلا هو سبحانه ، وذلك من باب الفضل ، كما قال تعالى : **{ليوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله}** وقد وصف سبحانه فضله بأنه عظيم قال تعالى : **{والله ذو الفضل العظيم}** وليس لفضله العظيم حدّ ولا انتهاء .

^١ رواه الأصبهاني .

^٢ رواه أبو العباس الهمداني في كتاب التائبين عن أبي الجون مرسلًا كما في (الفتح)

فما أعظم هذه البشارة الإلهية للمؤمنين المعظمين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الموقرين له ، المتأدبين معه .

وهذا وعد إلهي والله تعالى لا يخلف وعده ، وهذا ضمان إلهي وعهد رباني والله تعالى لا ينقض ضمانه وعقده ، ولا يبطل عهده ، قال تعالى : **{ومن أوفى بعهده من الله} .**

وقوله تعالى : **{لهم مغفرة وأجر عظيم}** يدلنا على أمور متعددة :

أولاً : أنّ ترتيب هذا الوعد الإلهي على غض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتسجيل ذلك في الكتاب العزيز - هذا يدلنا على عظيم قدر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند الله تعالى ، وعلى علوّ مقامه وعظمة كرامته على الله تعالى ، ومن ثمّ كان أجر المعظمين له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الغاضين أصواتهم عنده كان أجرهم عند الله عظيماً .

ثانياً : وفي هذا دليل على أنّ الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتعظيمه هو من أرفع المقامات وأكبر الحسنات والقربات ، ومن شأن الحسنات أن يُذهبن السيئات.

ثالثاً : في هذه الآية دليل على أنّ هذا البشارة الإلهية بأن لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا هذه بشارة عظيمة ومِنَّةٌ من الله تعالى كُبرى ، وأنّ من نال المغفرة من الله تعالى بالأجر العظيم فقد فاز فوزاً عظيماً - ولولا أنّ تلك البشارة هي البشارة العظيمة وفيها الفرحة الكبرى لما وعدّها الله تعالى ، ولما بشر بها أولئك الأتقياء الأدباء مع إمام الرسل والأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

رابعاً : في هذه البشارة : **{لهم مغفرة وأجر عظيم}** دليل على أنّ أهمّ ما يهمهم ، وأكبر مطلوب عندهم هو مغفرة الله تعالى لهم ، وأعظم مرغوب يرغبون فيه هو دخولهم جنة الله تعالى التي فيها التجلي برضوانه الأكبر ، وفيها رؤية الحق سبحانه ، وفيها مقعد الصدق عند ملك مقدر ، ففي غفر ذنوبهم أمنوا من عذاب الله وغضبه ، وفي الأجر العظيم دخلوا دار السلام

والكرامة ، ولو لم يكن ذلك هو مرغوبهم الأول ، ومطلوبهم الأفضل ، لما كانت بشارة الله تعالى لهم بذلك لها موقع كبير في قلوب أولئك - أعني {أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} ولَمَّا كان لهم السرور والفرح الكبير بما هنالك ، ولَمَّا كان هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم للذين فازوا بامتحان قلوبهم للتقوى ونالوا أعلى مراتب التقوى - لو لم يكن الوعد بذلك عظيماً كبيراً لما رتبه على هذا المقام العظيم .

خامساً : في ذلك إرشاد وتنبيه للمؤمنين كافة ، أن يكون أكبر همهم هو مغفرة الله تعالى لذنوبهم ، وذلك بامثال أوامره واجتناب ما نهى عنه ، **وَمِنَ اعْظَمِ الْأَمْرِ الْأَدَبُ** مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وغض الصوت عنده ، والتوقير والتعظيم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ولذلك جاء الوعد لهؤلاء بالمغفرة والأجر العظيم ، ومن أعظم المناهي هو إساءة الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتقصير في جانب توقيره وتعظيمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ولذلك جاء الوعد على ذلك بحبوط الأعمال وهذا أكبر تهديد ووعد .

سادساً : إنَّ في قوله تعالى : {لهم مغفرة وأجر عظيم} دليلاً على أنَّ مغفرة الله تعالى لا يستغني عنها كل مؤمن مهما سَمَتُ درجته في الصلاح ، وعلت منزلته في التقوى ، وأنه يجب على المؤمن أن يكون أكبر همه مغفرة الله تعالى - فقد أخبر سبحانه عن كافة عباده المؤمنين على مختلف مراتبهم ، كل أولئك يسألون الله تعالى المغفرة ويلحون في دعائهم بالمغفرة كل على حسب مقامه ، يسأل المغفرة من الله تعالى عما صدر عنه . . .

قال تعالى - في سورة المؤمنين - : {إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون} .

وقال تعالى - في سورة آل عمران - : {الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقتنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار} - وهؤلاء من خواص المؤمنين .

وقال تعالى - مخبراً عن أولي الألباب - : {ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار} .

وأخبر سبحانه عن حملة العرش العظيم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، قال تعالى : {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا} .

فما أحوج المؤمنين إلى مغفرة الله تعالى ؟ !!!

وقال تعالى : {والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} .

اللهم آمين آمين آمين .

واعتبر أيها المؤمن بقوله تعالى : {ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا} تعلم ضرر غل قلب المؤمن على أخيه ، وأنه من أكبر الذنوب التي تحطم الإيمان في القلوب ، وأنه مفسدة كبرى بين المؤمنين ، وهذا هو الداء الأكبر المستشري في عصرنا بين كثير من المؤمنين ، إلا من حفظه الله تعالى وأعاده من ذلك - ألم يسمعوا قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وقد سئل : أي الناس أفضل ، فقال : ((كل مخموم القلب صدوق اللسان)) .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

فقال : ((هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ، ولا غل ولا حسد))¹ .

وقال تعالى : {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} .

¹ رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

فما أعظم أمر المغفرة وما أحوج الإنسان إليها ، وقد جعلها الله تعالى
البشارة العظمى لأوليائه ، والصالحين من عباده .

قال سبحانه : في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم :
{محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً
سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر
السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه
فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد
الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا} .

فاعتبر في هذه الآية بعدما أثنى سبحانه على أصحاب النبي صلى الله عليه
وعلى آله وسلم بذلك الثناء الكبير ، بشرهم بالمغفرة والأجر العظيم .

وقوله تعالى : {منهم} هي للبيان كما هو معلوم وليست للتبعيض - والبحث
في معاني هذه الآية الكريمة وما فيها من فضل الصحابة رضي الله عنهم
سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

ومما يدل على عظم أمر المغفرة ، وأن جميع المؤمنين هم محتاجون إليها
كل على حسب مقامه ، يدل على ذلك أن الله تعالى أخبرنا في القرآن
الكريم عن رسله وأنبيائه أنهم سألوه المغفرة سبحانه وتعالى .

قال تعالى مخبراً عن آدم عليه السلام : {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم
تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} .

وقال تعالى عن نوح عليه السلام : {رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل
بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً} .

وقال تعالى عن الخليل عليه السلام : {ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين
يوم يقوم الحساب} .

فدعا بالمغفرة لنفسه ولوالديه ولجميع المؤمنين ، وهذا دليل على إيمان
والديه وإلا فما الفرق بين هذا وبين دعاء نوح عليه السلام لوالديه
وللمؤمنين كما تقدم .

وقال عن الكليم عليه السلام : {أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} .

وقال عن داود عليه السلام : {فاستغفر ربه وخر راکعاً وأتاب} .

وقال عن سليمان عليه السلام : {قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب} .

قوله تعالى :

{إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} .

جاءت هذه الآية الكريمة في ذم الذين يُسيئون الأدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويرفعون أصواتهم بالنداء له ، وفي هذه الآية بيان قبحهم ، وشناعة سلوكهم ، وسفاهة عقولهم .

روى الطبراني وابن راهويه وابن جرير وغيرهم بسند حسن عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإنّ يَكُ نَبِيًّا فنحن أسعد الناس به ، وإنّ يَكُ مَلِكاً نعش بجناحه .

قال زيد : فأتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاؤوا إلى حجراته صلى الله عليه وعلى آله وسلم فجعلوا ينادون يا محمد أخرج إلينا فأنزل الله تعالى : {إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأذني وجعل يقول : ((لقد صدّق الله قولك يا زيد ، لقد صدّق الله قولك يا زيد)) .

وروى الترمذي وغيره عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى : {إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات} الآية ، قال : جاء رجل - أي : وكان معه رجال من عشيرته وهو أميرهم - فقال : يا محمد إنّ حمدي زين وإنّ ذمي شين .

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ذاك الله تعالى)) ونزلت الآية .

وفي رواية الإمام أحمد وغيره أنّ هذا الرجل هو الأقرع بن حابس .

وهنا كلام طويل لأصحاب السير وربما ينقض بعضه بعضاً في تعيين الأشخاص ، وعلى كلّ فهُم قوم من جفاة الأعراب ، وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فسألوا عنه في المسجد فلم يجدوه - فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يستقبل الوفود في المسجد - فلما كان وقت الظهر ذهب إلى حجراته صلى الله عليه وعلى آله وسلم فجاؤوا إلى الحجرات وجعلوا ينادونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بصوت جاف ، يا محمد اخرج إلينا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية .

{إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} .

وقد جاء خبر القرآن الكريم عن ندائهم بصيغة المضارع ، ولم يقل : إن الذين نادوك ، نظراً لتقدم النداء على النزول بل قال سبحانه : {ينادونك} لأجل تحضير الصورة الماضية للسامع ، بحيث تجعل السامع في غرابة واستقباح ونفرة لما فعله هؤلاء من النداء بالصوت الجافي من وراء الحجرات .

والحجرات جمع حُجرة ، وهي : القطعة من الأرض المحجورة - أي : الممنوعة عن الدخول فيها بسبب حائط أو نحوه - فهي بمعنى اسم المفعول ، كما يُقال لما يُغرف باليد من الماء : عُرفة - أي : مغروفة باليد - والمراد بالحجرات في الآية الكريمة حُجرات نساء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكانت تسعة لكل منهن حجرة - عليهنّ السلام - ورضي الله عنهن جميعاً .

قوله تعالى :

{إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} .

ومعنى ينادونك من وراء الحجرات - أي : ينادونك من خارجها - خلفها أو قدامها ، لأنّ كلمة وراء هي مأخوذة من الموارد والاستتار ، فما توارى عنك واستتر فهو وراء ، خلفاً كان أو قداماً - إذا لم تره - فإذا رأيته لم يكن وراء ، قال تعالى : {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا} أي : كان

قدامهم ، ولكنه بعيد عنهم لم يَرَوْه ، ولو كان وراء هنا معنى الخلف لخلصوا من شره ولما احتاج الأمر إلى تعيب السفينة وخرقها ، وبناء على ذلك فكلمة وراء مشترك معنوي للخلف والأمام الذي لا يُرى .

وقال بعض أئمة اللغة : إنّ وراء هو من الأضداد فهو مشترك لفظي .

وكيفية مناداتهم من وراء الحجرات ، إمّا بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه صلى الله عليه وعلى آله وسلم من ورائها ؛ وإمّا بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقيل إنّ الذي نادى من وراء الحجرات هو رجل واحد ، ولكن أسند النداء إلى الكل لأنهم رضوا بذلك وأقروه وإنّ إقرار المنكر والقبيح هو كفعله .

وعلى كل فإنّ العمل الذي صدر منهم هو عمل قبيح مستهجن ، صدر عن خشونة وجهل ، ولم يصدر عن رويّة وعقل ومن ثمّ قال تعالى :

{إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} .

ف فعلهم هذا لم يجر على مقتضى العقل من مراعاة الأدب والتكريم والتعظيم ، لا سيما مع أكرم خلق الله تعالى عند الله قدراً ، وأرفعهم عنده سبحانه ذكراً ، وسيد العالمين وإمام الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين وعلينا معهم - آمين .

والحكم على الأكثر دون الكل بأنهم لا يعقلون يُحتمل أنّ منهم من لم يقصد ترك الأدب ، بل نادى لأمرٍ ما بدون جفوة ولا رفع صوت ، أو أكثرهم الذين نادوا ، والذين سكتوا وهم راضون بذلك النداء وهذان القسمان هم الأكثر ؛ وهناك من سكت وهو غير راض بما جرى وهم أقلهم .

روى البخاري في (الأدب المفرد) عن الحسن رضي الله عنه قال : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي^١ .

^١ رواه ابن سعد والبيهقي في (الشعب) .

وروى البخاري في (الأدب المفرد) عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغطى من خارج بمسوح - أي : جلود - الشعر وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع ، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع.

وفي هذا دليل واضح على تواضعه وزهده في الدنيا ، وبُعدّه عن زخارفها وقصورها صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وروى ابن سعد عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول : والله لو ددت أنهم تركوا الحجرات على حالها لكي ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، فيكون ذلك مما يُزهد الناس في التكاثر والتفاخر في الدنيا .

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف : لئيتها تُركت فلم تُهدم حتى يقصر الناس عن البناء ، ويرون ما رضي الله لنبيه صلى الله عليه وسلم - ومفاتيح خزائن الدنيا بيده صلى الله عليه وعلى آله وسلم . اهـ .

ويُشير بذلك إلى قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني والله أوتيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها))^١ .

قوله صلى الله عليه وسلم : ((أوتيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها . .)) وبقية الأحاديث المتقدمة تشير إلى زهده صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت طرفاً من زهده صلى الله عليه وسلم في كتاب الشمائل فارجع إليه .

قوله تعالى :

{ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم} .

^{١١} رواه الشيخان وغيرهما .

والمعنى : أنهم لو انتظروا خروجك لكان خيراً لهم ، وأصلح في دينهم ودينياهم ، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل بمهمات نفسه وحقوق أهله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فكان إزعاجه في تلك الحالة واستعجالهم إياه من سوء الأدب ، والإخلال بتعظيم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلو أنهم كانوا صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً ، لما في ذلك من امتثال الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقيامهم بواجب توقيره وتعظيمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وإنَّ الأدب معه وتوقيره صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوجبان الثناء الحسن للمتحقق بهما ، ويوجبان له الثواب العظيم عند رب العرش العظيم ، ويكتسب بهما رضواناً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، {والله ورسوله أحقُّ أن يُرضوه إن كانوا مؤمنين} .

ويروى أنهم جاؤوا شفعاء في أسرى بني عنبر ، فأعتق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نصفهم وفادى النصف الآخر ، ولو أنهم صبروا حتى يخرج إليهم لأعتق جميعهم بغير فداء .

قال عبد الله : وهذه الرواية ضعيفة بل مردودة ، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان أكرم من أن يؤأخذهم أو يعاقبهم بذلك لسوء أدبهم معه ، وقد قال الله تعالى له : {خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} .

وقد قال سبحانه - في آخر الآية - : {والله غفور رحيم} .

فهو سبحانه واسع المغفرة والرحمة ، فلذلك لم يأخذهم بعقاب ، ولم يهلكهم بعذاب لسوء أدبهم ، وترك توقييرهم وتعظيمهم لحبيبه الكريم الأكرم صلى الله عليه وسلم ، بل قابلهم سبحانه على ذلك بالتقريع والتوبيخ فقال : {إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} ، ثم ختم ذلك بالنصح لهم كي لا يعودوا لمثله أبداً فقال : {ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم} الآية .

وفي هذا تنبيهٌ عام ، وإرشاد شامل لجميع الأمة أن يحذروا كل الحذر من سوء الأدب مع سيد البشر ، فإنه أكرم الخلق على الله تعالى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فمن الواجب تكريمه وتعظيمه .

ففي الآية تحذير وأن من صدر منه ذلك فقد تعرّض لعظيم العقاب والخطر .

قوله تعالى :

{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} .

بعدما بيّن الله تعالى في الآيات السابقة وجوب القيام بحقوق الله تعالى ، ووجوب القيام بحقوق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ ووجوب الأدب مع الله تعالى ، والأدب مع رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ وعدم التقدم على الله تعالى ، وعدم التقدم على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ في الأقوال والأعمال والآراء ، بل يكون موقفهم فيما جاء عن الله تعالى وما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم موقف السامع المطيع ، المسلم تسليماً مطلقاً بلا توقف على إعمال فكر ، أو إبداء رأي ، فإنّ ما جاء عن الله تعالى وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كل ذلك صادر عن علم وحكمة ، وكل ذلك معقول ومُحكّم عند أهل العقول السليمة ، وأولى الأفهام المستقيمة ؛ وبعدما بين سبحانه واجبات الحقوق الأدبية مع رسوله الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وحذر وأنذر ، وهَدّد وأوعد لمن يخالف ذلك قال بعد :

{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} .

وفي هذا إرشادٌ إلى التثبت في الأمور ، وصحة الأخبار والنقول ، حتى لا يخلت نظام المجتمع ، ولا يتفرق الجمع والشمل بسبب أخبار غير صحيحة ، وشائعات غير ثابتة .

والكلام على هذه الآية له وجوه :

الأول : في بيان سبب نزولها :

روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مَنده وابن مَرْدويه بسند جيّد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعتُ زكاته وتُرسِل إليّ يا رسول الله رسولاً لإبّان - أي : وقت - كذا وكذا ليأتيك بما جمعتُ من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممّن استجاب له ، وبَلَغ الإبّان - الوقت - الذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه الرسول ولم يأتئه الرسول من طرفه صلى الله عليه وسلم ، ظن الحارث أنّه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فدعا - أي : الحارث - بسروات قومه فقال لهم : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الخلف ؛ ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث - أي : وقد كان بعث - رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الوليد بن عُقبَة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بعض الطريق أخذَه الروح - أي : خاف واعتراه الفزع - وذلك لأنّه كان بينه وبينهم شحناء في الجاهلية - كما جاء مصرحاً بذلك في رواية ، وجاء في رواية أخرى : فحدثه الشيطان أنّهم يريدون قتله - فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : يا رسول الله إنّ الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي .

فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث رضي الله عنه .

فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟

قالوا : إليك .

قال : ولم ؟

قالوا : إنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنّك منعتك الزكاة وأردت قتله .

فقال الحارث رضي الله عنه : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتّة ، - أي : قطعاً - ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ((منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟)) .

قال الحارث : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فخشيت أن يكون كان سخطة من الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فنزلت الآية : {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة} . . إلى قوله تعالى : {والله عليم حكيم} .

الوجه الثاني في الكلام على الآية الكريمة :

{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} . .

الفِسق في اللغة : هو الخروج عن الشيء ، يُقال : فسقت الرُطبة إذا خرجت عن قشرها ؛ وتُسمى الفأرة ونحوها : فويسقة لخروجها من جحرها .

وفي (صحيح) مسلم وغيره : ((خمس فواسق يُقتلن في الحلّ والحرم : الحية ، والغراب الأبقع ، والفأرة ، والكلب العقور ، والحديّا)) ، وفي رواية: ((والعقرب)) مكان الحية ، فأطلق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على تلك الحيوانات فواسق ، لأنها تخرج من جحرها وتؤدي .

وأما الفسق في عرف الشرع : فهو الخروج من طاعة الله عز وجل ، فإن كان خرج عن العقائد الإيمانية فهو الكفر ، وإن كان خرج عن الواجبات

الدينية أو وقع في المنهيات المحرمة شرعاً فهو العصيان - ومن هنا تعلم أن الفسق قد يوصف به الكافر .

قال تعالى : {وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون} .

وقد يوصف به تارك المأمورات ، أو فاعل المنهيات ، ومن ذلك ما جاء في هذه الآية الكريمة ، فإنه سبحانه وصف الوليد بكونه فاسقاً لأنه كذب في قوله ، ويترتب على كذبه شر وفساد .

{فَتَبَيَّنُوا} والتبين هو طلب البيان ، والتعرف لصحة النبأ ، وقريب منه التثبت ، وقرأ حمزة والكسائي : {فَتَثَبَّتُوا} وهو طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال في شأن المقال أهو صدق أم كذب ومحال .

وقد روى ابن جرير وغيره عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال يوم نزلت هذه الآية : ((التثبت من الله تعالى ، والعجلة من الشيطان)) .

وتنكير {فَاسِقٌ} للتعميم لأنه نكرة جاءت في سياق الشرط ، كما أن النكرة إذا جاءت في سياق النفي فتعم .

والنبأ هو الخبر - مطلقاً - وقال بعض محققي اللغة : لا يقال للخبر نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة ، أو خبراً ينبغي الاهتمام به .

وفي هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ، لأن الله تعالى إنما أمر بالتبيين عند نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه بطل قوله ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها¹، فإذا كان المخبر عدلاً قبل خبره ولا يحتاج إلى تثبت .

الوجه الثالث - في الكلام على الآية الكريمة :

¹ وتفصيل الكلام على خبر الفاسق في أمور الدين وشهاداته هو مذكور في كتب الفقه وأصوله وأصول علم الحديث فمن أراد التوسع فليراجع ذلك . .

{فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} .

لما أمر سبحانه بالتبين في الأنباء ، والتثبت في الأخبار ؛ بين علة ذلك فقال جل وعلا : {أن تصيبوا} وهي في موضع المفعول لأجله لقوله تعالى : {أن تحبط أعمالكم} وتقدير ذلك على مذهب الكوفيين : لئلا تصيبوا ، وعلى مذهب البصريين : كراهة أن تصيبوا ، وعلى كلِّ فالمعنى : فتبينوا صحة النبأ لأجل كراهة أن تصيبوا بأذى قوماً برآء مما بلغكم عنهم ، ولكن صدر ذلك الأذى منكم بجهالة لحالهم - أي : والحال أنتم جاهلون بحالهم .

{فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} أي : فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رُموا به واتُّهموا {على ما فعلتم} في حقهم من الأذى والانتقام {نادمين} أي : أسفين على ما فعلتم ، ومغتمين غمّاً كبيراً لازماً لكم ، ومتمنين أنه لم يقع ذلك منكم ، فإنَّ الندم يدل على الأسف والغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه .

والمادة - أي : مادة الندم - تُشعر باللزوم ، كما أنَّ جميع تصاريف حروف الندم تُشعر باللزوم ، ومن ذلك قولهم : مدن - أي : لزم الإقامة ومنه المدينة - أي : موضع الإقامة - ويقال : أذمن الشيء أدام فعله .

وجيء بكلمة {فتصبحوا} ولم يقل سبحانه : فتصيروا فإنَّ ذلك أبلغ ، باعتبار أنَّ أشنع الندم وأقبحه هو ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه ، وإقباله على مهمّته ، ومن ثمَّ قال تعالى : {فساء صباح المنذرين}

وقال تعالى : {فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} .

وقال تعالى - في قوم ثمود - : {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين} .

وقال تعالى - في قوم شعيب - : {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين} .

كما أنّ النبأ المبشر بالخير في الصباح هو أقوى في السرور وفي الفرح عند السامع ، قال جلا وعلا : {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وانكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً} .

وهكذا في كثير من الآيات القرآنية جيء فيها بكلمة أصبحت مكان صرتم لما ذكرنا والله تعالى أعلم .

وفي هذه الآية الكريمة - أي: قوله تعالى : {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ} الآية فيها إرشاد إلى مكارم الأخلاق ، وإلى التعقل في جميع الأمور والتثبت فيها ، وعدم التعجل وارتكاب السبيل المؤدية إلى سوء النتائج ، وقبح العواقب وسوء الظنون ، وذلك كله لأجل الحفاظ على وحدة صف المؤمنين في النظام الواحد ، وعدم تفكك العرى، وتشتيت أمر المجتمع لأخبار موهومة ، وشائعات باطلة مُعرضة ، فإنّ دين الإسلام هو دين السلام والوئام ، ودين المحبة والوفاق ، لا دين البغضاء والشقاق ، ودين التثبت والتعقل لا دين الطيش والتعجل ، فإنهما المؤديان إلى فساد العباد وخراب البلاد ، وتفرق المجتمع . . . إلخ .

وفي الحديث عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة))^١ .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((من تأنى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد))^٢ .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم للأشج - أشجّ عبد القيس لما وفد بقومه على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له : ((إنّ فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة)) .

فقال : يا رسول الله أخلقيتُ بهما أم جبلني الله عليهما ؟

^١ رواه أبو داود وغيره .

^٢ رواه الطبراني .

قال : ((بل جبلك الله عليهما)).

فقال : الحمد لله الذي جبلني على خُلُقَيْنِ يحبهما الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم¹.

فالواجب على المؤمن التثبت في الأمور ؛ والتبيين في صحة الأخبار التي تَبْلُغُه وما يُنقل إليه من كلام أو يسمعه من الوشاة ، فكم أُورث عدم التبيين والتثبت فيها فساداً كبيراً ، وشرّاً مستطيراً ، وعداوات وشحناء ، وتفرقة وبغضاء متفاقمة ومتوارثة ، وكل ذلك مبني على أخبار لا حقيقة لها في الواقع ، وإنما هي كسراب بقية يحسبه الظمان ماءً - وما أكثر الوشاة والحاسدين والمفرقين بين الأحبة ، والمفسدين بين الناس .

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من النميمة ، ومن إفساد ذات البين ، وإلقاء العداوة والتفرقة بين المؤمنين بنقل الكلام القبيح المؤدي إلى الفساد بينهم .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عُثْمِ رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((خيارُ أمتي الذين إذا رُؤوا ذَكَرَ اللهُ تعالى - أي : لأنّ عليهم نوراً من الله تعالى ولأنهم على ذكر الله تعالى - وشرار أمتي المشاؤون بالنميمة ، المفرّقون بين الأحبة ، الباغون البراء العنت)).

وفي رواية أبي الشيخ ابن حبان قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يحشرهم الله تعالى في وجوه الكلاب)).

قال في (النهاية) : في معنى قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الباغون البراء العنت)) قال : ((العنت)) : المشقة ، والفساد ، والهلاك ، والإثم ، والخطأ ، والزنا - كل ذلك قد جاء في الكتاب والسنة ، والحديث . يحتمل كلها .

يعني : أن العنت في اللغة قد يطلق ويراد به أحد تلك المعاني أو كلها .

¹ رواه الشيخان .

قال : و((البراء)) جمع بريء وهو - أي : ((البراء والعنت)) منصوبان للباغون ، يقال : بغيت فلاناً خيراً أو شراً . ا هـ .

قوله تعالى :

{واعلموا أنّ فيكم رسول الله} . .

والمعنى : واعلموا أيتها الأمة {أنّ فيكم رسول الله} أي : رسول ربّ العالمين ، فاطر السماوات والأرضين ، الله مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، عالم الغيب والشهادة ، وعلّام الغيوب وما تُكنّه القلوب ، وما تُخفي الصدور .

فاعلموا فضل هذا الرسول الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والزموا الأدب معه ، ووقروه وعظموه ، فإنّ شرف الرسول تابع لشرف مرسله ، كما وأنّ تعظيمه والأدب معه يدلان على تعظيم مرسله والأدب معه ، فإنّهُ رسول الله وليس هو كأحد من الناس ، بل هو لا ينقاس بالناس لعدم تصور المقياس ، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أشفق عليكم منكم ، فإنّهُ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ورأيه أكمل وأصلح من رأيكم لأنفسكم ، فانقادوا لأمره وأطيعوه ، فهو الذي يتوارد عليه الوحي من الله تعالى - .

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنما يعمل بأمر الله تعالى الذي أرسله ، فيجب عليكم أن ترجعوا إليه في جميع الأمور والحالات ، ولا تقدّموا برأيكم على رأيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، بل كونوا متبعين له ، مقتدين به ، فإنه الإمام الأعظم ولا إمام أعظم منه ، فإنّهُ إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين .

وفي هذا توبيخ وتشنيع على من أراد من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم العقاب والإيقاع بالحارث وقومه بمجرد ما جاءهم هذا النبأ دون تثبت ولا تبيين ، ولكنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يوافقهم على ذلك ، بل أوقف الأمر على التبيين والتثبت في صحة النبأ ، وأرسل من يبحث عن ذلك ، وهؤلاء الذين استحسنوا التعجل بالإيقاع وإن كانوا قلة ولكنّ

الوحي جاء مُنبهاً كل التنبيه ، ومحذراً كل التحذير ، وَيُنْعِي عليهم ذلك
بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو
فيهم ، والمرجع إليه ، وهو الحاكم عليهم والحَكَم عليهم ، ولا حُكَم لهم
عليه ، وهو المطاع أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لأنّه يحكم بحكم
الله تعالى ، ويعمل بأمره ، فلا تستعجلوه في أمر من الأمور؛ فتضلوا
وتهلكوا ، فإن جميع الأمور المتنازع فيها يجب أن تُردَّ إلى رسول الله
صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليحكم بما أراه الله تعالى .

{واعلموا أنّ فيكم رسول الله} .

فإن الله تعالى يُعلمه بأنبائكم ، وبما تقولون ، فلا يكذب عليه أحد فيكشف
الله تعالى كذبه ويفضحه ؛ وفي هذا تحذير لمن جاء بالنبأ ، وتحذير لمن
تعجل بالتصديق وبصحة النبأ ؛ وتعجيل العقوبات قبل التبيّن .

فإنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرسله الله تعالى رحمة
للعالمين ، وقد جاءكم بما يجمع شملكم ، ويؤلف بينكم ، ولم يأتكم بما يُفرق
جمعكم ويثير العداوة بينكم .

قوله تعالى :

{لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} .

والمعنى : أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لو يوافقكم على
كثير من الأمور التي تستحسنونها ؛ ومنها الأنبياء والأخبار التي تُردُّ عليكم
فتستصوبونها أو تُصدقونها - لو أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وافقكم
على ذلك لعنتم - أي : لوقعتم في المشقة والشدائد والهلاك ، ولكنّه لا
يوافقكم على ذلك ؛ لأنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول الله ، هو
الذي يعلم من الله تعالى ما لا تعلمون ، فإنّه في جميع حركاته وسكناته
المنوطة بأمور الأمة هو في جميع ذلك وقّاف عند وحي الله تعالى ، وأمره
سبحانه وتعالى ، مع ما أوتي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من النظر في
الأمور ، والتبصر فيها ، وفي التدبر في عواقبها بسبب ما أُعطي من النور
الكاشف والمميز ، ألا وهو نور النبوة المحمدية صلى الله عليه وسلم ،

والخبرة التامة في الأمور المشتبهات ، وهو أعلم بمصالحكم ، فلو أنه أطاعكم في كل ما تختارونه وتستحسنوه لأدى إلى حرجكم وعنكم .

وكيف يطيعكم في كثير من الأمر ترون أنه صواب أو أنه مستحسن ، فإنكم تجهلون أكثر مما تعلمون ؟ !! ، فإنه لو يطيعكم فيها لعنتم ، ووقعتم في المشاق والشدائد ، في حين أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء بما يُجنّبكم من الوقوع في العنت ، والوقوع في الحرج ، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أولى بكم من أنفسكم ، فيصعب عليه ما يشق عليكم ، ويؤلمه ما يؤلمكم ، كما قال تعالى : {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم} .

فكل أمر فيه عننكم ومشقة عليكم ، أو شدائد وكربات فإن ذلك يصعب عليه ويشق عليه ، لأنه أرحم بكم من أنفسكم ، قال تعالى : {النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم} .

وقد جاء حريصاً على أن يوصل كل ما فيه خير وسعادة لكم في دنياكم وآخرتكم ، وهو حريص عليكم أن تتقبلوا ذلك ، وتتحققوا بما جاءكم ، حتى تكونوا سعداء مكرمين ، فإن ذلك بُغيته ورغبته - صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فهو أحرص على نفعكم من حرص الوالدين على ولدهما .

كما وأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء رحمة للعالمين كلهم ، قال تعالى : {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} .

وخاصة بالمؤمنين فوق تلك الرحمة العامة ، قال تعالى : {بالمؤمنين رؤوف رحيم} .

وإنّ جميع هذه المبادئ التي جاء بها ، والصفات والمقامات التي أقامه الله تعالى فيها ، جميع ذلك يقتضى أن يُبعدكم عن كل أمر يعود عليكم بالعنت والمشقة والهلاك ، فكيف يُطيعكم ويوافقكم على أمور أنتم تستحسنونها وتستصوبونها ؟ ! وهو يعلم أنها سوف تُوقعكم في العنت والشدة ، وتعود

عليكم بالندامة - إذاً فكونوا طائعين له كل الطاعة ، ومسلمين له كل التسليم ؛ بلا توقف على نظركم ورأيكم وعقولكم .

{لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} .

جاء بصيغة المضارع لما في ذلك من التنبيه لجميع الأمة عامة ، الذين أدركوه في الحياة الدنيا والذين يأتون من بعده ، فما قاله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحكم به فهو الخير والأفضل ، والأحسن ولا أحسن منه ، وما رآه حسناً فهو فوق الآراء كلها .

فما على الأمة إلا التسليم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم - تسليماً كاملاً بلا توقف على نظر ، فإنه صادر عن حكمة بالغة وحُجَّة دامغة . . ومن هنا يجب على كل عاقل مكلف أن يعلم أن الدين الإسلامي والشرع المحمدي لم يأت بما فيه العنت - أي : المشقة - أو الشدة والحرَج ، أو ما فيه ضيق على الأمة ، أو ثقل وصعوبة عليهم ، بل الأمر بالعكس ، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء برسالة من الله تعالى يرفع بها كل ما فيه عنت أو حرج أو ثقل وصعوبات ومشقات .

أما رفع العنت فهو كما قال سبحانه : {لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} - أي : فلذلك هو لا يوافقكم على كثير من الأمر ليمنعكم من الوقوع في العنت ، فإن {لو} هي حرف امتناع كما هو معلوم . .

أما نفي الحرج فهو كما قال سبحانه : {ما جعل عليكم في الدين من حرج} - أي : ما شرع لكم ذلك بل الأمر بالعكس .

وقد بين سبحانه أنه ما يريد في شرعه القويم ، ودينه المستقيم ؛ أن يوقع العباد في حرج ما ، قال تعالى : {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج} فنفي عن دينه سبحانه الذي شرعه نفي عنه أصل الحرج كلاً أو بعضاً ، وبيّن سبحانه أنه يُريد فيما شرعه أن يرفع المكلفين إلى مستوى الكمال في العقيدة والعمل والقول والخلق ، ومن ثمَّ قال سبحانه {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون}.

فجاء بما فيه طهارة القلوب من العقائد الفاسدة ؛ وطهارة النفوس من الأهواء الحيوانية البهيمية ، والأدناس والأرجاس الشيطانية ، وبما فيه طهارة الأبدان من النجاسات القذرة ، والأوساخ الوخيمة ، فشرع النظافة والوضوء والغسل ، وكل ما فيه الطهر والنقاء ، كما أنه جاء بالطهارة الخلقية من الحقد ، والحسد ، والشحناء ، والبغضاء ، والفظاظة والغلظة ، الشراسة ، والخديعة ، والمكر . . . إلى ما وراء ذلك .

فما يستحسنه بعض أدعياء الثقافة ، أو الفهم والحصافة ، أو الدراسة ذات الكثافة . . . فما يستحسنه هؤلاء ممّا يخالف الشرع المحمدي القويم ، ومنهاجه المستقيم يقال لهم : كلّ ما تدعونه من ذلك وتزعمون أنه حكمة أو نظرية وروية فإنّ ذلك لو رجعت إلى التعقل المجرد ؛ والتفكر الصحيح ؛ لتبين لكم أنّ أقوالكم المخالفة للشرع المحمدي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي سخافة وليست بثقافة ، وخرافة وليس بحصافة .

قال تعالى : {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} .

فتفكر تعلم الحق من الباطل ، ومتى علمت الحق أيقنت أنه الحق لا ما يخالفه .

فالعقل الصحيح لا يسعه إلا أن يتّبع النقل الصحيح ، فجاء الشرع المحمديّ يُنور للعقول طرق التعقل ، وجاء ينور للبصر والبصيرة طرق التبصر ، قال تعالى : {قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ} .

فإذا طلعت الشمس وانتشر ضوءها ، وتفتحت العيون المبصرة اهتدت لمصالحها ، وأما من أغمض عينيه ، وأطبق عليهما جفنيه ، وقال أنا لا أرى شيئاً مما ترون قل له : لقد تعاميت ، فأنت والأعمى سواء - نسأل الله تعالى العافية من عمى القلوب {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} فتدبر وتفكر وتبصر وتذكر .

ولقد قال سيدنا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في أبيات له :

وفينا رسول الله يتلو كتابه

إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا

به موقنات أنّ ما قال واقع

فالعقل هو نور ولكن لا يهديك إلى حقائق الأمور وعواقبها ، بل لا بدّ له من نور آخر يسير ويجري بنوره ، فإذا التقى نور العقل الصحيح مع نور النقل الصحيح اهتدى صاحبه إلى حقائق الأمور وعواقبها الحسنة الحميدة ، كما أنّ البصر هو نور يرى به الإنسان أشياء وأشياء ، ولكن لا بدّ في رؤيته أن يمشي على نور آخر كنور الشمس والقمر ونحو ذلك ، وإذا لم يبصر نوراً آخر كما إذا كان في ظلمة الليلة الدامث فإن البصير والأعمى سواء في الظلمة الدامثة .

فالنقل الصحيح لا بد له من عقل صحيح ، والعقل الصحيح هو أحوج ما يكون إلى النقل الصحيح الوارد عن الوحي الإلهي : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الذي أرسله الله تعالى {شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً} .

فجاء صلى الله عليه وسلم يدعوا إلى الله تعالى ، وجاء سراجاً منيراً يُنور القلوب والعقول ، والمدارك والأفكار ، والبصائر والأبصار ، والوجوه والأرواح والأشباح .

جعلنا الله تعالى من أتباعه ، السائرين وراءه صلى الله عليه وسلم الماشين على نوره الذي جاء به ، المهتدين بهديه .

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا

كفى لمطايانا بذكرك حاديا

وإن نحن أضللنا الطريق لغفوة

كفى لهدانا نور وجهك هاديا

اللهم وفقنا لمتابعتة ، وارزقنا شفاعته ، وأدخلنا في زمرة وجماعته بجاهه عندك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين .

روى البيهقي في (شعب الإيمان) بسنده أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مرَّ على رجل وهو يقول : الحمد لله الذي هداني للإسلام، وجعلني من أمة أحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((شكرت عظيماً)) .

ومر صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يقول : يا أرحم الراحمين .

فقال له صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((قد أقبل عليك فسَلِّ)) .

ويرحم الله القائل :

أرحم الراحمين أنت رجائي

وشفيعي إليك أرحم خلقك

أراني بين أرحميين مُضاعاً

أو مُضاماً حاشا الوفاء وحقك

يا أرحم الراحمين علمك بالحال يُغني عن السؤال ، فاستجب يا ذا الجلال والإكرام .

قوله تعالى :

{واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} .

هذا الخطاب موجه إلى الذين كان موقفهم تُجاه ذلك النبأ الذي جاء به الوليد هو التأي والتثبت في صحة الخبر ، كما أرشدهم إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأن يتبينوا ذلك بإرسال وفد يَكشف عن الحقيقة الواقعة ، دون تعجل في إرسال من يُقاتلهم ويعاقبهم ، وذلك لأنّ قلوبهم مليئة بالإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبما قاله الله تعالى وقاله رسوله صلى الله

عليه وعلى آله وسلم ، مع الحب الصادق والعشق الملازم ، الذي لا ينفك ،
وهم أكثر الصحابة وجمهورهم الأعظم ، فكان رأيهم التآني والتثبت ،
وتبيين الخبر ، كما أرشدهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم
يتعجلوا ، فقلوبهم مؤمنة ومحبة للإيمان ؛ بتحبيب من الله تعالى ، فهم
يحبون ما يحبه الله ورسوله ، ويرون ويوقنون أنه هو الحسن ؛ ويكرهون
ما يكره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويرون
ويوقنون أنه القبيح .

كما أنّ الخطاب في الآية الكريمة هو شامل لتلك القلة التي أخذتها العجالة
؛ فاستصوبوا التعجل بالانتقام بمجرد ورود النبأ دون تثبت ، وكأنّ الآية
الكريمة تُناديهم بأنهم لو رجعوا إلى ما في قلوبهم من حب الإيمان بالله
ورسوله ، وما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ،
وتحاكموا إلى ضمائرهم المؤمنة ، وتركوا الأخذ بالتعجل ، وعملوا بالتثبت
والتآني والتأمل - لاتضح لهم حسن التثبت والتبين ، وقبح التعجل في تهمة
الأبرياء .

{ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} .

هذا الاستدراك جاء من جهة المعنى ، وفيه مدح وثناء على من لم يتعجل
في صحة النبأ ، واستحسان التعجل بالعقوبة لمن بلّغوا عنهم أنهم منعوا
الزكاة ، وانتظروا تبين الأمر كما أرشدهم إلى ذلك رسول الله صلى الله
عليه وعلى آله وسلم .

كما أنّ في هذا الاستدراك فيه بيان عذر الذين أخذتهم العجالة في صحة
النبأ ، واستصوبوا الاستعجال بالأخذ على أيدي مانعي الزكاة ، الذين جاء
النبأ عنهم ، وأنّ عذرهم هو فرط حبهم للإيمان ، وتعشقهم به ، حملهم
على التعجل بالعقاب قبل التثبت من النبأ .

وقد دل السياق على أنّهم كانوا في خبر الوليد صنفين : **صنف** صدقه وأراد
غزو القوم المانعين للزكاة وأشار به ؟ **وصنف** توقف ولم يتعجل حتى
يتبين صحة النبأ ، وإنّ كلاً من الصنفين سلّموا الأمر إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعد الاختلاف بينهم ، وردوا الأمر - فتحاكموا إلى رسول
الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

{ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر
والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون} .

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه :

الأول : الإيمان في أصل اللغة : هو التصديق الجازم ، وفي عرف الشرع:
هو تصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما علم مجيئه به
ضرورة من عند الله تعالى ، ويدخل في هذا الإيمان بالله تعالى ، وبوجود
وجوده ، وبوحدانيته سبحانه ، واتصافه بصفات كماله ، وتنزهه عن كل
نقصان ، والإيمان بالملائكة ، والإيمان بالنبي صلى الله عليه وعلى آله
وسلم ، وبكتب الله تعالى ، واليوم الآخر وبالقدر . . وما وراء ذلك .

وأصل الإيمان هو الإيمان - أي : التصديق الجازم القاطع الذي لا تردد فيه
- بالله ورسوله ، وما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله
وسلم .

قال تعالى : { آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا } الآية .

وقال تعالى : { فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا } الآية.

وقال تعالى : { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا }
الآية.

وعن هذا الأصل تتفرع شعب الإيمان .

ولكن قد يقال : إنّ أصل الإيمان في اللغة هو التصديق ، ومع ذلك فإننا
نرى أنّ القرآن الكريم والسنة الشريفة تطلقان الإيمان على التصديق
والاعتقاد الجازم بالله ورسوله ، وما جاء عنهما ، قال تعالى : { والذين
تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم } نزلت في
الأنصار.

وقال تعالى - في المؤمنين الكمل - : {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} .

وقال تعالى في هذه السورة : {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} .

فأطلق كلمة الإيمان ولم يقيدها .

وقال تعالى عن المؤمنين : {ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان} فما هو وجه إطلاق الإيمان على الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وما جاء عنهما دون تقييد .

فالجواب : أولاً : إن الإيمان هو في أصل اللغة : التصديق الجازم ، وإن الجزم الذي يحمل الإنسان على التصديق القطعي هو تابع لقوة ثبوته ودليل حقيقته ، وهذا أمر بديهي ، وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك شيء أقوى ثبوتاً ، وأقطع دليلاً ، وأسطع برهاناً ، وأكثر شاهداً ، وأظهر مشهداً من حَقِيَّة وجود الله تعالى ووحدانيته ، ومن حَقِيَّة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصدق نبوته ، فإن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي أثبت الثابتات ، وأقوى اليقينيات ، وأعظم الإيمانيات والتصديقات ، ومن ثم سَمَّى الله تعالى ذلك بالقول الثابت ، قال تعالى : {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} الآية .

فهو القول الثابت بكل أنواع الإثبات ، وهو أثبت من كل ثابت إلى أبد الآباد بلا انقطاع ولا نفاذ ، ولذلك سَمَّى الله تعالى ذلك أيضاً إيماناً ، فدَكَرَه على وجه الإطلاق ، والإطلاق ينصرف إلى الكمال ، فالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أقوى صدقاً ، وأحق حقيقة ، وأرسخ عقيدة ، لكثرة براهينه القاطعة ، وأدلته الساطعة ، وشواهده العقلية، ومَشاهد المرئية على وجه لا يعد ولا يحصى .

فالإنسان ذاته وما أحاط به من كل كائن هو دليل على حقيقة وجود الله تعالى ، فابداً بنفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي مما تبصره وما لا تبصره تعلم يقيناً أنّ هناك خالقاً خلق ، وبارئاً برأ .

فالإنسان لم يكن شيئاً ثم صار إنساناً ، ذا بيان وعقل ، وفكر وسمع وبصر ، إذاً من الذي حرّكه من العدم الذي قبل وجوده حتى أظهره إلى عالم الكون والشهود ؟ نعم ذلك هو الله تعالى .

قال تعالى : {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً} .

فإن قلت : هي الطبيعة تُطوّر الإنسان ، وتطوّر مادته التي خلق منها وهي النطفة فتصير إنساناً ؛

قلنا : الطبيعة إما هي مطوّرة أو هي متطوّرة .

فإن ادعيت أنّها مطوّرة فهي إذاً ذات قدرة على التطوير والتحويل ، وذات إرادة ، حيث تُطوّر الشيء إلى ما يناسبه ، وينبغي أن تكون متصفة بالحكمة ، فإننا نرى أنّ خلق الإنسان فيه دقة وإبداع ، وحكمة في الصنع والتخليق ، والمزاج والمدارك ، وفيه العجب العجاب .

فإن قال الطبيعي : نعم هي كذلك قادرة ومريدة وحكيمة ، وعليمة ، وذات تدبير . . . إلى آخره .

قلنا : هذا المعنى الذي تتصوره من الطبيعة هذا هو صفة الله تعالى الخالق البارئ العليم الحكيم المصور ، الذي أعطى كل شيء خلقه صورته ومقداره ، وحجمه وجسمه . . الخ فلم سميتموه طبيعة ، فإن الطبيعة في اللغة هو اسم مفعول أي : مطبوعة ؛ كقتيلة وفتيلة . . ونحوه ، وقد سمى الله تعالى نفسه الله ، إذاً {قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} .

وإن ادعى الطبيعي أنّ الطبيعة هي متطوّرة .

قلنا : إذاً لا بدّ لها من مطوّر يُطورها ، كالمتحرك فإنّه لا بد له من محرّك يحركه ، والمتقلب فلا بد له من مقلب يُقلبه ، وهكذا دواليك . . .

فإن ادعى الطبيعي أن لا حاجة إلى مطور ، بل بنفسها تتطور من بعض المواد فيكون ما يكون .

قلنا : إن التطوير يقوم على أساس المناسبة بين المواد ، وعلى التطور المتناسب ، في حين أننا نرى أشياء كثيرة لا يمكن ولا يتصور عقلاً أن تكون ناشئة عن مجرد تطور بدون مطور ، وتحويل بلا محول ، وتقليب بلا مقلب .

فإننا نرى أن الله تعالى يُوجد كثيراً من الأشياء من أصدادها المتنافرة في طبائعها وخصائصها - هذا من وجه .

ومن وجه آخر نرى أن الله تعالى قد يجعل طبيعة الشيء الواحد ذات نقيضين متنافرين .

أما الأول : فقد يخلق الله تعالى الحيوان من حيوان ، وقد يخلق الحيوان من جماد بلا مُهلة تطوير ولا تقليب ، **فقد أخرج** في لحظة واحدة ناقة عُشراء من بطن صخرة صماء - وهي ناقة صالح عليه السلام . فأبي مناسبة بين الناقة والصخرة الصماء ، وأبي طبيعة تجمع بينهما ، وأبي نظرية تُثبت أن الصخرة الصماء تلد ناقة عُشراء - نعم إن النظريات المادية عاجزة عن ذلك ، ولكن هناك قدرة الله تعالى التي هي فوق علم المخلوقات ، وفوق قدرتهم ، **وأخرج النار المحرقة من الشجر الأخضر ، قال تعالى : {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون} .**

وذلك المرج والعفرار إذا احتكاً ببعضهما - فأبي طبيعة تجمع بين رطوبة ومائية الخضار وبين يبوسة وحرارة النار ، فإن الطبيعة من شأنها أن ينشأ عنها مثلها لا نقيضها ، ولذلك ترى أن الله تعالى كثيراً ما يذكر إخراج المتضادات المتقابلات بعضها من بعض ، وفي ذلك ردُّ على من ينكر الرب الخالق ويثبت الطبيعة وينسب الأمور إليها .

قال تعالى : {إن الله فالق الحب والنوى يُخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي} .

وفي قراءة سبعية : **{ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأبى توفكون} !!**

والمعنى إلى أين تصرفون عقولكم ، أفلا تُفكرون في هذا الأمر العظيم ، وهو إخراج الشيء من ضده ! . . نعم الذي صرف عقولهم عن ذلك هو الأهواء الفاسدة ، وآراؤهم الكاسدة، والانهماك في الشهوات البهيمية ، وغرورهم بما عندهم من المعلومات المحدودة .

وأما الأمر الثاني : وهو أننا قد نرى للشيء الواحد طبيعتين متناقضتين في حين واحد ، فهذا الحديد من طبعه القوة والصلابة الشديدة فإذا به يصير في يد داود عليه السلام رخواً ليئناً كالعجين ، فيصنع منه الدروع المنسوجة من زرد الحديد لأجل أن تُلبس في الحروب ، قال تعالى : **{وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ}** .

وقال تعالى : **{وَعَلَّمْنَاهُ صَفَاةَ لِبُوسٍ لَكُمْ لِتَحْصِنَكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}** .

فكيف صار الحديد ، وهو حديد دون إدخاله في النار ، أو إدخال أيّ مادة عليه ، كيف صار ليئناً كالعجين مع أنه في يد غير داود عليه السلام وفي تلك اللحظة نفسها هو صلب شديد ؟ !!

فليعتبر كل جبار عنيد ، وكل مُلحد مريد ، وكل فلسفي سفيه وليعلم أنّ طبائع الأشياء هي بخلق الله تعالى وليست هي قديمة كما يزعمون ، بل هي حادثة مخلوقة ، وليعلم أنّ طبائع الأشياء ليست ذاتية لها ، وليس لها تأثير من نفسها ، وإنما المؤثر الفعال بها هو الله تعالى ، خالقها وطابعها وصانعها .

وأيضاً فهذا الماء - فإنّ من طبيعته الليونة و الإنسياب والسيلان على وجه الأرض ، لا صلابة فيه ولا قوة يقوى بها على أن يقف قائماً ، فكيف صار حيطاناً حصينة مثبتة ذات شبابيك ، وانتصب عالياً ، فَمَنْ الذي غَيَّرَ طبعه، وما الذي اعترى طبيعة الماء حتى صار حيطاناً منصوبة قائمة ، نعم هذا هو الله تعالى ربّ العالمين ، طابع الطبيعة وفالق الخليقة - وهذه معجزة سيّدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وذلك حين لحقه فرعون بجنوده ، وأتجه موسى عليه السلام وَمَنْ معه نَحْوَ البحر ، حتى إذا صار

البحر أمامه ، قال أتباع موسى عليه السلام : إننا لمدركون - يعني أن البحر أمامنا ، والعدو وراءنا فأين الخلاص والفرار ؟

فقال موسى عليه السلام : {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} .

فانفلق البحر اثني عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل ، وارتفعت أرض البحر ، ومشوا آمنين كلهم يرون بعضهم من شبابيك في الماء بينهم ، ليطمئنوا ، ولحقهم فرعون وجنوده ، حتى إذا جاوزه موسى عليه السلام بأتباعه إلى الشاطئ الآخر ، ودخل فرعون البحر وجنوده ليدرك موسى عليه السلام ، حتى إذا صار فرعون قريباً من الشاطئ المقابل ، جعل جبريل عليه السلام يسوق جنود فرعون بسرعة ليدخلهم البحر كلهم ، وهذا معنى قوله تعالى : {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ} حتى إذا دخل جماعة فرعون كلهم بحيث اتصل خطهم من الشاطئ إلى الشاطئ المقابل ، أمر الله تعالى البحر أن يعود كما كان ، فأغرقهم الله تعالى أجمعين ، ثم أمر الله تعالى البحر أن يلقي فرعون ميتاً إلى الشاطئ ، ليراه أتباع موسى عليه السلام ، وتقر أعينهم بهلاك عدوهم ، وليكون ذلك آية على قدرة الله تعالى ، وأنه لا يُعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء ، وتفصيل القضية في موضعه من التفاسير .

ويقال للطبيعي الملحد الذي ينكر وجود الصانع أيضاً : إن من طبيعة نظام الشمس والقمر في سيرهما بحسبان ، وأنهما يجريان تامين ، فما هو الأمر الذي تَغَلَّبَ على طبيعة القمر حتى انشق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن من طبيعته الملازمة له كما يزعم الطبيعي هو التأم القمر دائماً وأبداً إلى ما لا نهاية ، فماذا طرأ على تلك الطبيعة الملازمة له ؟ !!

كلا بل إن الذي أجراه وسيّره ، وأمسك عليه قواه وتركيبه هو الله تعالى رب العالمين ، الذي خلقه ، فإذا أراد سبحانه شقه يشقه ، وقد أوقع الله تعالى ذلك آية دالة على صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله

وسلم قال تعالى : { اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر } .

فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم دعا إلى عبادة الله تعالى ، واعتقاد وحدانيته وأتى بأدلة ساطعة قاطعة تقوم بالحجة على العقلاء ؛ فأبت كفار قريش إلا أن يشق لهم القمر ، وأرادوا بذلك أن يُعجزوه - بزعمهم - لأنهم اعتقدوا أنّ انشقاق القمر لا يُمكن وقوعه ، فطالبوه بما هو غير ممكن - بزعمهم - وكان من شأنهم أن يعارضوا دعوته ، ويصدوا الناس عن التصديق بنبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقالوا : نجتمع في مكان كذا ، ويوم كذا - أي : النصف نصف الشهر - وتشق القمر ، فإذا فعلت ذلك آمنا .

واجتمع الصحابة المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، واجتمع الجماهير من كفار قريش وغيرهم في تلك الليلة كما جاء في الحديث المتفق عليه والرواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه : (أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما) .

وفي رواية لمسلم : قال صلى الله عليه وسلم : ((اللهم اشهد)) .

وفي رواية لأحمد : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أي : بطلب من أهل مكة كما تقدم في الرواية - شقين حتى نظروا إليه - أي : نظروا نظراً مديداً) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((اشهدوا اشهدوا)) .

فكان هذا حجة من الله تعالى بصدق نبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فكأنه يقول لهم : أنا لا أريكم آية تشبهون فيها ، أو أمراً خفياً ، بل أريكم آية جلية واضحة وهي انشقاق القمر ليلة نصفه على مجمع من الناس ، وعلى مرأى الجماهير .

وإنما قرن سبحانه وتعالى انشقاق القمر باقتراب الساعة ليبين للناس أنّ هذا العالم من سماواته إلى أرضه ليس قديماً لا أول له ، بل هو مخلوق

بعد عدم ، وله أول وله نهاية ، وسيأتي على هذا العالم - شمسه وقمره
وكواكبه وسماواته وأرضه - الخراب والفناء ، وإن كلاً يجري لأجل
مسمى محتوم لا يجاوزه .

فانشقاق القمر دليل خرابه وتساقطه يوم القيامة - فإن انشقاق الجدار دليل
على قرب خرابه وانهيائه .

وهكذا جميع الكواكب والأجرام العلوية ، وهكذا الكرة الأرضية .

قال تعالى : {فإذا نُفِخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال
فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ
واهية} .

فيقال للطبيعي المنكر لوجود الله سبحانه وتعالى : فماذا اعترى الطبيعة
الكونية حتى انشق القمر ؟ ! . فعلى زعمك يجب أن يستمر القمر دون
تغيير ، فما هي القوة الفعّالة التي حولته عن طبيعته ؟ نعم ذلك هو الله
تعالى ربّ العالمين ، الذي سخر الشمس والقمر دائبين وكل يجري لأجل
مسمى ، فهو يتصرف فيهما كيف يشاء ، فتغيير سير القمر حتى يحول بين
الأرض والشمس فتحصل الكسوف ثم يعيده إلى سيره مستقيماً ، ويحول
بقدرته ، ويجري بحكمته ما يشاء حتى يحول القمر بين الشمس والأرض
فتحصل الخسوف كلاً أو بعضاً ، كل ذلك بقدرته وتدبيره وحكمته ، ليشهد
العباد قدرته على كل شيء ، وعلى تخريب العالم وإقامة القيامة ، وليعلموا
أنّه ليس الأمر طبيعة وإنما هو الله تعالى ربّ العالمين ، الفعّال لما يريد ،
وكل الكائنات له عبيد سبحانه وتعالى .

ويقال للطبيعي الذي يعتقد أنّ الطبيعة هي المؤثرة وليس هناك خالق - يقال
له : إذا ادعيت أنّ من طبيعة الأرض أن تخزن الماء ثم تنبعه فهل من
طبيعة الإناء أن ينبع الماء منه ! فلقد نبع الماء من الإناء الذي وضع فيه
رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يده الشريفة ، حتى أروى القوم
على كثرتهم ، فإذا ادعيت أنّ من طبيعة الإناء أن ينبع منه الماء فيجب أن
يكون كل إناء من طبيعته أن ينبع منه الماء ، فإن الطبيعة سارية في

الجميع ولكن الأمر ليس كذلك ، وإنما هي قدرة الله تعالى الخالق الذي يُنبت الماء من حيث يشاء ، كما هو مُقتضى الحكمة الإلهية .

روى الشيخان وغيرهما عن جابر رضي الله عنه قال : (عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين يديه ركوة ، فتوضأ ، فجهش الناس نحوه - أي : أقبلوا عليه مسرعين - فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ((ما لكم ؟)) .

قالوا : ليس عندنا ما نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك .

فوضع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يده الشريفة في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فتوضأنا وشربنا) .

قيل لجابر رضي الله عنه : كم كنتم يومئذ ؟

قال : (لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا : خمس عشرة مائة) .

فانظر أيها العاقل كيف نبع الماء من الإناء ، بل قال بعض أهل التحقيق من المحدثين : إن قول جابر رضي الله عنه : فجعل الماء يفور من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم كأمثال العيون ، قال : هذا يفيد أن الماء قد نبع من أصابعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فجعل الماء يفور ويفيض ، بدليل أن جابراً قال : من بين أصابعه ولم يقل من تحت أصابعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهذا أعجب في المعجزة ، وأقوى في خرق العادة ، وعلى كل حال فإن ذلك يرد على من يقول بالطبيعة وينكر وجود الخالق ، فليس من طبيعة الإناء أن ينبع ويفور بالماء ، فكيف وقد حصل معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم مراراً وتكراراً على مشهد من الناس .

وإنّ البحث في المعجزات وخرقها للعادات ، ومخالفتها لنظام الطبيعة المألوفة - البحث في ذلك طويل ، وأدلته كثيرة شهيرة بلغت حد التواتر الموجب للجزم والقطع .

فلما كان الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ وبما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ لما كان ذلك

أصدق الأمور التصديقية ، وأقوى اليقينيات الاعتقادية ، لذلك أطلق القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية الشريفة كلمة الإيمان - أي : التصديق الجازم القطعي - على الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما جاء عنهما ، وأصبح هذا في عُرف القرآن الكريم والسنة الشريفة وعرف سائر كتب الشريعة الإسلامية .

قال تعالى : {ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا} الآية .

وقال تعالى : {إلا مَنْ أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} .

وقال تعالى : {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} الآية .

وقال تعالى : {وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث} الآية .

وقال تعالى : {إن الذين كفروا يُنادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون} .

وقال تعالى : {وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} .

وقال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء} - أي : أحبباً وأنصاراً لكم - {إن استحبوا الكفر على الإيمان} الآية .

وقال تعالى : {إنّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً} .

وقال تعالى : {بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} .

وقال تعالى : {ولكنّ الله حَبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} .

وأنت أيها العاقل ترى في هذه الآيات المتقدمة أنه سبحانه ذكر الإيمان وذكر نقيضه وهو الكفر ، وهذا يدلّك أيضاً على قوة ظهور حقيقة الإيمان ، وقوة برهانه الساطع القاطع فإنّ الكفر في اللغة العربية يدل على ستر الشيء وتغطيته ، ويقال لليل كافر ، لأنه بظلامه ستر الأشياء فلا ترى ، ويقال لمن لا يؤمن : كافر لأنه ستر الحق وأخفاه بعدما ظهر له ، واتضح

له بالدليل والبيّنات ، فالكفر هو إخفاء الحق وكتمانه - بعد معرفة أنّه الحق - وجوده وإنكاره بعد العلم بحقيّته وصدقه ، قال تعالى : {فإنّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} - أي : يعلمون أنّك صادق ولكن يجحدون بالآيات بعد علمهم بحقيّتها لأنهم ظالمون ، ومنّ هذا قوله تعالى في فرعون وقومه في موقفهم مع موسى عليه السلام : {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً . . . } الآية .

فالحامل للكافر على ذلك إمّا كبر النفس ، فإنّ الكبر يحمل صاحبه على المعارضة والعناد ، وإمّا من باب اتباع هواه الحيواني البهيمي ، فإنّ الإيمان يمنعه عن ذلك لفساده وضرره .

قال تعالى : {فإنّ لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم} .

فلو أنّك قلت للكافر : الزنا حلال ، يقول لك : هذا دين حق ، وإذا قلت له : الزنا حرام ، يقول لك : هذا دين باطل - فميزان الحق والباطل عنده هو موافقة هواه المفرط الشهواني الشيطاني ، ولا شك أنّ جميع المحرمات إنّما حرمها الشارع لفساد يعود على فاعلها وعلى المجتمع عامة . . .

وقد يمنع الكافر¹ من الإيمان حرصه ومحافظته على غرضه الدنيوي من حب الزعامة ، كما حصل لهرقل ، فإنّه لما جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عرف الحق وأراد حمل قومه على الإيمان ، ولكنّ لما عرض ذلك عليهم فأبوا قال : [أردتُ أن أختبر شدتكم على دينكم] - حرصاً منه على الملك وبقائه ملكاً عليهم .

وهناك أسباب أخرى تصدّ الكافر عن الاعتراف بحقيّة الإيمان بعدما عرفه واتضح له ، قال تعالى : {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} .

أي : يعلمون علماً جازماً أنّه الحق ، ولكن لا يُقرّون ولا يعترفون ولا يذعنون ، بل يكتمون الحق وقد علموه أنّه رسول الله صلى الله عليه وعلى

¹ فهو كافر - أي . ساتر للحق بعدما عرفه وظهر له ، وكاتم له بعدما انجلي له نوره

آله وسلم حقاً ، لأنه مذكور عندهم في التوراة والإنجيل حقاً ، وقد وافقت صفاته ومعجزاته ما جاء في كتبهم .

قوله تعالى : {ولكن الله حَبَبَ إِيْمَانٍ وَزِيْنَهُ فِي قُلُوْبِكُمْ} .

والمعنى : أنه سبحانه حَبَّبَ إليهم الإِيْمَانِ فأحبَّوه ، ولكن لأجل ثباتهم عليه وتمكين حبه في قلوبهم زَيَّنَهُ في قلوبهم ؛ وذلك بأن حسَّنه في قلوبهم حتى شاهدت قلوبهم زينة الإِيْمَانِ الحسنة فعشقتة فلم تنفك عنه ولم ينفك عنها ، كما تعشقت العشاقة أصول الشجرة وفروعها فلا انفكاك بعد ذلك .

بل عُشِقَ القلوب للإِيْمَانِ هو أعظم من التفاف العشاقة ، وإنما هو تشرب القلب وامتلاؤه بحب الإِيْمَانِ ، حتى تخالط بشاشة الإِيْمَانِ وحلاوته ذات القلب ظاهره وباطنه وجميع ذراته ، فيصير الإِيْمَانِ روح القلب ، وبه حياته فلا يموت هذا القلب أبداً - اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن المعلوم أنّ الشيء الحسن إذا زين بالثوب الحسن يزداد انجلاء حسنه وبهاؤه ، ألا ترى إلى زليخا لما أرادت أن تري لواحيها اللاتي تكلمن فيها أنها تراود فتاها ، أرسلت إليهنّ وأعدتّ لهن متكأً وألبست يوسف عليه السلام ثوباً أبيض جميلاً وقالت : اخرج عليهن ، فلما شاهدن ذلك الجمال فنين في يوسف وجماله عن أنفسهن ، بدليل أنّهن قطعن أيديهن ، وشطحن بالكلام ، فقلن : ما هذا بشراً .

هذا وقد أعطي يوسف الصديق عليه السلام شطر الحسن ، وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد أُعطي الحسن بشطريه ، ولكنّ سُلْطَانِ الهِيَةِ المحمدية وبهاء نوره الباهر كان ذلك يمنع من إحداق النظر وتمكن البصر من الجناب الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كما جاء ذلك في الأحاديث عن الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا من باب عصمة الله تعالى لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنّ تفتن به النساء ، وفي ذلك الجمال الأعظم تقول السيدة الكبرى خديجة أم المؤمنين عليها سلام الله ورضي الله عنها وأرضاها عنا تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بقولها :

ولو أنّ لي في كل يومٍ وليلةٍ

بساط سليمان وملك الأكاسرة

لما عدّلتُ عندي جناح بعوضة

إذا لم تكن عيني لوجهك ناظرة

صلى الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى آلك في كل لمحة ونفس
عدد ما وسعه علم الله العظيم .

وكما قالت أيضاً السيدة عائشة الصديقة الكبرى ابنة الصديق الأكبر عليهما
السلام أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها عنا حبيبة حبيب الله تعالى
صلى الله عليه وسلم المبرأة :

ولو علموا في مصر أوصاف خده صلى الله عليه وسلم

لما بذلوا في سوم يوسف من نقد

لواحي زليخا لو رأين جبينه صلى الله عليه وسلم

لآثرن في قطع القلوب على الأيدي

وإذا كانت النسوة اللاتي شهدن جمال يوسف عليه السلام فنين عن أنفسهن
وعن كل شيء حتى عن السكين في أيديهن ؛ هياماً وفناءً في يوسف عليه
السلام ، وهو مخلوق خلقه الله تعالى وأكرمه وجمله ، فلا تنكر على أولياء
الله تعالى وأحبابه العاشقين العارفين إذا اعتراهم الفناء في جمال مَنْ له
الجمال المطلق ، الذي لا يتناهى ولا يُشَبَّه ولا يُضاهى ؛ فقد يُشهد الله
تعالى أحبابه بارقة من جماله فيفنيه فيه عمّا سواه ، حتى تتجلي تلك الحال
، وتجعل فيه قابلية لأقوى منها ، فالفناء فيه حال ، والبقاء به مقام ، ولكل
حال رجال ، ولكل مقام مقال ، وهو سبحانه وتعالى أكرم من أن يرد سائلاً
أو يخيب آملاً وهو ذو الفضل العظيم ، والله تعالى يقول : {واسألوا الله من
فضله} الآية ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من لم
يسأل الله يغضب عليه)) ، ويقول صلى الله عليه وسلم أيضاً : ((سلوا الله
من فضله ، فإن الله يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادات انتظار الفرج)) .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة وأن تتفضل علينا بما تفضلت به على أوليائك المقربين ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما أمين .

{وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} .

ذكر سبحانه في مقابلة الإيمان - أي : الإيمان الكامل بدليل الإطلاق فإنه يقتضي الكمال كما بينا - فذكر سبحانه في مقابل هذا الإيمان المحبب إلى المؤمنين المزيين في قلوبهم بمصايحه النيرة ، ذكر مقابل ذلك ما كرهه إليهم من الأمور الثلاثة : الكفر، والفسوق، والعصيان ، فذكر أموراً ثلاثة على طريق العطف وهو يقتضي المغايرة ، فيشمل ذلك كفر الجنان - أي : القلب - وفسوق اللسان ، وعصيان الجوارح والأركان : بمخالفة أو ارتكاب منهي عنه من المناهي التي نهى الله تعالى عنها .

فالإيمان يشمل الإيمان القلبي وهو الإيمان الاعتقادي ، ويشمل الإيمان القولي باللسان ، والإيمان العملي كالصلاة والزكاة وسائر الفروض الدينية ولكل واحد منها ما يقابله .

فالإيمان القلبي الاعتقادي يقابله الكفر ، وقد عرّف علماء التوحيد الكفر بأنه : إنكار ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علم من الدين ضرورياً ، بحيث اشتهر بين الخواص والعوام - أي : الفطريين غير المنحرفين - والمراد بالإنكار هنا الجحود الصريح ، أو ما يدل على عدم التصديق الجازم ؛ كالثبات في أمر اعتقادي معلوم من الدين بالضرورة ، وكذلك المستهزئ والساحر ، والمستهين في أمر اعتقادي أو عملي أو قولي علم مجيئه عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم علماً ضرورياً .

وقد عرف بعض المحققين الكفر بأنه : عدم تصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في بعض ما علم مجيئه به بالضرورة .

ويدخل في هذا التعريف : الشاك ، والجاهل بما عُلم مجيء النبي صلى الله عليه وسلم به علماً ضرورياً ، ويدخل تحت هذا التعريف : المستهزئ بذلك ، والساخر والمستهين ؛ فإن ذلك يدل على عدم تصديقه الجازم . وعلى كلِّ فإن تفصيل البحث في هذا الموضوع تجده في باب الردة من كتب الفقه .

{وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} .

من الواضح أنه ليس المراد بالفسق والعصيان في هذه الآية فسق الكفر ، ولا معصية الكفر ؛ لأنهما معطوفان على الكفر ، والعطف يقتضي المغايرة ، فإنَّ الفسق قد يطلق في بعض الآيات ويراد به فسق الكفر كقوله تعالى : {وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . . .} الآيات - ويسمى : الفسق الأكبر .

والعصيان قد يطلق في بعض الآيات ويراد به عصيان الكفر ، كقوله تعالى - في اليهود - : {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}.

إذاً ما المراد بالفسوق والعصيان في الآية الكريمة : {وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} ؟ .

فالجواب : أنّ الفسق والعصيان إذا اجتمعا في نص واحد افترقا في المعنى ، وإذا أفرد ذكر أحدهما شمل الآخر .

فالفسق ، هو ارتكاب ما نهى الله تعالى عنه ، **والعصيان** هو : مخالفة ما أمر الله تعالى به قال تعالى : {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلِ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْقُوذَةُ وَالمُتْرَدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلكم فَسِقٌ} الآية .

فقوله تعالى : {ذَلكم فَسِقٌ} يعود إلى جميع تلك المحرمات والمنهيات .

وقال تعالى - في الملائكة - : {لَا يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} فمخالفة الأمر معصية ، وارتكاب المنهي والمُحرم فسق .

وإذا ذكر الفسق وحده أو العصيان وحده فإنه يشمل المعنيين : مخالفة الأمر وارتكاب المنهي .

ثم إنَّ الفسوق نوعان : فعلي وقولي .

فالفعلي هو : ارتكاب الإنسان ما حرمه الله تعالى من الأفعال .

وأما القولي : فهو كما سيأتي في قوله تعالى : {ولا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

وفي الحديث : ((سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر))¹ .

وقوله تعالى : {ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} .

في هذا دليل على أنّ الإيمان لا يُعتبر عند الله تعالى إلا إذا كان قائماً على أساس الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وحب كل ما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأحب ما يكون عند المؤمن : الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأن يُحب ما يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويكره ما يكره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فيكره قلبه الكفر كما يكره أن يلقى جسمه في النار، وكذلك يكره الفسوق والعصيان لأنهما قد يوصلانه إلى الكفر ؛ وقد يوصلانه إلى النار ، فيعذب فيها عذاب العصاة - فالمعاصي والفسق بأنواعها يجب أن تكون مكروهة عند المؤمن ، والكفر أكره ما يكون إليه ، ألم تقرأ قول الله تعالى : {وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً} الآية .

¹ رواه الشيخان وأصحاب السنن ، وزاد الطبراني في روايته : ((وحرمة ماله كحرمة دمه)) قال الحافظ الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح .

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك أنواعاً من المناهي : {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} الآية ، {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق} الآية ، {ولا تقربوا الزنا} الآية ، {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله} الآية ، {ولا تقف ما ليس لك به علم} الآية ، {ولا تمش في الأرض مرحاً} الآية .
ثم قال سبحانه بعد ذلك : {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً} .

والمراد بسيئه الأمور التي نهى عنها فيما تقدم ، فكيف يجوز للمسلم أن يحب ما يكرهه الله تعالى ؟ !!

ومن هنا تعلم أن الرجل قد يفعل المعصية ولكنه كاره لها ، وهو يعتقد أنها حرام ، ويخاف الله تعالى أن يعذبه عليها ، فإن تاب منها تاب الله عليه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإن لم يتب ومات على ذلك فإنه من عصاة المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى : إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه .

وقد يترك الرجل الذي يدعي أنه مسلم - قد يترك بعض المحرمات القطعية كالزنا والربا ونحو ذلك لأنه لا يرغب فيها ، وربما يتركها حياءً من الناس ، ولكنه يعتقد أنها ليست حراماً ، أو يرى في نفسه أن في تحريم الله تعالى لها ظلماً للعباد فهو يستحسنها ويحبها ، ولكنه ما يفعلها - فيقال في هذا الرجل كافر عند الله تعالى ولو لم يتعاط ذلك الحرام بجوارحه ، لأن استحسنه لما حرمه الله تعالى من المحرمات القطعية ، وحبها راجع إلى المعتقدات القلبية ، وقد استحسن ما كرهه الله تعالى واستحلّه واستحلّاه بقلبه ، فهو كافر عند الله تعالى - وإن كان في الدنيا يُعد من المسلمين ما لم يصرّح بذلك تصريحاً بواحاً - فيكون كافراً في الدنيا والآخرة - كما هو منصوص عليه في كتب الفقهاء . . ولا نطيل البحث في هذا لأنه يجب أن يكون واضحاً عند المسلمين .

قوله تعالى : {أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم} .

قال العلامة القرطبي وغيره : الرشد هو : الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه - أي : مع التمكن والثبات - مأخوذ من الرشادة وهي الصخرة .

وقال كثير من المفسرين : الرُّشد والرَّشد والرَّشاد هي لغات بمعنى واحد .
وفرق بعض اللغويين بأن الرُّشد بالضم : هو صلاح الأمر في الدين أو الدنيا أو فيهما ، وأما الرَّشد بالفتح فهو الصلاح والاستقامة في أمر الدين .
قال المحققون : والمشهور عدم الفرق .

قال في (روح المعاني) : الرُّشد بضم الراء وسكون الشين على المشهور مصدر رَشِد يرشُد بضم الشين ، والرَّشَد : بفتح الشين فعله رَشِد يرشُد مثل علم يعلم . اهـ .

وعلى كل فالرشد يقابله الغيُّ فهما ضدان ، قال تعالى : { لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغيِّ . . } الآية .

فحجة الله تعالى قائمة على العباد ، لأنَّ كل عاقل إذا عقل وتفكر تبين له أنَّ سبيل الرشاد الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو الأصلاح والأنجح والأأنفع ، وفيه كل الخير ، وأنَّ الغيَّ نتائجه الشرور والفساد وشقاء الدنيا والآخرة ، إذاً فليختر العاقل أحد السبيلين ، فَمَنْ سلك سبيل الغي الذي به الفساد والشرور التي تعود على صاحبها وعلى المجتمع فقد استحق العقاب وحققت كلمة العذاب عليه ، قال تعالى :
{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها} أي : مع أنهم رأوها وعابنوها ، ولكن لم يعترفوا بذلك كِبَراً وعناداً وإلحاداً {وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين} .

فتفكر في قوله تعالى : {وإن يروا} يتضح لك أنَّ الأمر قد تبين لهم ، وعرفوا أنَّ هذا سبيل الرشاد ، وذلك سبيل الغيِّ ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى ، فأعماهم وصاروا كما قال تعالى : {صم بكم عمي فهم لا يعقلون} .

والغي : هو سلوك طريق الضلال المؤدي بصاحبه إلى فساد أمره ومجتمعه ، وعكس ذلك الرشد فإنه يؤدي إلى صلاح الأمر أفراداً ومجتمعاً .

وقوله تعالى : {أولئك هم الراشدون} يشير إلى رفعة مرتبتهم ، وعلو مقامهم ، فجيء بأولئك الدالة على بُعد الرتبة ، كما أنّ هذه الجملة تدل على حَصْر الرشد في المؤمنين الذين أحبوا الإيمان وعشقوه بتحبيب الله لهم ذلك، فهؤلاء هم أهل الرشد والصلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، وما سواهم من الكفرة فهم في ضلال وفساد وشر في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون} .

وقال تعالى : {ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحلّ قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إنّ الله لا يخلف الميعاد} .

فإنّ الله تعالى يُدمرهم بمصنوعاتهم ، ويهلكهم بمخترعاتهم الفتّاكة .

قوله تعالى : {أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم} .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى فضله على عباده المؤمنين ، ويمتن عليهم بنعمة هدايتهم للإيمان ، وهذه النعمة هي المقصودة والمطلوبة المذكورة في قوله تعالى : {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم} أي : وفقّتهم للإيمان .

كما أنّه يُشير في هذه الآية الكريمة إلى كرامة المؤمنين على الله تعالى ، وعلوّ شأنهم ، وأنهم هم أهلّ لهذا الفضل الكبير والنعمة العظمى ، لأنّ الله تعالى عليم حكيم ، يضع الأمور في مواضعها ، فيضع الفضل في موضعه المستعد له ، الذي فيه أهلية .

قال تعالى - في أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : {وألزمهم كلمة التقوى} وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم {وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليمًا} .

ويَدْخل في هذا من سار على طريقهم ، وانتهج منهجهم .

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم الذي لا أول له ، أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هم الأحقاء بذلك ، وهم الأهل لذلك ، فألزمهم كلمة

التقوى الجامعة لكل خير في الدنيا والآخرة ، والواقية من كل شر في الدنيا والآخرة .

فإلزامهم إيّاها هو الحكمة ، لأنّ الحكمة وضع الشيء في موضعه ، وهذا لا يكون إلا عن علم صحيح بمن هو موضعٌ لذلك ، ومن هو ليس بذلك فإنّ الحكمة هي تحقيق وتنفيذ مقتضى العلم ، وصواب الحكمة تابع لصحة العلم ، ولا شك أنّ العلم المطلق الذي أحاط بكل شيء والذي هو لا أول ولا آخر له ، وهو لا يتناهى من حيث القدم ولا من حيث البقاء ، بل محيط بالأزل والأبد هذا العلم هو الله تعالى وحده ، فحكّمته سبحانه هي الحكمة الجامعة التي لا تتناهى ولا تضاهى وهي فوق كل حكمة .

ألا ترى الطبيب تكون حكمته على حسب علمه بالطب ؛ وحكمته هي وصفه الدواء حيث ما يتطلبه الداء .

وقال تعالى - في الكفار أعداء النبي صلى الله عليه وسلم : **{ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون}** .

وقوله تعالى في آخر الآية : **{والله عليم حكيم}** فيه دفع اعتراض وشبهة قد تُعرض للإنسان بأن يقول : ما دام أمر الإيمان وحبه، والرشد وحصوله ، كل ذلك من فضل الله تعالى ونعمته فلم لا يتفضل سبحانه على جميع العباد، فأجاب سبحانه بأنه **{عليم حكيم}** - أي : هو عليم بمواضع فضله ومواقع نعمته الخاصة وهي الإيمان ، فيضع ذلك في موضعه ، فحجة الله تعالى قائمة على العباد كما تقدم في قوله تعالى : **{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً}** الآية .

وهكذا سبحانه هو أعلم حيث يجعل الإيمان ونعمته ومحبته في القلب ، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته .

قال تعالى - مخبراً عن الكفار - : **{وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله}** .

فأجابهم سبحانه : {الله أعلم حيث يجعل رسالته} .

وقال تعالى - في سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً}.

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم من قبل الأزل أنه لا يليق بختم النبوات ، ولا ينبغي ختم النبوة ولا أن يكون خاتم النبيين إلا هذا السيد الأكرم والحبیب الأعظم رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

اللهم اجعلنا من أتباعه ومحبيه بجاهه عندك ، ومن أنصار دينه وشريعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتوفيقك وعافيتك وشفائك .

فإنه تعالى هو العليم الحكيم على وجه الإطلاق والإحاطة وعدم النهاية : فكل اعتراض يصدر عن يدعي الفهم أو الذكاء أو شيئاً من الحكمة أو الثقافة أو الحصافة ؛ كل اعتراض يصدر من هؤلاء على أخبار الله تعالى أو أحكام الله تعالى وشريعته ؛ يقال لصاحبه : أنت أحمق فاقد العقل الكامل والفهم الصحيح ، ولو كنت على شيء من الحكمة لما اعترضت ، لأن حكمتك المزعومة عندك هي جزئية ، وأما حكمة الله تعالى فهي الحكمة الكلية التي لا انتهاء لها ، وهي تابعة لعلمه المحيط بكل شيء ، القديم الذي لا أول له ، فاعتراض مُدعي العلم أو الفهم أو الحكمة على الله تعالى اعتراضه هو حماقة وأي حماقة ، وجنون بل هو أعظم الجنون ، وأول أحمق وأعظم سفیه أرعن وبهيم يدعي أنه فهيم هو إبليس ، الذي اعترض على الله تعالى فقال : {ءأسجد لمن خلقت طيناً} ، وقال : {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} فاعترض على من أقر أنه خالقه وخالق مداركه وعقله .

فكل اعتراض على الله تعالى في أوامره ومناهيه أو أحكام شرعه - كل ذلك صادر عن تلبيس إبليس ، فإن اللعين لما توجه عليه أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام ، كبر ذلك عليه بسبب أنه كان مغروراً بعبادته ، ومتكبراً ، يدعي الفهم الصحيح ، والعقل الرجيح ، فراح يحكم عقله في الأمر بالسجود لآدم عليه السلام ، وتجربته محاكمته المزعومة إلى أن يقول: هو خير من آدم ، بسبب أنه خلق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار

لطيفة تمتد إلى العلو ، والطين كثيف يميل إلى السفلى وإلى الأرض ، إذاً كيف يخضع ويسجد العالي لمن هو دونه .

قال تعالى : - مخبراً عن ذلك - : {قال : ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} .

وفي هذه الآية دليل على أنّ الله تعالى وجّه إلى إبليس أمراً خاصاً أن يسجد لآدم ، لا أنه داخل في عموم الأمر للملائكة بالسجود ، فإنّ إبليس هو ليس من الملائكة ، بل هو من الجن وهم مخلوقون من النار ، وأما الملائكة فقد خلقوا من النور كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره كما بينت ذلك في كتاب (الإيمان بالملائكة والكلام على عالم الجن) ، ولكن قد استأذن ربه أن يعبد مع الملائكة في السماء الأولى ، فأذن الله تعالى له بذلك ، وكان ذلك محنةً له ، فدخل عليه الغرور والكبر والدعوى والأنانية فصدّه ذلك عن الاعتراف بحقية أمر الله تعالى له بالسجود لآدم ، فقد أعماه كبر نفسه وأنانيته ؛ فكان منه ما كان - أعاذنا الله تعالى من شره وشر أعوانه - ولذلك وصفه الله تعالى بالإباء والاستكبار والكفر ، قال تعالى : {فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين} فكان من الجاحدين المنكرين للحق تكبراً وتجبراً وتعالياً .

ومن هنا يتبين أنّ الكبر ودعوى الفهم قد يحمل ذلك صاحبه على الكفر وجحود الحق بعد معرفته .

فيقال لإبليس وتلامذته : أدعياء الفهم والفلسفة : إن دعوى إبليس المبنية على محاكمة عقله في أمرٍ توجه إليه من ربه كل ذلك مردود عليه لدى التعقل الصحيح ، والتحكم الصادر عن حكمة.

أولاً : إنّ إبليس كان يعترف بأنّ الله تعالى هو ربه وخالقه بدليل قوله : {خلقتني من نار و. .} الآية ، فهو معترف بأنّ الله تعالى خلقه وأعطاه السمع والبصر والعقل ، فيقال : كيف يصح اعتراضه على الله تعالى خالقه، فإنّ كان هذا الإعتراض صادراً عن حكمة كما زعم فَمَنْ الذي أعطاه الحكمة ، أليس هو الله تعالى ؟ ، فسبحان الله رب العالمين ، أفيعطيه الحكمة وهو سبحانه غير حكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إذا كان

إبليس يدّعي أنّه صاحب حكمة فالذي خلقه هو الذي أعطاه الحكمة وآتاها لأهل الحكمة ، مع أنّها حكمة مخلوقة ومحدودة ، كما أنّ صاحبها مخلوق ومحدود وله أول وآخر . . .

وأما ربُّ العالمين فحكّمته ليست مخلوقة ولا محدودة ولا مكتسبة ، بل هي صفة من صفاته الذاتية القديمة الواجبة التي لا انتهاء لها ، كما أنّ علمه سبحانه كذلك ، وسمعه وبصره ؛ وهكذا جميع صفاته ، فإنّها واجبة لذاته سبحانه ، فحكمة الله تعالى فوق كل حكمة ، والحاكمة على كل حكمة - إذاً تكون نتيجة ذلك أن اعتراض إبليس على أمر الله تعالى له بالسجود ، وزعمه أنّه خلاف الحكمة هذا الاعتراض ودعواه أنّه صاحب حكمة هذا مردود ، بل هذا الاعتراض صادر عن حماقة وسفاهة ورعونة نفس ، وجنون وكبر ، وإعجاب بالنفس .

وهكذا كل من يعترض على أمر من أوامر الله تعالى فهو كذلك قال تعالى - في الجاحدين المنكرين - : {أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنّ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} .

فإنّ الله تعالى أحكم الحاكمين وصفهم بأنهم أضل من الأنعام ، {ومن أضدق من الله قبيلاً} .

ثانياً : إنّ دعوى إبليس أنّه مخلوق من النار - وهي لطيفة تطلب العلو يقال له ولتلامذته أدعياء الفهم والفكر : إنّ الملائكة خلّقوا من نور وهو أطف من النار ، وامتداد النور أوسع ، وظهوره أسطع ، فلم يمتنعوا عن السجود ؟ نعم لأنهم ملائكة ، آتاهم الله الحكمة الصحيحة ، ولذلك استسلموا للأمر لما جاءهم ، لأن الأمر هو الله تعالى الحكيم العليم ، فإن أوامره وشريعته كلّ ذلك صادر عن حكّمته وعلمه المحيط بكل شيء .

قال تعالى : {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} .

وقال تعالى : {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} .

وقال تعالى : {حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون} .

وقال تعالى : {ألر كتاب أأكمأ آآآه ثم فصلأ من لدن حكيم آبير} .

فلو كان إبليس عنده شيء من الفهم والحكمة لوافق الملائكة في السجود لأدم عليه السلام ، فإنه يعلم أن الملائكة هم أعلم بالله تعالى منه ، وأعبد لله منه ، وأخلص وأطهر وأنقى وأتقى ، لكن دعواه الفهم وكبر نفسه وغروره بعبادته صدّه وأعماه عن ذلك كله .

اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا .

ثالثاً : إنّ آدم عليه السلام شرف الله تعالى خلقه روحاً وجسماً ، فهو الذي خلقه الله تعالى بيديه سبحانه ، وسوّاه ، ونفخ فيه من روحه ، ولذلك قال الله تعالى - لإبليس - : {قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} الآية .

وأشاد بذكر آدم عليه السلام قبل أن يخلقه ، وأخذ العهد على الملائكة كلهم ، وأعلمهم وأمرهم بالسجود لأدم فوراً متى كمل خلقه .

قال تعالى : {وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} .

فإذا بإبليس يعترض على الله تعالى ، ويأبى ويستكبر ، فأين فهمه وأين حكمته التي ادعاها ، وأين عبادته التي كان مغروراً بها ؟ !!!

اللهم إنا نعوذ بك أن نرد على أعقابنا ، ونعوذ بك أن تُزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا مولانا ، فإنك أنت العزيز الكريم الوهاب ، فأنت أجل وأكرم من أن تُرجع فيما وهبت ، أو تسلب ما أنعمت .

ربنا أتم علينا نعمتك ، وأتم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

رابعاً : إنّ الطين هو مركب من تراب وماء ، وفي هذين الحياة والنمو والنبات ، والاستقرار والثبات ، فتضع الحبة في الطين فتنبت السنابل ، وتضع النواة فتنبت لك الشجر ذات الثمر ، وتضع فيه اليابس فيخضر ،

وأما النار فهي مُحرقَة ومدمرة ، وضررها كبير ، وشرها مستطير ، فإن شرارة منها تُحرق مزارع وبيوتاً ، فما أتت على شيء إلا جعلته كالرّميم .
- فأين المحاكمة العقلية الصحيحة التي ادعاها إبليس لما اعترض على أمر الله تعالى ، وأين المحاكمة العقلية الصحيحة عند تلامذة إبليس الذين يعترضون على شريعة الله تعالى وأوامره وأحكامه في التحليل والتحرّيم ؟
!!

هذا وإنّ الرد على المعترضين على دين الله وشريعته بدعواهم الفهم والذكاء والبحث والإطلاع - الرد عليهم يحتاج إلى كلام طويل يقوم على البرهان والدليل وليس موضع تفصيله هنا - وقد ذكرت طرفاً من ذلك في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) ثم في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة الأكوان) فليرجع إلى ذلك .

قوله تعالى : **{ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم}** إلى قوله تعالى : **{أولئك هم الراشدون}** .

يستحب لمن يقرأ القرآن إذا مرّ بآية رحمة أن يسأل الله تعالى ذلك ، وإذا مرّ بآية فيها وعيد بعذاب ونحوه أن يتعوذ بالله من ذلك ، وإذا مرّ بآية فيها دعاء سأل الله تعالى ودعا ، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح ، وقد بسطت الكلام على ذلك في كتاب : (تلاوة القرآن المجيد) فارجع إليه .

وبناء على ذلك فإذا مرّ الذي يقرأ القرآن على قوله تعالى : **{ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم}** إلى قوله تعالى : **{الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم}** فليدع بالدعاء الوارد في الحديث الآتي لعل الله تعالى يجعله من أولئك الذين حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وجعلهم من الراشدين ، وكيف يُرد دعاؤه وهو يدعو دعاءً علمنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن ندعو به .

روى الإمام أحمد عن أبي رفاعة المزني عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي : لأصحابه : ((استووا حتى أثنى على ربي عز وجل)) فصاروا خلفه صفوفاً .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعداً لما قرّبت .

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول .

اللهم إني أسألك النعيم يوم الغيلة ، والأمن يوم الخوف .

اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا .

اللهم حبّب إلينا الإيمانَ وزينّه في قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفرَ والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفّقنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين - غير خزايا ولا مفتونين .

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك .

اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق)) .

وفي رواية : ((يا إله الحق))¹ .

والمعنى قاتل الذين كفروا من أهل الكتاب فإنهم لما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفروا برسولهم وكتابهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم مذكور في كتبهم ، ومبشر به على السنة رسلمهم .

وروى الترمذي والنسائي عن شداد بن أوس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن نقول في الصلاة : ((اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ،

¹ وعزاه في الدر المنثور إلى البخاري في الأدب ، والنسائي ، والحاكم وصححه . .

وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأستغفرك مما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب)) .

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : ((اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري ، وتلمُّ بها شعثي ، وتُصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم أعطني إيماناً يقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة)) إلى تمام الحديث كما ذكرته بتمامه في كتاب (الشمائل الشريفة) فارجع إليه فإنه دعاء جامع .

فقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأل الله تعالى أن يُلهمنا رشداً ، وقد قال لعمران بن الحصين : ((قل : اللهم ألهمني رشدي ، وأعدني من شر نفسي)) الحديث .

ورحم الله تعالى القائل :

يا رب هبّىء لنا من أمرنا رشداً

واجعل معونتك الحسنى لنا مدداً

ولا تكلنا إلى تدبير أنفسنا

فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسدا

أنت العليم وقد وجّهتُ يا أملي

إلى رجائك وجهاً سائلاً ويذا

وللرجاء ثواب أنت تعلمه

فاجعل ثوابي دوام الفضل منك لي أبدا

أمين

ويرحم الله تعالى القائل :

يا من يراني في علاه ولا أراه

يا من يجيب المستجير إذا دعاه

يا من يجود على العباد بفضله

جلّ الجليل وجلّ ما صنعت يداه

ياربّ

وفي النفس حاجات وفضلك واسع

سكوتي دعاء سيّدي وخطاب

فاستجب يا إلهي وتفضل بالعتاء ، فإنك أمرتنا أن ندعوك ونسألك من فضلك ، يا من لا يُرد عن بابهِ السائلون ، ولا يخيب فيه الآملون ، ولا تخيب فيه حسن الظنون ، ولا يُحرم من عطائه الراجون .

يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول والإنعام ، لا إله إلا أنت ، ظهر اللاجين ، وجار المستجيرين ، وأمان الخائفين ، وملاذ اللانذين ، ومعاذ العائدين ، وغياث المستغيثين ، ومجيب السائلين وجابر المنكسرين ، ومجيب دعاء المضطرين .

ويا رجاء الراجين ، ويا أمل الآملين ، ويا أول الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا ذا القوة المتين ، ويا راحم الضعفاء والمساكين ، ويا كاشف السوء ويا إله العالمين ، ويا أرحم الراحمين ، ويا صمّد الصامدين ، ويا مقصد القاصدين ، ويا منتهى رغبة الطالبين ، ويا إله الحق المبين .

نسألك بنور وجهك الكريم الأكرم ، وباسمك العظيم الأعظم ، متوجهين ومتوسلين إليك بحبيبك المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصادق الأمين ، وإمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، أن تستجيب دعانا ، وتحقق لنا رجانا ، وتعطينا من فيض فضلك سؤلنا ومنانا وفوق منانا .

يا ذا الجلال والإكرام : اسمع واستجب ، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً أبداً الأبدية .

قد دعوناك بذل وانكسار

ورفعنا إليك أيدي الافتقار

فأئنا من عطايك الغزار

برحمتك يا عزيز ويا غفار

قول الله تعالى :

{وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما
على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت
فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} .

في هذه الآية الكريمة ، يُرشد الله تعالى عباده لما فيه صلاح أمور دينهم ،
وإصلاح مجتمعهم ، ليتباعدوا عن كل ما فيه تفرقة لجمعهم ، وعن كل ما
يؤدي إلى انقسامهم وبغضهم .

فبعد ما أمر سبحانه بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف
والأخطار ؛ فإنَّ منها أخباراً صحيحة ، ومنها أخباراً فاسدة ، ومنها
الصدق ومنها الكذب ، ومنها أخباراً باطلة زمنية يشبه أن تكون من باب
النميمة ؛ فتورث في النفوس البغضاء والحقد ، وإذا استحکم ذلك قد يجر
إلى القتال فيقعون في بلاء شديد ؛ يُفسد أمر العباد والبلاد ، فما هو علاج
هذا البلاء وكشف تلك الفتنة العمياء ، وما هو العلاج الشافي والدواء
الكافي لدفع الخلاف إن وقع بين المسلمين بسبب من الأسباب ، وأدى ذلك
إلى انقسام بعضهم على بعض فإن الإيمان المحبب إليهم فيه بيان كل خير ،
والإبعاد عن كل شر ، وفيه الأمر بالتحابب بينهم ، وعدم الاختلاف
والتباغض ؛ بل الواجب الإيمان يفرض عليهم أن يكونوا كالجسد الواحد ،
مجتمعين غير مختلفين ، متوادين غير حاقدين ولا حاسدين - نعم الجواب
عن طريق الصلاح إن اختلفوا واقتتلوا هو قوله تعالى : {وإن طائفتان من
المؤمنين اقاتلوا . . . الآية} .

فجاء بإن الدالة على أنه لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين ، ولكن إن حصل شيء من ذلك ، فلتبادر طائفة من المؤمنين إلى الإصلاح بينهم فوراً .
وجيء بقوله تعالى : {اقتتلوا} ولم يقل سبحانه : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلتا بضمير التثنية والتأنيث ؛ تصويراً لقتالهم بأقبح صورة ، فإن اقتتلتا تدل على أنهم فريقان تقاتلا ، ولكن اقتتلوا يدل على الجمع ، وما أقبح الجمع إذا كان السبب الجامع لهم هو القتال ، وكأنهم فريق واحد اجتمعوا ليقتل بعضهم بعضاً ، ولكن إن حصل ذلك {فأصلحوا بينهما} بأصلح أسباب الصلح ، وأقرب طريق يوصل إليه ، وذلك بالنصح لكل من الطرفين ، والتذكير بأنهم مؤمنون - والإيمان إنما جاء بالسلم والأمان ، وإذا كانت هناك شبهة أزالوها ، وإن كانت هناك وشايات أو أخبار ذميمة أو فيها نميمة أبطلوها ، ولو أدى ذلك الإصلاح بينهما إلى الكذب ؛ فإن الكذب في باب الإصلاح بين الطرفين أباحه الشارع الحكيم ، دفعاً للفساد عن الطرفين كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي ، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((لا يصلح الكذب إلا في ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب في الحرب ، والكذب ليصلح بين الناس)) .

وذلك بأن يأتي إلى أحد الطرفين المتنازعين فيقول له : إن فلاناً - أي : الطرف الآخر - هو يحبك ولا يتكلم عنك إلا بخير ، وهذه الأخبار تبالغك عنه هي وشايات ونميمة ؛ ثم يأتي الطرف الثاني فيقول له ذلك أيضاً بقصد الإصلاح .

وإذا كانت زوجته لا يرضيها إلا الثوب الغالي الثمن ، أو كانت مُسرفة فما ترضى إلا أن يكون أنفس الأشياء وأغلاها ثمناً ، فلا بأس أن يقول لها : هذا الثوب ثمنه كذا وكذا - أي : الذي رغبتُ به . -

والكذب في الحرب مع العدو جائز لأن الحرب خدعة ، وفي ذلك إنهاء للقتال ، وحقن للدماء ، ففيه مصلحة عامة ، ورب حيلة غلبت قبيلة ، فحقنت دماءها .

قوله تعالى : {فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} .

والمعنى : فإن تعدت إحداهما على الأخرى ، وتعالى عليها بغير الحق ، ولم تقبل الحق وهو حكم الله تعالى الشرعي وأمره ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله .

وإنما أمر سبحانه بقتال الفئة الباغية لأنها ببغيها على الأخرى ، وخرجها بهذا البغي عن أمر الله تعالى فإن في ذلك اعتداء على الشرع ، فوجب قتالها حتى ترجع إلى أمر الله تعالى .

{فإن فاءت فأصلحوا بينها بالعدل} والمعنى ، فإن رجعت إلى قبول أمر الله تعالى ، والتحاكم إليه ، وأقلعت عن القتال للطائفة الأخرى {فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل} .

والمعنى : إن وقفت عن قتالها للطائفة الأخرى ؛ وقبلت الرجوع إلى أمر الله تعالى ؛ فأصلحوا بينهما بالعدل ، فإنه لا يُكتفى بإقلاعهم عن القتال ، وبتركهم القتال ، بل لا بدّ من الصلح بينهما بالعدل ، صلحاً مؤكداً وموثقاً ، يُذهب البغضاء والشحناء ، فإنه إذا لم يُعقد الصلح بينهما ، ويُصلح بينهما بالعدل ، فإنّ القتال قد يتكرر ويعود أقبح مما وقع - فالواجب إجراء الصلح بينهما بالعدل دون حَيْفٍ ولا ظلم للفريقين ، والواجب توثيق صلح الصلح بينهم ؛ حسماً للفساد ، وتخريب البلاد ، وهلاك العباد ، فإن الإسلام يدعو إلى السلام ، والإيمان يدعو إلى الأمان ، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم)) الحديث .

قال تعالى : {وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} .

القسط : بكسر القاف هو العدل ، وأما القسُط بفتح القاف فهو الجور والظلم، قال تعالى : {وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً} - أي : الجائرون الظالمون ، فيقال : أقسط إذا أزال القسُط - أي : عدل بأن أوصل

إلى صاحب الحق نصيبه من الحق وقسطه الذي يستحقه بدن جور ،
فالمقسط هو العادل .

فقوله تعالى : {وأقسطوا} هذا أمر عام ، والمعنى : أقسطوا واعدلوا في
جميع أموركم التي تصدر عنكم ، سواء كانت متعلقة بأنفسكم ، أو متعلقة
بغيركم ، وإياكم والجور والظلم .

قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو
على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما
فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . . } الآية .

وبعد أن أمر سبحانه بالقسط - أي : العدل - في جميع الأمور بيّن فضل
المقسطين فقال : {إن الله يحب المقسطين} وفي هذا تأكيد للقيام بالقسط ،
وتحقيق العدل في الأمور كلها ، والترغيب في ذلك ، فإنّ صفة العدل
والقيام بالقسط يُحبها الله تعالى ، قال تعالى : {شهد الله أنه لا إله إلا هو
والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط} الآية .

وفي (صحيح) مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة
على منابر من نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم
وما ولّوا)) .

وأخرج ابن أبي شيبة من وجه آخر عن ابن عمرو رضي الله عنهما ، أنّ
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إن المقسطين في الدنيا على منابر
من لؤلؤ يوم القيامة ؛ بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا))¹ .

قوله تعالى :

{إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون} .

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه :

¹ كما في (الدر المنثور) وقد رواه ابن كثير من طريق ابن أبي حاتم بإسناده ، ثم قال
ابن كثير : ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن عبد الله عن أبيه ، وهذا إسناد
جيد قوي ، ورجاله على شرط الصحيح - اهـ .

الأول : قوله تعالى : **{إنما المؤمنون إخوة}** هذا عقد وثيق صادر من ربّ العالمين ، عهد به إلى جميع المؤمنين على اختلاف ألوانهم وأنسابهم ، وأمكنتهم وأزمنتهم ، واختلاف ألسنتهم ، يُعلمهم سبحانه ويعلن لهم أنّ كل مؤمن هو أخ لكل مؤمن ، سواء أخاه أم لم يُؤاخه ، فإنّ الله تعالى هو الذي أخی بين جميعهم ، وسواء عَرَفه أم لم يعرفه ، وسواء صاحبه أم لم يصحبه ، وسواء كان هذا من أهل المشرق وذاك من أهل المغرب ، أو من الشمال أو الجنوب ، وسواء كان عربياً أو غير عربي أو أحمر أو أبيض أو أسود ، كل أولئك سواء في هذه الأخوة التي عقدها الله تعالى بينهم ، وحقّ سبحانه لهذه الأخوة حقوقاً فليرعوها ، فإنّه سبحانه وتعالى هو الذي عقد هذه الأخوة بينهم ، وهو سبحانه سوف يسألهم عن حقوق هذه الأخوة بينهم - وهذه تسمى الأخوة العامة ، وعاقدها بينهم هو الله تعالى رب العالمين ، فإذا أضيف إليها أخوة خاصة وهي التي تصدر عن عقد التآخي بينهم زادت حقوقاً فوق الحقوق .

فالأولى وهي العامة كالأخوة لأب ، والثانية وهي الخاصة كالأخوة لأب وأم - ولكل حقوق وواجبات إيمانية لا امتنانية ولا تفضيلية ، بل هي حقوق من التكاليف الإيمانية ، التي شرعها الله تعالى ، فإن الشريعة جاءت ببيان حقوقه سبحانه على عباده ، وحقوق العباد على بعضهم .

أما حقوق الأخوة العامة فقد جاء بيانها في الآيات القرآنية ، وفي الأحاديث الواردة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم} .

فانظر كيف جمع سبحانه في هذه الآية بين حقوقه وحقوق عباده على بعضهم ، وأنّ ذلك كله من الإيمان ، واعتبر من هذه الآية الكريمة : فإن أول وصف يصف الله تعالى به المؤمنين والمؤمنات - هو أنهم بعضهم أولياء بعض ، وفي هذا تنبيه حتى لا يتساهل في ذلك المؤمن والمؤمنة - والمعنى : أنهم بينهم الولاء والمحبة والنصرة ، فهم أحباب لبعضهم ،

وأنصار على الحق لبعضهم ، ونصحاء لبعضهم ، ومتعاونون مع بعضهم ،
بينهم التراحم والتوادد والتعاطف والتلاطف ، لا الفحش ولا المغالطة ، ولا
التدابير ولا التحاسد ، قال صلى الله عليه وسلم : ((ترى المؤمنين في
توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر
الجسد بالسهر والحمى)) الحديث كما سيأتي .

كما وصف سبحانه المؤمنين باعتبار أنهم نصحاء وأحباب بعضهم ، فهم
يأمرون بالمعروف ولكن على طريق المعروف والنصيحة ، لا على سبيل
العنف والفضيحة ، وينهون عن المنكر بدون ارتكاب منكر ولا إيذاء ، ولا
احتقار ولا انتقاص ، فإن الفحش والغلظة لا تجوز من المسلم على أخيه .

وأما الأحاديث النبوية الواردة في حقوق المؤمنين فيما بينهم فهي كثيرة
وشهيرة ، أذكر جملة منها لعلها تنبه الغافل وتعلم الجاهل ، أو تكون عبرة
للعاقل بحيث يتضح له جلياً الفوارق الكبرى بين مبادئ دين الإسلام وما
يدعو إليه من الحقوق والواجبات فيما بين المسلمين ، وبين ما عليه كثير
من المسلمين في زمننا من الغش والمكر والخداع ، والتباغض ،
والتحاسد، والتهاجر والانقسام على بعضهم إلا من رحم الله تعالى فوقاه
وتولاه .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وعلى آله وسلم : ((لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا
تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً - وجاء
في رواية له : ((وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى))) .

المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ولا يحقره .

التقوى ههنا - ويشير إلى صدره الشريف صلى الله عليه وسلم ثلاث
مرات .

بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كلّ المسلم على المسلم
حرام دمه وماله وعرضه)) .

وجاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً)) .

فقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا تحاسدوا)) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحسد المذموم وهو المراد عند الإطلاق في باب النهي ، وهذا الحسد هو تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهو قسمان :

فالأول : هو تمنى زوال النعمة عن المحسود وانتقالها إليه .

والثاني : هو تمنى زوال النعمة عن المحسود ولو لم تصل إليه - وهذا أخبث وأقبح .

ولما كان الحسد المذموم فيه أذى للمحسود ، وحب الضرر له ، فقد أمر الله تعالى بالتعود من شر حاسد إذا حسد ، وقرن ذلك لعظم شره ؛ قرن ذلك بشر الساحر ، فقال تعالى : { **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد** } .

وأما حسد الغبطة وهو أن تفرح بما أعطى الله تعالى غيرك من الخير ، وتتمنى له بقاء النعمة عليه ودوامها له ، وأن يُعطيك الله تعالى مثل ما أعطاه من الخير أيضاً ، فهذا هو حسد الغبطة ، مطلوب في الخير النافع ، وهو المراد بالحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة - أي : السنة والأحاديث النبوية الشريفة - فهو يقضي بها ويُعلمها ، ورجل آتاه الله مالاً فسَلَّطه على هلكته - أي : إنفاقه - في الخير)) .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ضرر الحسد المذموم ، وأنه يأكل
حسناً الحسود ويُحرقها :

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : ((إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار
الخطب)) أو قال ((العشب)) ورواه البيهقي وابن ماجه أيضاً .
فاحفظ حسناتك على نفسك من حريق الحسد لها .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الإيمان والحسد ضدان لا يجتمعان :
روى ابن حبان في (صحيحه) ومن طريقه أيضاً البيهقي عن أبي هريرة
رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لا يجتمع في
جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم ، ولا يجتمع في جوف
عبد الإيمان والحسد)) .

وقد تبرأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحاسد والكاهن :

روى الطبراني عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله
عليه وعلى آله وسلم قال : ((ليس مني ذو حسد ، ولا نميمة ، ولا كهانة ،
ولا أنا منه)) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {والذين
يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً
مبيناً} .

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ولا تناجشوا)) في هذا الحديث
نهى عن النجش في البيع ، وهو أن يزيد الرجل في ثمن السلعة وهو لا
يريد شراءها إما لنفع البائع بزيادة الثمن له أو لإضرار المشتري.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ولا تباغضوا)) لما كان المؤمنون
إخوة ؛ وجب عليهم بمقتضى حق إخوة الإيمان أن يتحابوا ولا يتباغضوا ،
كما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وعلى آله وسلم : ((والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى
تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟
أفشوا السلام بينكم)) .

فهذا الحديث يدلّ على أنّ التحابب بين المؤمنين هو من جملة شعب الإيمان التي يتوقف عليها دخول الجنة ، وطريق التحابب هو إفشاء السلام - أي : نشره والإكثار منه ، وجميع ذلك يعتبر من باب الإيمان لا من باب الامتنان .

وقد جاء في رواية الترمذي وغيره ما يدل على أنّ التباغض بين المؤمنين هو يخلق الدين .

فقد روى الترمذي والبخاري بإسناد جيد والبيهقي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء وهي الحالقة ؛ أما إنّي لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على ما تحابون به ؟ أفشوا السلام بينكم)) .

فالحسد والبغضاء والحقد ذلك داء الأمم قبل هذه الأمة ، وذلك هو الذي أفسد عليها أمر دينها ودنياها ، ومزقها شر ممزق .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ هذا الداء القبيح سوف يدبّ إلى هذه الأمة فيفسد عليها دينها ودنياها ، كما أفسد من قبلهم فليأخذوا حذرهم.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {ولا تدابروا} التدابر : هو الهجران والتقاطع ، مأخوذ من تولية الرجل دبره - أي : عقبه - لصاحبه معرضاً عنه بوجهه مقاطعة له ، كما جاء في رواية لمسلم : عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى)) .

فإن قيل : أين أمر الله تعالى في القرآن الكريم بذلك ؟

فالجواب : إنّ أمر مشار إليه بقوله تعالى : {إنما المؤمنون إخوة} ، فإنّه خبر عن الحالة التي شرعها الله تعالى للمؤمنين ، فإنها حالة يجب أن يكونوا عليها ؛ فهو بمعنى الأمر¹ .

¹ وهناك جواب آخر ، ولكن هذا الجواب أظهر كما بين ذلك الحافظ في (الفتح) .

فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الهجر والتقاطع، وقد جاء في (الصحيحين) عن أبي أيوب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصدُّ هذا - أي : يعرض - ويصدُّ هذا ، وخيرُهما الذي يبدأ بالسلام)).

وروى أبو داود عن أبي حراش السلمي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من هجر أخاه سنةً فهو كسفك دمه)).

قال العلماء : وهذا الهجر المنهي عنه هو التقاطع بسبب أمور دنيوية ، فأما الهجر لأجل الدين فيجوز الزيادة على الثلاث : إذا كان هذا الهجر فيه زجر للمهجور وردع له عن فساده وغيِّه ، ويكون هذا الهجر سبباً لرجوعه عن غيِّه وضلاله ، ومخالفته لأمر الشريعة ، وأما إذا كان الهجر سوف يزيده فساداً أو انطلاقاً في الغيِّ ومخالفة أوامر الله تعالى ، ويحمل المهجور إلى فساد أكبر مما هو عليه فلا يجوز الهجر ؛ بل الواجب المواصلة بوجهٍ من الوجوه بقصد نُصحهِ والتقليل من فسادهِ وغيِّهِ .

واعلم بأن البغضاء والشحناء تمنع رفع الأعمال الصالحة :

روى مسلم والترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((تُعَرَضُ الأعمال في كل خميس واثنين ، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يُشرك بالله شيئاً إلا مَنْ كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله تعالى - أي : للملائكة - اتركوا هذين حتى يصطلحا)).

قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ولا يبيع بعضكم على بيع بعض)).

((ولا يبيع بعضكم)) هذا نهى تحريم ، قال الحافظ الهيثمي رحمه الله تعالى : عند هذا الحديث : ((ولا يبيع بعضكم . . .)) أي : معشر المكلفين من المسلمين والذميين ، والتقيد بالمسلم في الأخبار - أي : بعض الأحاديث - هو للغالب خلافاً لمن أخذ بمفهومه هو - أي : فإنَّ الأخذ بالمفهوم لا دليل عليه - بل الواجب على المسلم أن يعامل الذمِّي كما يعامل المسلم في

الصدق والأمانة ، وعدم الإضرار به لا في ماله ولا دمه ولا عرضه .
اهـ .

((ولا يبيع بعضكم على بيع بعض)) فلا يجوز لأحد أن يقول لمشتري سلعة في زمن الخيار يقول له : افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه، أو أجود منه بثمنه ؛ وذلك لما فيه من الإيذاء الموجب للتنافر والبغض ، ومثله الشراء على الشراء بغير إذن المشتري ، بأن يقول آخر للبايع في زمن الخيار : افسخه وأنا أشتريه منك بأعلى .
وكذا يحرم السوم على سوم غيره والخطبة على خطبة غيره .

والسوم المحرم هو أن يزيد في الثمن بعد استقرار السوم الأول على ثمن معين - إلا أن يرضى من له الحق ، لأنه حقه فله تركه والتنازل عنه .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((لا يبيع المؤمن على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه)) .

وفي رواية لمسلم : ((لا يسم المسلم على سوم أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه)) .

وفي رواية له أيضاً : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وعلى وسلم : ((لا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه ؛ إلا أن يأذن له)) .

فلما كان ذلك كله فيه إيذاءً للغير ، وفيه ما يسبب التنافر والبغض ؛ فقد نهى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((وكونوا عباد الله إخواناً)) .

- أي : اكتسبوا ما تصيرون به إخواناً ، وهذا كالتعليل لما تقدم ، وفيه إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتباغض ، والتناجش والتدابير ، والبيع على بعضهم ، والسوم على بعضهم إلى ما وراء ذلك مما نهوا عنه فإنهم

يصيرون إخواناً متحابين ، متوادين ، متعاطفين ، متلاطفين ، متعاونين على البر والتقوى ، متفقين أفراداً وجماعة ومجتمعاً .

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((وكونوا عباد الله إخواناً)) فيه أمر بتحقيق عقد الأخوة الإيمانية الذي عقده الله تعالى بين المؤمنين ، وعهد به إليهم في قوله تعالى : { **إنما المؤمنون إخوة** } ويدخل في ذلك سائر الحقوق الإيمانية التي تُحقق الأخوة بين عباد الله تعالى ، وقد بينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي قال الله تعالى له : { **التبين للناس ما نزل إليهم** } كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى .

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((المسلم أخو المسلم)) لأنه يجمعهم دين واحد ؛ وهو أخوة الإيمان ، ومن المعلوم أنّ أخوة الدين أقوى وأعظم من أخوة النسب ، فإن أخوة الشخصين ولادة من صلب أو رحم أو منهما ثمرتها ونفعها دنيوي ، يذهب مع ذهاب العمر الذي يقضيه في الحياة الدنيا ، وأما الأخوة الدينية الإيمانية فإنّ خيرها ونفعها هو باق ومستمر في الدنيا والآخرة .

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره)) .

وفي هذا الحديث تأكيد لعقد الأخوة بين المسلم والمسلم ، فكيف يظلم المسلم أخاه ؟ ! سواء كانت تلك الظلامة تتعلق بماله أو دمه أو عرضه ، وسواء في ذلك ظلم القول أو ظلم العمل ، فإنّ ذلك كله حرام .

وقد حرم الله تعالى ربّ العالمين على نفسه الظلم ، وحرمه على عباده كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :

((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)) .

فالظلم حرام ولو للكافر أو الفاسق ، والظلم حرام ولو للحيوان والبهائم ، فكيف تظلم أخاك ؟ ! ! فالظالم لم ينل مرتبة النبوة ، قال تعالى : { **لا ينال**

عهدي الظالمين} ، ولا ينال مرتبة الولاية لأنه ملعون بنص : {ألا لعنة الله على الظالمين} ، وعاقبته وخيمة ولو بعد حين .

ويرحم الله القائل :

إذا ماشئتَ أن تحيا حياة حلوة المحيا

فلا تظلم ولا تبخل ولا تحرص على الدنيا

وقال بعضهم :

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً

فالظلم آخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبهُ

يدعو عليك وعين الله لم تتم

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)) الحديث .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ثلاثة لا تردُّ دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله تعالى فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الله تعالى : وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين)) .

قال العلماء : دعوة المظلوم لا تُرد ولو كان كافراً ، لأنه لم يخرج عن كونه عبداً لله مظلوماً .

((ولا يخذله)) بل ينصره بالحق على الوجه الحق ، وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي طلحة وجابر رضي الله عنهما قالاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من مسلم يخذل امرأ مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمة ؛ وينتقص فيه من عرضه ؛ إلا خذله الله تعالى في موضع يُحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص

فيه عرضه ؛ وتنتهك فيه حرمة ؛ إلا نصره الله تعالى في موضع يحب فيه نصرته)) .

وفي رواية الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((مَنْ أذَلَّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله تعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة)) .

وروى البزار عن عمران بن الحصين رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((من نصر أخاه بالغيب نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة)) .

((ولا يكذبه)) فإن الكذب فيه غشٌ وخيانة ومكر وخديعة .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب)) .

وروى الطبراني عن عبد الرحمن بن الحارث السلمي رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فدعا بطهور فغمس يده فتوضأ فتبعناه فحسوناه - أي : شربنا من ماء وضوئه صلى الله عليه وعلى آله وسلم -

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ما حملكم على ما فعلتم ؟)) .

قلنا : حبُّ الله ورسوله .

قال : ((فإن أحببتكم أن يحبكم الله ورسوله فأثروا إذا ائتمتم ، وصدقوا إذا حدثتم ، وأحسنوا جوار من جاوركم)) .

وروى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((عليكم بالصدق - أي : في أقوالكم وأعمالكم وأحوالكم - فإن الصدق يهدي إلى البرِّ - أي كمال الإيمان - وإن البرِّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .

وإياكم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنّ الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)) .

((ولا يحقره)) فإنّ الاحتقار للمسلم ناشىء عن الكبر واستصغار الغير ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((الكبر بَطْرُ الحق وغمط الناس)) الحديث ، وفي رواية : ((غمص الناس)) - أي : احتقارهم واستصغارهم . . وفي رواية للإمام أحمد : ((الكبر سَفَهُ الحق ، وازدراء الناس فلا يراهم شيئاً)). ((التقوى ههنا)) ويشير إلى صدره الشريف صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات .

والمعنى : أنّ موضع التقوى ومعدنها هو القلب ، فإذا انصبغ القلب بتقوى الله تعالى انصبغت الجوارح بالعمل الصالح ، والخلق المفلح الحسن الناجح ، وتباعد عن الأخلاق الذميمة ، والخصال اللئيمة من الحسد ، والتباغض ، والتدابير ، والتنافس ، وسائر المفاسد والمضارّ .

ومن المعلوم أنّ تقوى القلوب إنما تنشأ عن الخشية من الله تعالى ومراقبته سبحانه ، والخشية سببها معرفة الله تعالى ، والعلم بعظمته ، وعظيم قدرته ، وسعة علمه ، وعزة سلطانه ، وعلوّ شأنه ، واليقين الكامل باطلاعه سبحانه على خفايا القلوب ، وخفايا النفوس ، وضمائر السرائر ، فإذا علم ذلك صار عنده خشية من الله تعالى فاتقاه .

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أما والله إنني لأخشاكم لله وأنتاكم له)) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((إنني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية)) الحديث .

فتأمل بهذه المقارنة تفهم المناسبة بين العلم والخشية .

قال تعالى : {إنما يخشى الله من عباده العلماء} الآية .

قال بعض العارفين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين : وفي إشارته صلى الله عليه وسلم إلى صدره الشريف إذ يقول : ((التقوى ههنا)) قال : فيه إشارة

إلى أنّ الحقيقة الجامعة للتقوى ، وأصلها الثابت ، ومصدرها ذلك كله في صدره الشريف صلى الله عليه وسلم ، وفروعها في قلوب المؤمنين ، لأنّه محل عين الجمع الجامع ، الجامع لكل كمال ، ولكل خير ونوال ، بنص قوله تعالى : {إنا أعطيناك الكوثر} والكوثر على وزن : فَوَعْل وهو من الصيغ الدالة على كثرة الكثرة ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : {إنا أعطيناك الكوثر} قال : يعني الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، فقيل له : الكوثر هو نهر في الجنة فقال : نعم هو من الخير الكثير . اهـ .

ومن هنا قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنما أنا قاسم والله المعطي)) فهو صلى الله عليه وسلم الفيض بالخيرات والبركات ، والرحمات المتدفقة عليه من ربّ الأرض والسموات - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلينا أجمعين ، صلاة أزليّة أبدية حق قدره ومقداره العظيم .

كما أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو المرآة الأولى الكبرى ، والمجلى الأعظم الذي تجلّى فيها نور الله تعالى ، ثم عكست النور على مرايا القلوب القابلة المستمدة ، فأشرق منها النور في كل مرآة على حسبها ، وسعتها ، واستعدادها ، وكمال توجهها إلى مرآته صلى الله عليه وسلم .

وإنّ مرايا قلوب المؤمنين هي على مراتب متعددة ، ولا ينكر هذا الكلام المتقدم إلا جاهل ، قال تعالى : {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور} .

فتدبر قوله تعالى : {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله} بعد أن قال سبحانه : {وكذلك جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا} تفهم المعنى - فلا تنكر مقام وساطته ، ولا مقام وسيلته ، ولا مقام شفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

فإنه تعالى هو الهادي برسول الله صلى الله عليه وسلم من يشاء سبحانه هدايته ، كما قال صلى الله عليه وسلم في خطبته بالأنصار : ((ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي)) الحديث فلا تنكر قوله : ((بي)).

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)) والمعنى : كافيته من الشر العظيم احتقاره لأخيه المسلم بأي نوع من أنواع الاحتقار والاستهزاء ، أو السخرية منه ، أو الغيبة ، أو النميمة ، أو الطعن فيه ، أو النظر إليه بعين الصغار ، أو الترفع عليه ، أو التطاول عليه بالكلام ، أو السبِّ والشتم ، أو اللعن ، أو الكلام البذيء . . . إلى غير ذلك من المؤذيات والمؤذيات .

فإنَّ المسلم كريم على الله تعالى ، أودع الله تعالى فيه جوهرة النور الإيماني ؛ ولو كان ناقص الإيمان ؛ ولو كان مقصراً في بعض الأعمال الصالحة ؛ فلا يجوز تحقيره ولا احتقاره بعد أن شرفه الله تعالى بالإسلام ، وأكرمه ومنَّ عليه بنعمة الإيمان ، ثم يدخله دار السلام والرضوان في ضيافة الرحمن ، وجوار الكريم الديان ، فما أشرف المؤمن وما أكرمه؟! ! إنه سوف يدخل جنة الله ودار ضيافته وكرامته في جملة أحبائه ومقربيه - اللهم آمين .

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)).

هذه الأمور الثلاثة هي كالأصول الجامعة لجميع المحرمات التي ينشأ عنها أذى المسلم لأخيه ، ومن ثمَّ كان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يذكر حرمتها مقرونة ببعضها ، ويخطب بذلك في المجامع العظيمة والجماهير الحافلة .

فقد خطب بذلك صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : يوم النحر ويوم عرفة ، وفي اليوم الثاني من أيام التشريق¹ وقال صلى الله عليه وسلم :

¹ كما جاء ذلك بروايات متعددة ، منها في (الصحيحين) ومنها في (السنن) و(المسانيد) .

((إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)). .

وفي رواية :فأعادها مراراً ثم رفع رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم وقال : ((اللهم هل بلغت)) ثلاثاً ((اللهم اشهد)) وقال : ((ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)). .

وفي رواية : ((فإنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها)). .

وفي رواية : ((دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام مثل هذا اليوم ، وهذا البلد ؛ إلى يوم القيامة ، حتى دفعة يدفعها مسلم مسلماً يريد بها سوءاً : حرام)). .

وفي رواية : ((المؤمن حرام على المؤمن كحرمة هذا اليوم ، لحمه عليه حرام أن يأكله أو يغتابه ، وعرضه عليه حرام أن يخرقه ، ووجهه عليه حرام أن يلطمه ، ودمه عليه حرام أن يسفكه ، وحرام عليه أن يدفعه دفعة بغتة)). .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع أنواع الأذى بأيّ وجهٍ من وجوه الأذى ؛ من قول أو فعل من جدّ أو هزل ، أو لعب ، أو ممازحة.

فقد روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بأعلى صوته : ((يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفَضِّ الإِيمان إلى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ، ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّه من تتبّع عورة أخيه المسلم تتبّع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)). .

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك ، وما أعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك - هكذا في الترمذي - .

وروى ابن ماجه بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول : ((ما أطيبك ، وأطيب

ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ؛ ماله ، ودمه ؛ وأن يُظنُّ به إلا خيراً)). .

ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن ترويع المسلم : كما جاء في (سنن) أبي داود أن رجلاً جاء إلى بعض الصحابة معه حبل فأخذها منه ففزع صاحب الحبل .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((لا يحل لمسلم أن يُروِّع مسلماً)) - أي : بأن يُدخل عليه الفزع والروع هازلاً أو جاداً .

وروى الترمذي وأبو داود وأحمد عن السائب بن يزيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لآعباً ولا جاداً ، فمن أخذ عصا أخيه فليردّها عليه)) .

وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه : أن رجلاً أخذ نعل رجل فغيبها وهو يمزح ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا تروِّعوا المسلم فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم))^١ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله أن لا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة))^٢ .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من نظر إلى مسلم نظرة يُخيفه فيها بغير حق أخافه الله تعالى يوم القيامة))^٣ .

كما نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن كل ما يُدخل الحزن على المسلم .

^١ رواه الطبراني والبخاري وأبو الشيخ .

^٢ رواه الطبراني في (الأوسط) .

^٣ رواه الطبراني وابن حبان .

ففي (الصحيحين) - واللفظ لمسلم - عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يُحزنه)).

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يؤذي المؤمن ، والله تعالى يكره أذى المؤمن)).

قوله تعالى : {إنما المؤمنون أخوة} .

فقد جعل الله تعالى عقد أخوة بين المؤمنين ليتعاطفوا ، ويتراحموا ، ويتعاونوا على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، قال تعالى : {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} . الآية .

فإن المؤمنين وإن تعددوا لكنهم كالجسد الواحد المشتمل على عدة أعضاء ، كلها محتاجة إلى بعضها وسند لبعضها .

روى الشيخان¹ وغيرهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مثل المؤمن في توأدهم وتراحمهم وتعاطفهم ؛ مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)).

وجاء في رواية : ((المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى)).

وفي رواية : ((المؤمنون المسلمون كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله)).

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)).

¹ واللفظ لمسلم .

وروى أبو داود والبخاري في (الأدب المفرد) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه)).

والمعنى : أنّ كل مؤمن هو مرآة لأخيه المؤمن - فأنت يا مؤمن يرى أخوك حاله فيك ، لأنك مرآته ؛ وأنت ترى حالك فيه لأنه مرآتك ، فإنّ شهدت في أخيك خيراً فهو لك تنبيه حتى تتحقق فيه ، وإنّ شهدت غير ذلك فهو لك تحذير .

وأخوك المؤمن أنت مرآته أيضاً ، ينتبه إلى ما فيك من خير ، ويحذر غير ذلك .

وكل من الأخوين مطالب بأن يُزيل الأذى والفساد والشر عن الآخر إذا رآه فيه ويحذره منه ، ومطالب بأن يكفّ عليه ضيعته .

قال العلامة المناوي : أي : يجمع عليه معيشتة ويضمها له .

ومعنى يحوطه من ورائه : أي : يحفظه ويصونه ، ويذب عنه السوء والشر ، فيدفع عنه من يغتابه أو يلحق به ضرراً .

قال بعض العارفين : كن رداءً وقميصاً لأخيك المؤمن ، وحطه من ورائه ، واحفظه في نفسه ، وعرضه وأهله وماله ، فإنك أخوه بالنص القرآني ، فاجعله مرآة ترى فيها نفسك ، فكما تزيل عن نفسك كل أذى تكشفه لك المرأة ؛ فأزل عنه كل أذى به عن نفسه . اهـ .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إنّ أحدكم مرآة أخيه ، فإن رأى به أذى فليمطه عنه)) - أي : يزيله عنه .

وأوصى بعضهم عمر بن عبد العزيز فقال له : اجعل كبير المسلمين عندك أباً ، وضعيفهم ابناً ، وأوسطهم أخاً ، فأبّ أولئك تحب أن تسيء إليه . اهـ .

ومن حقوق الأخوة الإيمانية أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك من الخير ، وتكره لهم ما تكرهه لنفسك .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) .

ورواه الإمام أحمد بلفظ : ((لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير)) .

وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال له : ((أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً)) الحديث .

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن أسد قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : ((أتُحب الجنة ؟)) قلت : نعم .

قال : ((فأحب لأخيك ما تحب لنفسك)) .

وروي أيضاً عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أفضل الإيمان .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((أفضل الإيمان أن تُحب الله ، وتُبغض الله وتُعمل لسانك في ذكر الله)) .

قال معاذ : وماذا يا رسول الله ؟

قال : ((أن تُحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن تقول خيراً أو تصمت)) .

فمن جملة حقوق الإخوة الإيمانية محبة المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه من الخير ، ويعتبر ذلك من خصال الإيمان الواجبة على كل مؤمن أن يتحقق بها ، وليست هي من باب المندوبات والمستحبات .

ويدلك على وجوبها ولزومها وأنها من الحقوق المسؤول عنها الأحاديث الآتية :

أولاً : أن دخول الجنة موقوف عليها فقد جاء في (صحيح) مسلم كما تقدم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة

حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)) .

ثانياً : حديث أبي هريرة المتقدم آنفاً وهو قوله صلى الله عليه وسلم : ((وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً)) ، فرتب صفة الإيمان على تلك المحبة لأخيه المؤمن .

ثالثاً : ما جاء في (صحيح) مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس بالذي يحب أن يؤتى إليه)) .

قال عبد الله : الله أكبر ما أعظم هذا الدين ، وما أشرفه ، وما أكرمه ، وما أحسنه ، وما أكمله ، وما أفضله ؟ !! إنه دين الإسلام ، والسلام ، والوئام ، ودين الوفاء ، والمحبة ، والإخاء ، والنصيحة ، والنقاء ، والصفاء ، إنه دين أداء الحقوق والواجبات للخالق والمخلوقات ، والقيام بالمسؤوليات في الجامع ، والشارع ، والسوق ، والبيوتات ، وفي المجالس والمجمعات - دين العزة والكرامة والصدق والاستقامة ، وتوقير الكبير ورحمة الصغير - وكل أولئك كان عنه مسؤولاً يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، قال تعالى : **{فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون}** .

وسوف تمر على بيان قسم من الحقوق الإيمانية الواجبة على كل مؤمن ومؤمنة لكل مؤمن ومؤمنة أذكرها حسب مناسبتها للآيات الكريمة ، مع بيان الأحاديث النبوية التي هي بيان لكتاب الله تعالى قال سبحانه : **{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}** - ومنها تعلم تلك المبادئ السامية التي جاء الإسلام يدعو إليها ، فهي أسمى المبادئ التي فيها سعادة البشر ، وأكمل التعاليم التي فيها صلاح العباد ونجاحهم وفلاحهم ؛ وبذلك تعرف الفارق الكبير بين ما دعى إليه دين الإسلام وأرشد إليه من كل خير للعباد والبلاد ، وبين ما عليه كثير من المسلمين من الشحناء والبغضاء ، والحدق والحسد ، والكذب ، والنميمة والغيبة ، والغش والخداع ، والمكر والنفاق والخيانة بأنواعها ، والشح والبخل ، وعدم حفظ العهد ، وعدم حفظ الود ،

والوفاء بالوعد ، وتتبع زلات بعضهم ؛ إلى غير ذلك مما يُخالف المبادئ التي جاء بها دين الإسلام - إلا من رحم الله تعالى فوقاه وحفظه وتولاه وعناه ورعاه .

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنا إلى حبك - آمين بجاه سيد المرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين .

قوله تعالى : **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ .}** الآية .

لما كان البشر في عرضة لأن ينزع الشيطان بينهم فيختلفون ويتنازعون ، أمر الله تعالى المؤمنين باعتبار أنهم إخوة في الإيمان - أمرهم أن يُسارعوا إلى الإصلاح بين أخويهم ، فإن الخلاف والنزاع بينهم يترتب عليه أنواع من الفساد ، وهلاك العباد ، وخراب البلاد .

روى الترمذي وأبو داود وابن حبان والإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟)) قالوا : بلى .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إصلاح ذات البين ، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة)) - أي : الخصلة التي من شأنها أن تحلق - أي : تُهلك - وتستأصل الدين كما يستأصل الموس الشعر .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أفضل الصدقة إصلاح ذات البين))^١ .

وعن أنس رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لأبي أيوب : ((ألا أدلك على تجارة)) .

قال : بلى يا رسول الله .

قال : ((صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا ، وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا))^١ .

^{١١} رواه الطبراني والبخاري وحسنه المنذري .

وفي رواية^٢: ((ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله ؟)).

قال : بلى .

قال : ((صل بين الناس إذا تفسدوا ، وقرب بينهم إذا تباعدوا)).

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا)).^٣

وفي قوله تعالى : {فأصلحوا بين أخويكم} أنواع من التأكيد والحض على إصلاح ذات البين ، فأتي بالفاء في قوله تعالى : {فأصلحوا} للإعلام بأن الأخوة الدينية الإيمانية هي موجبة للإصلاح بين المؤمنين ، وأتى بالاسم الظاهر موضع الضمير مضافاً للمأمورين فقال سبحانه : {فأصلحوا بين أخويكم} ولم يقل : فأصلحوا بينهم ، وذلك لتقوية التأكيد الموجب للإصلاح، والتحضيض على المبادرة للإصلاح بين الأخوة ، وتخصيص الإثنتين بالذكر لبيان وجوب الإصلاح بين الإثنتين ، وعدم استصغار الإصلاح بين الإثنتين والتساهل فيه ، وذلك لدفع تضاعف الفتنة وانتشار الخلاف فيما بين الجموع ، ففيه بيان وجوب الإصلاح بين الإثنتين وما فوق ذلك بطريق الأولوية - وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج باعتبار الآية نزلت فيهما .

{إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلمكم ترحمون} .

بعد أن أعلم سبحانه المؤمنين بعقد الأخوة فيما بينهم ، وأمرهم بالإصلاح بينهم لئلا يتفرق جمعهم وتذهب ريحهم ، وتضعف قواهم ، فتتمكن منهم أعداؤهم ، ويغتمون فرقتهم وشنات شملهم ، فأمرهم سبحانه بالإصلاح الفوري ، ثم حذرهم سبحانه وأذر وهدد وأوعد فقال : {واتقوا الله} والمعنى : اتقوا الله في هذا العقد الذي عقده تعالى بينكم وهو أخوة الإيمان،

^١ رواه البزار والطبراني .

^٢ كما في الطبراني .

^٣ رواه الطبراني والأصبهاني ، كما في (الترغيب) و (الجامع الصغير) وغيرهما

وقد عهد إليكم بذلك وأعلمكم به ، فارعوا هذه الأخوة حقوقها ، وأدوا واجباتها كاملة ، فإن الله تعالى الذي عقد تلك الأخوة بينكم هو الذي يحاسبكم ويسألكم عنها ، وقد بيّن لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحقوق والواجبات مفصلة ؛ الذي قال الله تعالى له :

{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} الآية ، فقد بان لك تلك الحقوق ببيانه صلى الله عليه وسلم ، فاتقوا الله تعالى في ذلك - أي : اتقوا عذابه وعقابه وعتابه فيما إذا قصرتم بأداء تلك الحقوق الإيمانية ، والذي يقيكم عذابه وعقابه وعتابه هو أدائكم تلك الحقوق كاملة ؛ فإن يوم القيامة حق كما قال سبحانه : {ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً} .

فهو يوم حق يُحق الله تعالى فيه الحق ، وفيه تُؤدّى الحقوق إلى أهلها ، وتصل إليهم كاملة .

جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لتؤدُن الحقوق يوم القيامة)) الحديث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من كان عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، وإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)) - أي : وذلك مقابل المظلمة في العرض أو المال أو نحو ذلك ، ومظالم الأعراض من الشتم والسب والاحتقار ، والغيبة والنميمة والسخرية ، وترك السلام أو ترك رده ؛ وغير ذلك مما تقدم من الحقوق والواجبات ومما سيأتي . . .

روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من معرفته بمنزله كان في الدنيا)) .

وقال تعالى : {سيهديهم ويُصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم} .

اللهم اجعلنا منهم بفضلك وعافيتك يا رب .

قوله تعالى : {واتقوا الله لعلكم ترحمون} .

قال العلامة القرطبي : - عند قوله تعالى - : {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} قال رحمه الله تعالى : وهذا ومثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله سبحانه : {لعلكم تتقون} ، {لعلكم تشكرون} ، {لعلكم تذكرون} ، {لعلكم تهتدون} ، : فيه ثلاث تأويلات :

الأول : أن لعل على بابها للترجي والتوقع ، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا ، وأن تذكروا ، وأن تتقوا - هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان .

قال سيبويه في قوله عز وجل : {أذهب إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى} .

قال سيبويه : معناه : اذهب على طمعكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشى - واختار هذا القول أبو المعالي .

الثاني : أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى : لام كي فالمعنى : لتعقلوا ، ولتتذكروا ، ولتتقوا .

وأورد القرطبي شاهداً على ذلك من شعر العرب ، وقال : وهذا القول عليه قطرب والطبري .

الثالث : أن تكون بمعنى التعرض للشيء ، كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا ، أو لأن تذكروا ، أو لأن تتقوا .

والمعنى في قوله تعالى : {لعلكم تتقون} أي : لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم تعالى به - أي : وهو اعبدوا ربكم - وقايةً بينكم وبين النار . اهـ .

وبناء على ذلك فلا فرق بين دخول لعل التي هي من كلام الله تعالى على أفعاله سبحانه أو على أفعال عباده ، وأنّ الرجاء والتوقع في ذلك كله هو في حيز البشر على التأويل الأول ، وأنها للتعليل مطلقاً على التأويل الثاني، والتعرض من العباد على التأويل الثالث .

ولا يُشكل على القول بأنها للتعليل أنّ أكثر الأشاعرة لا يقولون بذلك مخافة توهم أن تعليل أفعاله سبحانه يشعر بالأغراض ، ويلزم منه حاجته سبحانه للغير ؛ وهو الغني الحميد محال عليه تعالى أن يحتاج لغيره ، فإن الحق عند المحققين أنّ أفعاله سبحانه لا تُعلل بالأغراض والغايات العائدة إليه ، وأما تعليل أفعاله سبحانه بالحكم التي فيها مصالح العباد والبلاد الدينية والكونية فإنه ثابت لا مَحِيص عنه ، قال تعالى : **{النحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيرة}** .

وقال تعالى : **{وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً}** .

وقال تعالى : **{والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً}** .
إلى ما هنالك من الآيات الكريمة فيما يتعلق بالكونيات .

وقال تعالى في أمور التشريع : **{من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل}** الآية .

وقال تعالى : **{ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون}** .

وثمة تحقيق آخر لبعض العارفين في لعلّ يتضمن ما تقدم من التأويل الأول الذي ذكره العلامة القرطبي بل يزيده تفصيلاً وتقوية الرجاء والتوقع في لعلّ ، وهذا التحقيق سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى في قوله تعالى : **{العلم ترحمون}** .

{واتقوا الله لعلمكم ترحمون} والمعنى : اتقوا الله بأداء تلك الحقوق الإيمانية كاملة ؛ لعل الله يرحمكم بذلك ، لأنكم إذا فعلتم ما أمركم به من واجبات وأداء الحقوق التي عليكم ؛ فتح لكم أبواب رجاء رحمته فتدخلونها .

وبيان ذلك : أن لعل إذا صدرت عن الله تعالى ، داخلة على فعل من أفعاله سبحانه فإنها تدل على تحقق الفعل ووقوعه لا محالة ، لأن ذلك يكون من باب الوعد الإلهي لعباده ؛ والله تعالى لا يخلف وعده ، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فقيل له : لِمَ كانت لعل من الله تعالى دالة على لزوم وقوع الفعل بعدها ؟

فقال : لأن لعل من الله تعالى فيها إطماع ، وإنّ الكريم إذا أطمع لا يمنع .
هـ .

أي : بل لا بدّ أن يُحقق ما أطمع فيه عباده ، كما إذا وعد سبحانه فإنه لا يخلف وعده ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه : {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم} .

فأول وصف وصف الله تعالى به - في هذه الآية - عباده المؤمنين والمؤمنات هو بعضهم أولياء بعض - أي : أحباب بعض ، وأنصار وأعوان ، فبينهم الولاء والمحبة ، والنصح والصدق لبعضهم . .

وتأمل وتدبر قوله تعالى : {أولئك سيرحمهم الله} فإنه وعد مرتب على أداء ما سبق من الحقوق الإيمانية ، فمنها حقوق الله تعالى ، ومنها حقوق رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ومنها حقوق المؤمنين على بعضهم ، فقوله تعالى : {أولئك سيرحمهم الله} وعد محقق الوقوع لا محالة ، فهو نظير قوله تعالى : {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلمكم ترحمون} .

ففي هذه الآية فتح باب رجاء للمؤمنين ، يرجون الله تعالى رجاء محقق الوقوع إذا هم أدوا حقوق الأخوة الإيمانية بينهم ، فإنّ الله لا بد أن

يرحمهم، ولا يُخيب رجاءهم ، كما أنّه سبحانه يصدق وعده الذي وعدهم ولا يخلفهم ، فهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما : لعل من الله تعالى فيها إطماع بما بعدها .

ومثل ذلك قوله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } أي : لعل الله تعالى يرحمكم ، والمعنى : أنكم إذا استمعتم لتلاوة القرآن وأنصتتم ، والإنصات هو السكوت مع السكون ، إذا فعلتم ذلك فإنكم على رجاء محقق الوقوع لا محالة ، وهذا إطماع من ربّ كريم رحيم ، والكريم إذا أطمع فإنه لا يمنع عطاءه لمن يطمع ، لأنه وعد بالعطاء ، والله تعالى كرمه لا يتناهى ، فإذا أطمع فإنه لا يمنع ، وإذا وعد فإنه لا يخلف وعده ، وإذا بشر فإنه لا بد من أن يُنجز ما به بشر .

قال تعالى - في أوليائه - : { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } .

وفي الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم سئل عن قوله تعالى : { لَّهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ } الآية فقال : ((هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له)) .

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

وأما إذا دخلت لعل من الله تعالى على أفعال المخلوق فهي للتعليل بمعنى كمي كما ذهب إليه كثير من محققي اللغة كابن الأنباري وقطرب وابن كيسان .

ومن حقوق الأخوة الإيمانية النصيحة فهي واجبة على كل مسلم .

روى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : (بايعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) .

وفي رواية : (بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة) .

فقال لي : ((والنصح لكل مسلم)).

فلم يرض صلى الله عليه وعلى آله وسلم من جرير رضي الله عنه وغيره المبايعة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فحسب ، بل قال له : ((والنصح لكل مسلم)) لأنها من الدين ، والإيمان لا يتم إلا بها .

روى مسلم وغيره عن تميم الداري رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((الدين النصيحة)) ثلاثاً .

قلنا : لمن يا رسول الله ؟

قال : ((الله عز وجل ، وكتابه ، ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم)).

قال العلامة الخطابي : النصيحة هي كلمة يُعبر بها عن جملة ، وهي إرادة الخير للمنصوح له ، قال : وأصل النصح في اللغة هي الخلوص ، يقال : نصحت العسل إذا خلصته من الشمع ، قال : **فمعنى النصيحة لله تعالى** صحة الاعتقاد في وحدانيته ، وإخلاص النية في عبادته ، **والنصيحة لكتابه** الإيمان به والعمل بما فيه ، **والنصيحة لرسوله** هي التصديق بنبوته ، وبذل الطاعة له فيما أمر به أو نهى عنه ، **والنصيحة لعامة المسلمين** هي إرشادهم إلى مصالحهم . اهـ .

وقال العلامة الحافظ ابن الصلاح : النصيحة : هي كلمة جامعة ، تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير ، قال : **فالنصيحة لله تعالى** توحيده ، ووصفه بصفات الكمال والجلال ، وتنزيهه عما يضادها ويخالفها ، وتجنب معاصيه ، والقيام بطاعته ومحابه بوصف الإخلاص ، والحب في الله والبغض في الله ، وجهاد مَنْ كَفَرَ به وما ضاهى ذلك ، والدعاء إلى ذلك .

والنصيحة لكتابه هي الإيمان به ، وتعظيمه ، وتنزيهه ، وتلاوته حقّ تلاوته ، والوقوف مع أوامره ونواهيه ، وتفهم علومه وأمثاله ، وتدبر آياته ، وأنْ يَذب عنه تحريف الغالين ، وطعن الملحدين .

والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم الإيمان به وبما جاء به ، وتوقيره ،
وتبجيله ، والتمسك بطاعته ، وإحياء سنته ، ونشر علومها ، ومعاداة من
عاداه ، وموالاته من والاه ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بأدابه ، ومحبة آله
وأصحابه وأتباعه ونحو ذلك .

والنصيحة لأئمة المسلمين هي معاونتهم على الحق ، وطاعتهم بالحق ،
وتذكيرهم به ، وتنبيههم في رفق ولطف ، ومجانبة الوثوب عليهم ،
والدعاء لهم بالتوفيق ، وحث الناس على ذلك ؛ بأن يدعو لهم بالتوفيق لما
فيه خير البلاد والعباد .

والنصيحة لعامة المسلمين هي قيام الناصح بدلالة المنصوح على كل خير
يعلمه خيراً له ، وتحذيره إياه من كل شر يعلمه شراً : حالاً ومالاً ، في
نفسه أو عرضه أو ماله .

ولذلك فإن جميع الرسل صلوات الله تعالى عليهم جاؤوا بالنصيحة للأمم ،
فكان كل رسول يقول لأمته إني لكم ناصح أمين ، ويقول لهم : إني لكم من
الناصحين ، وأعظمهم نصيحة وأحرصهم دلالة على كل خير إلى يوم
الدين ، والتحذير من الشر إلى يوم الدين - هذا هو سيدنا محمد صلى الله
عليه وعلى آله وسلم ، فكان ينصح ويبين ويشهد على ذلك ، ويشهد الله
تعالى على ذلك فيقول : ((اللهم هل بلغت ، اللهم اشهد)) كما ورد ذلك في
أحاديث متعددة ولذلك كان أصحابه يقولون : نشهد أنك يا رسول الله قد
بلغت ، وأدّيت ، ونصحت - صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ثم إنَّ هذه الأخوة الإيمانية التي عقدها سبحانه بقوله : { **إنما المؤمنون**
إخوة } قد زادها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تأكيداً وتوثيقاً
فنالت الأمة شرفاً كبيراً على شرفها الكبير ، وذلك أنه صلى الله عليه
وعلى آله وسلم عقدها أخوة إيمانية مع كل من آمن به صلى الله تعالى عليه
وعلى آله وسلم ، وأدخل نفسه صلى الله عليه وسلم فيها مع كل مؤمن رآه
أو لم يره من أمتة صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهذه مفخرة كبرى ،
ومنقبة عظيمة ، لهذه الأمة المحمدية صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به .

فلقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتى المقبرة ، فقال : ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا)) .

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : ((أنتم أصحابي ؟ وإخواننا الذين لم يأتوا بعد)) .

قالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟

قال : ((أرأيت لو أن رجلاً له خيل غرّ محجلة بين ظهر خيل بهم دُهم ألا يعرف خيله ؟)) .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : ((فإنهم يأتون - أي : يوم القيامة - غرّاً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض)) - أي : سابقهم أنتظرهم على الحوض ، وأتلقاهم - وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون .

جعلنا الله تعالى منهم بفضلهم ورحمته - آمين .

وهذه بشرى عظيمة لكل مؤمن ومؤمنة ، فليفرحوا بها ، فإنها من فضل الله تعالى عليهم قال تعالى : {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون} .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((وددتُ أنني لقيت إخواني)) .

فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أولسنا إخوانك ؟ .

قال : ((أنتم أصحابي ، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)) .

فقد أثبت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأخوة لكل من آمن به ولم يره ، وبشرهم بهذه البشرى العظيمة ، وأنه هو الذي ينتظرهم على الحوض ويتلقاهم ، كما بشر الذين رأوه وآمنوا به بأنهم أصحابه فقال لهم :

((أنتم أصحابي)) والمعنى : إنكم آمنتم بي وقد رأيتموني ؛ فأنتم إخواني وأصحابي ، فإن لكم فضل الصحبة على غيركم ، وإن فضل الصحبة لا ينال إلا بالصحبة ، فلما صاحبوا أفضل خلق الله تعالى صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاروا أفضل أمته - وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء .

قال تعالى - في سورة الفتح - : {إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً} .

قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن} الآية .

لما ذكر سبحانه - فيما تقدم - عقد الأخوة بين المؤمنين ونبههم إلى أن الأخوة لها حقوقها الإيمانية ، وأن يتقوا الله تعالى في تلك الحقوق ، وتلك قد فصلها وبينها لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاحب البيان عن الله تعالى ، فبعد ذلك نبه الله تعالى المؤمنين مخاطباً لهم بصفة الإيمان ، الناهية لهم عن كل ما فيه إخلال وإفساد ، أو سوء أدب أو إيذاء للمؤمن ؛ أو تحقير له ، أو استصغار ، أو تعيب ، فجميع ذلك هي أمور فيها إخلال ومناقاة للأخوة الإيمانية ، ومالها من حقوق حقها الله تعالى على المؤمنين ، وسوف يسألهم عنها فقال : {يا أيها الذين آمنوا} - على النداء مع أيّ وها التنبيه تأكيداً لانتباههم ، وإبعادهم عن الوقوع في المناهي الآتية بعد النداء بيا التي تشعر بالتنبيه ، وإنّ تلك المناهي تتنافى مع دعواهم الإيمان ، بل إنّ الإيمان الذي اتصفوا به يُطالبهم بالانتهاء عن تلك المناهي ، وأنّ من لم يتب منها فأولئك هم الظالمون ، لأن فيها بخساً لحقوقهم ، فهي عن السخرية وهي الهزاء والاحتقار للغير قولاً أو فعلاً ، بحضرة ذلك الغير . . وعن السخرية ببعضهم بعضاً .

وقد تكون السخرية بالنظر إلى المسخور منه بعين النقص ، أو التنبيه على ما فيه من العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه أو يضحك الحاضرين منه ، وقد تكون بالحاكاة بالفعل ، أو بالقول ، أو الإشارة ، أو الإيماء ، أو

الضحك على كلام المسخور منه إذا غَلِطَ ، أو الضحك على صفته ؛ أو دمامة صورته .

وقيل : إنّ هذه الآية نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في أوائل السورة عند قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} .

وذلك بأنهم استهزؤوا بفقراء الصحابة مثل : عمّار ، وخبّاب بن الأرت ، وبلال ، وصهيب ، وسلمان الفارسي ، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم من الضعفاء رضي الله عنهم أجمعين ، استهزؤوا بهم لما رأوا من رثاثة حالهم فنزلت الآية ، وهذا قول الضحاك وغيره ، وهو قول مجاهد ، حيث قال في قوله تعالى : {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} قال : هو سخريّة الغنيّ من الفقير .

وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممّن كشفه الله تعالى ، ففعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له من الآخرة ، وليخف على نفسه أن يكشف عنه الستر .

وقال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة في عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه حين قدم المدينة مسلماً فكان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا : هذا ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

فتعبير المؤمن بأبيه الكافر ، والسخرية منه لا يجوز ذلك ، فإن المؤمن كريم عند الله تعالى .

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى : - بعدما نقل هذه الأقوال - قال : وبالجملة فينبغي أن لا يجترىء أحد على الاستهزاء يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة في بدنه ، أو غير لبق في محادثته ، فلعله أخلص ضميراً أو أتقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى ، والاستهزاء بمن عظمه الله تعالى . -

قال : ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم - أي : بُعدهم من أنواع الاستهزاء بغيرهم أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلاً يرضع

عزراً فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع . اهـ . أي : لأن من عيّر غيره فقد عرض لنفسه أن يُعيّر .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (البلاء مُوكل بالقول ، لو سخرتُ من كلب لخشيتُ أن أحول كلباً) اهـ .

قال عبد الله : فإياك يا أخي العاقل أن تسخر بغيرك ، بأن تنظر إليه بعين الصغار والحقارة أو الهوان ، أو تتكلم فيه بما يُزري أو نحو ذلك من أنواع السخرية ؛ لفقره أو رثائه حاله وثيابه ، أو تستبعد ولاية الله تعالى عن أناس هم في نظرك ليسوا على شيء ، ولكنهم عند الله تعالى خير منك ومن أمثالك ، ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم)) ، وفي رواية : ((إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) الحديث^١ .

فقد يكون الرجل ممّن له صورة حسنة ، أو مال كثير ، أو وجهة دنيوية فيعجبك قال تعالى في المنافقين : {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكِ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَأْتِهِمْ خَشَبٌ مُّسْتَدَدٌ} الآية ، ولكنّ قلبه خراب من الإيمان والتقوى ، وكم من أناس ليس لهم شيء من ذلك ولكنّ قلوبهم مملوءة بتقوى الله تعالى ؛ فهم خير عند الله تعالى من أولئك .

ألم يبلغك قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا يدخل الجنة الجوّاظ ولا الجعظريّ))^٢ .

وعن سراقه بن مالك بن جعشم رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يا سراقه ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار ؟))

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : ((أما أهل النار فكل جعظري جواظ مستكبر ، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون))^١ .

^١ كما في مسلم وغيره .

^٢ رواه أبو داود وغيره عن حارثة بن وهب يرفعه .

واعلم يا أخي المؤمن ويا أختي المؤمنة أنّ السبب الذي يدفع إلى احتقار الغير والسخرية به هو الكبر النفساني ، والتعظيم الأناني ، كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) .

فقال رجل : يا رسول الله إنّ الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ؟

قال : ((إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس))^١ .

ومن المعلوم أنّ الكبر أمره كبير عند الله تعالى ، وشأنه خطير على الإيمان ، وهو أكبر مانع من دخول الجنان ، ورضى الرحمن ، وقد يصدُّ صاحبه عن الإيمان .

فأما الدليل على أنّ الكبر أمره كبير عند الله تعالى ويُغضب الله تعالى غضباً شديداً .

فقد روى مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يقول الله عز وجل : العزُّ إزاره ، والكبر رداؤه ، فمن ينازعني عذبتة)) أي : قال الله تعالى : فمن ينازعني عذبتة^٢ .

^١ قال المنذري : رواه الطبراني في (الكبير والأوسط) ، بإسناد حسن ، ورواه الحاكم على شرط مسلم اهـ ، والجواز هو الغليظ الفظ ، والجعظري : هو الذي ينتفخ بما ليس عنده .

^٢ رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال المنذري : بطر الحق بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة جميعاً هو دفعه ورده ، أي : عدم قبول الحق إباءً وترفعاً ، قال : وغمط الناس : بفتح الغين المعجمة وسكون الميم وبالطاء المهملة : هو احتقار الناس وازدراؤهم ، قال : وكذلك غمصهم - بالصاد المهملة - . وقد رواه الحاكم فقال : ((ولكن الكبر من بطر الحق وازدري الناس)) . اهـ .

^٣ كما بين ذلك الإمام النووي ، وإنّ هناك فعلاً مقدراً هكذا أورده مسلم ، وقد جاء في (مستخرج) البرقاني ما يدل على ذلك .

قال الحافظ المنذري - بعدما أورد هذا الحديث بهذا اللفظ - : ورواه البرقاني في (مستخرجه) من الطريق الذي أخرجه مسلم ولفظه : ((يقول الله عز وجل : العزُّ إزارِي والكبرياءُ ردائي ، فمن نازعني شيئاً منهما عذبتُهُ)) ، قال المنذري : ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في (صحيحه) من حديث أبي هريرة وحده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله تبارك وتعالى : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزارِي ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار)) .

ثم أورد الحافظ المنذري رواية لابن ماجه أيضاً ، وقال : ((فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار)) .

هذا كله في يوم القيامة ، وأما في الدنيا فجزاؤه القصم .

فقد روى الحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((قال الله تعالى : الكبرياءُ ردائي فمن نازعني ردائي قصمته))^١ .

ومن المعلوم أنَّ القصم هو أشد أنواع الكسر على وجه لا يلتئم بعد - نعوذ بالله العظيم من الكبر ومن المتكبرين .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((من تعظم في نفسه ؛ أو اختال في مشيته ؛ لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان))^٢ .

وأما الدليل على أن الكبر يمنع صاحبه عن دخول الجنة :

فتقدم حديث مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) الحديث - كما تقدم .

^١ كما في (الجامع الصغير) .

^٢ قال المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) واللفظ له ، ورواه محتج بهم في الصحيح ، والحاكم بنحوه وقال : صحيح على شرط مسلم اهـ والاختيال في المشي هو الكبر والعجب بالنفس .

والمؤمنون الكمل لا يتكبرون ويخافون على أنفسهم أن يكون فيهم كبرٌ وهم لا يشعرون وإليك ما يلي :

جاء عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : التقى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما - على المروة - فتحدثا ثم مضى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وبقي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يبكي .

فقال له رجل : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن .

فقال هذا - يعني عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما - سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كَبَّه الله تعالى لوجهه في النار))¹ .

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب فقيل له : ما يحملك على هذا ، وقد أغناك الله تعالى عن هذا ؟ !! .

فقال : أردت أن أدفع الكبر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه خردلة من كبر))² الحديث .

فانظر يا أخي رعاك الله تعالى واعتبر في خوف الصحابة من الكبر ، في حين أنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، العباد الزُّهاد، الذين مدحهم الله تعالى .

وقد اشتهر عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وبقية العبادلة من بعد السادة الخلفاء الأربعة وعُرفوا بكثرة العبادة والورع والزهد والتواضع ، ومع ذلك فإنهم يخافون على أنفسهم من الكبر ، وهكذا جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما جاء في تراجمهم ، ولا شك فإنهم خير هذه

¹ قال المنذري : رواه أحمد ورواته رواية الصحيح ، وقال : وفي أخرى له أيضاً رواتهما رواية الصحيح ، سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر)) .

² قال المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن ، ورواه الأصبهاني إلا أنه قال : ((مثقال ذرة من كبر)) .

الأمة اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولحمل دينه ،
وتبليغ شريعته فإنهم القدوة الحسنة ، لأنهم تربوا بعنايته صلى الله عليه
وسلم ، واستناروا بأنواره ، وأمدهم بأنظاره صلى الله عليه وسلم ،
ورعاهم برعايته ، وأدبهم فأحسن تأديبهم ، فهم مَثَلٌ كامل فاضل في
أخلاقهم ، وآدابهم وسيرهم وسيرتهم .

وأما الدليل على أن الكبر قد يصد صاحبه عن الإيمان :

فقد ذكر سبحانه مخبراً عن الكفار بأنهم عرفوا الحق ولكن رَدُّوه ولم يقبلوا
به كبراً وعناداً قال تعالى : { **إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان
أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه** } الآية .

فقد جادل الكفار في آيات الله تعالى بعدما اتضحت لهم ، وعقلوها وعرفوا
حقيقتها ، لأنها ثابتة بالأدلة القاطعة ، وراحوا يجادلون في الحق بعدما تبين
لهم بغير سلطان - أي : حجة ولا دليل على دعواهم - ولكن كبرهم حملهم
على أن يجادلوا ويجحدوا بعدما علموا الحق .

وقال تعالى - في قوم عاد - : { **وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق
وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة
وكانوا بأياتنا يجحدون** } .

أي : ينكرونها بعدما عرفوا حقيقتها .

وقد ذكر سبحانه السبب المانع لإبليس عن السجود لآدم حين أمره الله
تعالى بذلك مع الملائكة ، وذلك أنه أبى واستكبر وكان من الكافرين -
الجاحدين للحق بعدما تبين له ، والجاحدين لنعم الله وفضله - فحملة كبر
نفسه على أن يأبى ويمتنع عن السجود ، معرضاً عن الامتثال لأمر الله
تعالى ، كما حملة كبر نفسه على احتقاره لآدم عليه السلام الذي أكرمه الله
تعالى وفضله .

قال تعالى : { **قال يا إبليس ما لك أن لا تكون مع الساجدين** } ؟ - أي :
الذين هم ملائكة الله تعالى الكرام جميعهم ، فإنهم أفضل منك ، وأشرف
وأكرم على الله تعالى فكان جوابه : { **قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من**

صلصال من حمأ مسنون} مستهيناً بآدم ومستصغراً له ، كما قال تعالى
مخبراً عن إبليس أيضاً : {قال : ءأسجد لمن خلقت طيناً} .

وقال تعالى أيضاً مخبراً عن إبليس {قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لأن
أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً} .

وقال تعالى مخبراً عن اللعين : {قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته
من طين قال فاخرج منها فاتك رجم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين} .

فكبر إبليس ، وإعجابه بنفسه حمله على احتقار آدم عليه السلام ، وصدده
ذلك عن امتثال أمر الله تعالى بالسجود - وعند الامتحان يكرم المرء أو
يهان .

اللهم إنا نعوذ بك من الكبر والعجب ، وداء الغرور ، وحب الظهور رياء
وسمعة ، فأعدنا يا عياذ العائدين ، واحفظنا بحفظك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا
طرفة عين ولا تنزع منا صالح ما أعطيتنا يا أرحم الراحمين .

وهكذا فإنك ترى في عصرنا كثيراً من الناس لا يقبلون الحق ، ولو أنهم
عرفوا فإنهم لم يعترفوا به ، ولا يتبعونه تكبراً وإعجاباً بآرائهم ، وتعالياً
بعقولهم ، ودعواهم الثقافة ، واتباعاً لأهوائهم وشهواتهم ، فهم يعرفون
ولكن لا يعترفون بالحق الذي جاء الدين الحنيف به .

قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا
خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن} .

القوم : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، بل من معناه ، فواحد امرؤ
ويجمع على أقوام .

قال في (روح المعاني) : والمشهور اختصاصه بالرجال لقوله تعالى : {لا
يسخر قوم من قوم} مع قوله تعالى : {ولا نساء من نساء} .

وقال زهير :

فما أدري ولست إخال أدري

أقوم آل حصن أم نساء

وقيل : لا اختصاص لقوم بالرجال بل يطلق على الرجال والنساء أيضاً لقوله تعالى : {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} أي : وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثير . -

قال : والأول أصوب ، وأما اندراج النساء - أي : في كلمة قوم - فهو على سبيل الإتيان والتغليب .

قال : وسمي الرجال قوماً لأنهم يقومون بما لا تقوم به النساء اهـ - أي : لقيامهم بمهام الأمور .

وذهب بعض علماء اللغة إلى أنّ كلمة قوم تشمل الرجال والنساء كما دل عليه قوله تعالى : {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} وأمثال ذلك . . ولكن إذا قوبل ذكر القوم بالنساء دلّ على أن المراد بالقوم الرجال كما في آية : {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} وجاء بعده {وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ} الآية .

فقد نهى سبحانه المؤمنين والمؤمنات عن السخرية بالغير ، سواء كان سبب السخرية يتعلق بالمال أو الجاه ، أو بذاتة الثياب ، أو دمامة الصورة ، أو نقص في المدارك ، أو يتعلق بأمر الدين ، بأن كان المسخور منه مقصراً في الطاعة والعبادة ونحو ذلك ، مما فيه الترفع على الغير والازدراء به ، فلا يسخر غني المال من فقير المال ، ولا ينظر إليه بعين الصغار ، فإنّ الكرامة عند الله تعالى هي بالتقوى لا بالمال .

روى الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : ((كم من أشعث أغبر ذي طمرين¹ لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك)) رضي الله تعالى عنه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (رأيت عمر رضي الله عنه وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقع ثلاث لبد بعضها على بعض) .

قال المنذري : رواه مالك .

¹ أي : ثوبين مرقعين باليين .

وقد رُوِيَ أَنَّ عَمْرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طَافَ مَرَّةً وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَفِي ثَوْبِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ رَقْعَةً .

وروى الطبراني والبيهقي عن عمر رضي الله عنه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهابٌ كَبَشٌ قد تَنَطَّقَ بِهِ^١ .

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((انظروا إلى هذا الذي نور الله تعالى قلبه ، لقد رأيتَه بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيت عليه حلَّةً شراها - أو شريت له - بمائتي درهم ، فدعاه حب الله وحب رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إلى ما ترون)) .

والمعنى : أنه كان مترفاً في طعامه وشرابه ولباسه فدخل في الإسلام محباً لله ورسوله ، وزهد بما كان عليه ، وأبعد نفسه عن الترف والترفع بالثياب الفاخرة الثمينة ، وقد نَوَّرَ اللهُ تعالى قلبه فعمر بالإيمان ، ومن هنا تعلم أنَّ العبرة لعمارة القلوب بالإيمان والتقوى لا بالمظاهر ومحاسن الصور مع خراب القلوب وظلمتها .

روى الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما من أحد يلبس ثوباً ليباهى به وينظر الناس إليه - لم ينظر الله تعالى إليه حتى ينزعه)) .

وروى ابن أبي الدنيا عن سيدة نساء أهل الجنة السيدة الكبرى فاطمة عليها السلام بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((شرار أمتي الذين غدوا بالنعم، الذين يأكلون ألوان الطعام والشراب ، ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام))^٢ .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء - أي ثوب سابغ - إما إزار وإما كساء،

^١ أي : جعله منطقه حزاماً يشد به وسطه .

^٢ كما في (ترهيب) المنذري ، وقد روى الطبراني في الأوسط والكبير نحوه .

قد ربطوه في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهة أن تُرى عورته .

فإياك يا أخي العاقل أن تحتقر مُسلماً فقيراً مَهين الثياب ، رثَّ الكساء ، أو تسخر منه ، أو تنترفع عليه بنفسك ، أو تعطيه شيئاً من المال وترى أن لك فضلاً عليه أو منةً ، أو تُسمعه كلمة فيها إيذاء له ، ألم تسمع قول الله تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى}** الآية .

وعن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((هل تُتصرون وترزقون إلا بضعفائكم))^١ .

وعن أبي هريرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((أبغوني ضعفاءكم ، فإنما تتصرون وتُرزقون بضعفائكم))^٢ .

ومعنى أبغوني : أطلبوا لي .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُجالس ضعفاء المسلمين وفقراءهم ، ويواسيهم ويؤانسهم ، ويبشرهم بما يسرهم .

روى البيهقي في (الشعب) وأبو نعيم في (الحلية) وغيرهما عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيّبت - أي : تباعدت - عن هؤلاء وأرواح جبابهم^٣ - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف - جالسناك - أي : إذا فعلت ذلك جالسناك أو حَدَّثناك وأخذنا عنك .

فأنزل الله تعالى : **{واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدًا واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا**

^١ رواه البخاري .

^٢ رواه أصحاب السنن .

^٣ أي : روائح جبابهم الصوف وقد أصابها العرق .

تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً { إلى قوله تعالى : {إنا أعتدنا للظالمين ناراً} الآية .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جلست في عصابة من فقراء المهاجرين وإنّ بعضهم ليستتر من بعض من العُري ، وقارىء يقرأ علينا إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فسكت القارىء ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((ما كنتم تصنعون ؟)) .

قلنا : كان قارىء يقرأ علينا ، نستمع إلى كتاب ربنا .

فقال : ((الحمد لله الذي جعل في أمّتي من أمرتُ أن أصبر نفسي معهم))
وجلس صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل نفسه بنا ، ثم قال بيده هكذا - فتحلّقوا وبرزتْ وجوههم قال فما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف أحداً منهم غيري - أي : معرفة خاصة - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ((أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم - خمسمائة سنة))^١ .

فكان صلى الله عليه وسلم يُكرم ضعفاء المسلمين وفقراءهم ، وما كان يحتقرهم ولا ينظر إليهم نظرة صغار وهوان : كلاً ، بل كان يجعلهم موضع نظره من أهل المجلس ، عملاً بقوله تعالى : {ولا تعدّ عيناك عنهم} - أي : لا تصرف النظر عنهم إلى أبناء الدنيا .

فكان صلى الله عليه وسلم يُحب المساكين ويجلس معهم ، ويوصي بذلك .

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : أمرني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بسبع : ((بحب المساكين ، وأن أدنو منهم ، وأن لا أنظر إلى من هو فوقي - أي : في الدنيا - وأن أصلَ رحمي وإن جفاني ، وأن أكثر من : لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنز تحت العرش ، وأن أقول الحق وإن كان مرّاً ، ولا أخاف في الله لومة لائم ، وأن لا أسأل الناس شيئاً))^٢ .

^١ رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما .

^٢ رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة وغيرهما .

فالسخرية بالفقراء والمساكين ، أو رث الثياب ، أو دميمة الصورة ، أو نحو ذلك هي حرام تُعتبر من الكبائر ، ولا بدّ من عفو المسخور منه .

كما أن السخرية بالغير لنقص في عبادته ، أو قلة طاعاته ، أو لكثرة زلاته وخطيئاته فإنّ السخرية أيضاً هنا لا تجوز بل هي حرام مطلقاً ، - فإنّ المسخور منه عسى أن يكون خيراً من الساخر ، وذلك بأن يكون الساخر معجباً بنفسه ، ومغترّاً بطاعاته ، في حين أنّ المسخور منه المذنب هو مقرٌّ ومعترف بذنبه ، خائف من عذاب ربّه ، كلما تذكر ذنبه انكسر قلبه ، وندم على فعله ، له ساعة يُناجي فيها ربه ويسأله التوبة والإنابة ، قال تعالى : { وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنّ الله غفور رحيم } .

فلقد أطمعهم سبحانه بالتوبة عليهم لما اعترفوا بذنوبهم ، فإذا تاب عليهم تابوا إليه ، قال تعالى : { ثم تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التواب الرحيم } .

فما يدريك أيها العابد المغترُّ بعبادتك ، الساخر بغيرك لنقص عبادته ، ما يدريك أنّه سوف يأتي عليه يوم يتوب إلى الله تعالى ، ويسارع إلى عبادته ومغفرته وجنته ، وأنه سوف يأتي عليك يوم يُعاقبك الله تعالى على غرورك بعبادتك ، وعجبك بنفسك ، وترفُّعك على غيرك وسخريتك به ، فإذا بك قد هويت من الذروة العليا إلى الحضيض السفلي .

وقد قال بعض المفسرين - في قوله تعالى - : { عسى أن يكونوا خيراً منهم } قال : معناها عسى أن يصيروا خيراً منهم ، فإنّ كان قد تأتي بمعنى صار ، كما في قوله تعالى : { إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة } ، إلى قوله تعالى : { وكنتم أزواجاً ثلاثة } الآيات - والمعنى : صرتم يوم وقعت الواقعة وهي القيامة ؛ صرتم أصنافاً ثلاثة .

فربما تاب المذنب ، ووقعت أنت في ذنب أعظم .

لا تهن الفقير علك أن

تركع يوماً والدهر قد رفعه

فإذا رأيت المبتلى بالتقصير في عبادته ، والمسلم الواقع في معصيته فاحمد الله تعالى الذي حفظك ، وعافاك ، وارحمه بالدعاء له أن يُوفِّقه الله تعالى للتوبة والإنابة ، ولا تسخر منه ولا تتكبر عليه ولا تعيره ؛ بل انصحه برفق ولين ولا تفضحه .

روى الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمِتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ)) .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا تظهر الشماتة لأخيك ؛ فيرحمه الله ويبتليك))¹ .

وعن الإمام مالك : أنه بلغه أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسوا قلوبكم ، وإنَّ القلب القاسي بعيد من الله ، ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية)) .

قال عبد الله : و صدر هذا البلاغ عن عيسى عليه السلام جاء في حديث رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى ، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب ، وإنَّ أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي)) .

اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن دعاء لا يُسمع ومن نفس لا تشبع .

وكيف يسوغ لك أيها المسلم أن تسخر أو تُعَيِّرَ على أخيك المسلم إذا وقع في ذنب ، أو صدر منه ما هو عَيِّب في حين أنَّك لا تخلو عن ذنوب وعيوب ، إما ظاهرة أو خفية ، وإما ذنوب عملية أو قولية ، أو قلبية أو نفسية ؛ كالكبر والعجب ، وحب الظهور ، وحب التعالي على الغير ، ونظرك لغيرك نظرة شزر فيها تصغير وتحقير ، فقد يكون الذنب الذي فيك أكبر عند الله تعالى وأعظم مما رأيت في أخيك .

¹ رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

يا أخي : أما بلغك حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ، وينسى الجذع أو الجذل في عينيه))^١ .

قال في النهاية : يبصر أحدكم القذى في أخيه ، ولا يبصر الجذل في عينه الجذل بالكسر والفتح أصل الشجرة يُقطع - .

فاشتغل يا أخي بإصلاح عيوبك ، وبالتوبة من ذنوبك ، ولا تشتغل في زلات الناس وعيوبهم وذنوبهم ، فإن أمرهم إلى الله تعالى وليس إليك ، ولست وكيلاً عليهم ، واعلم أنّ من أراد الله تعالى أن يصرفه عنه شغله في تتبع زلات عباده ، والسخرية بهم ، فيسخر من عباد الله تعالى سخر الله منهم ولهم عذاب أليم .

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنّة ، ولم يعد عنها إلى البدعة))^٢ .

قال العلامة المناوي : فعلى العاقل أن يتدبر في عيوب نفسه ، فإن وجد بها عيباً اشتغل بعيب نفسه ، فيستحيي من أن يترك نفسه ويذم غيره .

ثم قال : وإذا لم يجد بنفسه عيباً فليعلم أنّ ظنه بنفسه أنه عريٌّ من كل عيب هو جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . اهـ .

واعلم يا أخي المؤمن ويا أختي المؤمنة : أنّ السخرية بالمؤمنين ، والضحك عليهم والاحتقار لهم ؛ هذا من الصفات الذميمة ، التي وصف الله

^١ قال في (كشف الخفاء) ، رواه البيهقي في (الشعب) والعسكري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

^٢ البدعة هو الأمر الذي لا أصل له في الكتاب والسنة ، ولا دليل عليه في الشرع يشابهه ، وهذا الحديث عزاه في (الجامع الصغير) إلى (الفردوس) وأشار إلى حسنه ، لأنه تعددت طرقه ، كما قال العلامة المناوي : رواه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والبزار من حديث أنس رضي الله عنه أولاً وآخره ، والبيهقي والطبراني وسط الحديث فقال الحافظ العراقي : وكلها ضعيفة اهـ أي : ولكن تعدد طرقه يجعله حسناً لغيره كما هو المقرر .

تعالى بها الكفار والمنافقين ، ولم يذكرها من صفات المؤمنين ، فاحذر أن
تَنصِفَ بما هو من صفات الكفار والمنافقين ، فإنّ الصفة الذميمة إذا
تمكنت في صاحبها أخذت حكمها ؛ وأفسدت عليه دينه .

قال الله تعالى - في المنافقين - : {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين
في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم
ولهم عذاب أليم} الآيات من سورة براءة .

وقال تعالى - مخبراً عن قوم نوح عليه السلام - : {وكلماً مرّ عليه ملاً من
قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون}
الآيات من سورة هود .

وقال تعالى - يصف الكفار في المطففين - : {إنّ الذين أجرموا كانوا من
الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم
انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} .

قال تعالى - رداً عليهم - : {وما أرسلوا عليهم حافظين فالיום الذين آمنوا
من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا
يفعلون} .

هذه صفات ذكرها الله تعالى عن الكفار ، يُحذّر المؤمنين أن يتصفوا بها ،
وذلك من شأن المجرمين الكفار أن يضحكوا من المؤمنين ، وإذا مروا بهم
في طريق يتغامزون - أي : يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم
استهزاء بالمؤمنين {وإذا انقلبوا إلى أهلهم} أي : رجع المجرمون إلى
أهلهم بعد أن كانوا في مجالسهم يتحدثون فيها عن المؤمنين ويضحكون
منهم ، فإذا رجعوا إلى منازلهم {انقلبوا فكهين} - أي : متفكهن وملتذبن
باستهزائهم بالمؤمنين ، واستخفافهم بهم ، واحتقارهم إيّاهم ، {وإذا رأوهم} -
أي : رأى المجرمون المؤمنين أينما كانوا {قالوا : إن هؤلاء لضالون} - أي :
قال المجرمون إن هؤلاء المؤمنين لضالون أي : ما عندهم عقول نيّرة ،
وليسوا بذوي فهم ولا دراية ولا ثقافة ، بل هم في نظر المجرمين أهل
خرافات وسخافات ، صدّقوا وآمنوا بدون تفكير ولا تعقل ، كما جاء ذلك
صريحاً عن قوم نوح عليه السلام : {فقال الملاً الذين كفروا من قوم ما

نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} .

فراح الذين كفروا من قومه يتهمون الذين آمنوا به أنهم الأردلون ، واتهموهم بسخافة الفكر ، وضعف العقل ، وأنهم آمنوا بما جاء به نوح عليه السلام بادي الرأي أي : بدون تفكر ولا إحكام الروية ، وبدون تعقل ، وزعم الذين كفروا به أنهم هم العقلاء وأصحاب الفكر ، وإصابة الروية - إلى ما هنالك من المزاعم الباطلة .

وهذا دأب الكفار والملاحدة ، ينظرون إلى أنفسهم نظر المعجب بعقله وبفكره وبثقافته وذكائه ، وبما عندهم من علوم الدنيا كما قال تعالى : {فَلَمَّا جَاءتَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} - أي : بأمر الدنيا ، واستهزؤوا بالعلوم التي جاءت بها الرسل {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} ، ولو أنهم تجردوا عن أهوائهم المنحرفة ، وعن دواعي نفوسهم الحيوانية البهيمية ؛ وأعملوا عقولهم ، وأمنعوا تفكيرهم ؛ ونظروا فيما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم ؛ لأيقنوا أنها هي الحق الذي لا محيص عنه ، وأن الأوامر الإلهية التي جاءت بها الرسل فيها كل خير وسعادة للبشرية ، وأن المناهي التي نهى الله تعالى عنها هي في الحقيقة مفسدة للعباد ، ومضرة وشقاء للبشرية حالاً ومآلاً .

وَمِنْ ثَمَّ قُلُو أَنَّا قُلْت لِهِمْ : إِنَّ الشَّرِيعَةَ تُبِيح لِهِمْ مَا يَهُوون من الخمر والزنا والربا وما هنالك من دواعي الحيوانية - إذا قلت لهم إنَّ الشَّرِيعَةَ تُبِيح ذلك فإذا هم يقولون هذه الشَّرِيعَةُ معقولة ومقبولة ، وإذا صادمت تلك الأوامر ما هم عليه من الفساد والغي قالوا : هذه الشَّرِيعَةُ فيها سخافات وخرافات ، فلا تقبلها نفوسهم - إذا قضيتهم ليست قائمة على التعقل الصحيح المجرد ، والتفكر الثاقب النير المطلق ، وإنما قضيتهم اتباع أهواء نفسية ، وشهوات بهيمية ، كما قال الله تعالى : {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ} والمعنى : أنهم لم يتركوا الاستجابة لدعوتك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنَّ ما جنَّتهم به غير معقول ، بل هو معقول محكم ، وحق مبرم ، لقد علموا ذلك وعرفوه حقاً ، ولكنَّ القوم يريدون أن توافقهم على

أهوائهم المنحرفة ، وآرائهم الفاسدة ، قال تعالى : {وكذبوا¹ واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر فتولّ عنهم} الآيات .

وهكذا بيّن الله تعالى أنّ من شأن الكفار أن يسخروا ويستخفوا بالمؤمنين قال تعالى - مخبراً عن الكفار يوم القيامة وهم في النار - : {قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنّهم هم الفائزون} .

فاحذر أيها العاقل أنّ تشارك الكفار في السخرية بعباد الله تعالى المؤمنين؛ فتهلك مع الهالكين .

فلا يغتر الإنسان بعلوم الكفرة ، ولا يغتر بما فُتح عليهم من علوم الدنيا، فإن ذلك أمرٌ قد أخبر الله تعالى عنه ، قال تعالى : {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون} .

وقال تعالى : {فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} .

فأموالهم وأولادهم هي وبال عليهم .

وقال تعالى : {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} .

قوله تعالى : {ولا تلمّزوا أنفسكم} .

اللمّز هو : ذكر معائب الغير والطعن فيه .

¹ أي : كذبوا بالحق بعدما بان لهم واتضح جلياً .

فنهى الله تعالى المؤمنين أن يعيبوا بعضهم ، فقال : {ولا تلمزوا أنفسكم} أي : لا يعيب بعضكم بعضاً ، فجاء النهي الإلهي بصيغة : {ولا تلمزوا أنفسكم} تنبيهاً على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فينبغي أن لا يعيب غيره ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، كما قال تعالى : {ولا تقتلوا أنفسكم} ، وكما قال تعالى {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} أي : يُسلم بعضكم على بعض .

وفي الحديث كما تقدم يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحوى والسهر)) .

فمعنى الآية الأول وهو قوله سبحانه : {لا يسخر} نهى سبحانه عن السخرية بالغير ، وهي : احتقار الإنسان لغيره على وجه مضحك بحضرتة ، وفي هذه الآية نهى سبحانه عن اللمز وهو العيب للغير - أي : ذكر معايبه فيما يزعمه اللماز ، سواء كان على وجه مُضحك أم لا ، وسواء كان ذلك بحضرتة أم لا .

واللمز والهمز متقاربان في المعنى ، فإذا اجتمعا خُص كل منهما بمعنى كما قال سبحانه : {ويل لكل همزة لمزة} .

قال الطبراني وغيره : اللمز باليد ، والعين ، واللسان ، والإشارة بالعين ، والهمز لا يكون إلا باللسان اهـ .

وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر كما في قوله تعالى : {هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ} .

فلا يجوز للمسلم أن يعيب غيره ، أو يطعن فيه ؛ فإن ذلك من الكبائر المحرمة .

روى الحاكم والحكيم الترمذي عن جُبَيْر بن نَفِير رضي الله عنه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً بالناس صلاة الصبح فلما فرغ أقبل بوجهه على الناس رافعاً صوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يقول : ((يا معشر الذين أسلموا بألسنتهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم ؛ لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من

تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه وهو في بيته)) .

فقال قائل يا رسول الله : وهل على المسلمين من ستر ؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ستور الله على المؤمن أكثر من أن تُحصى ، إنَّ المؤمن ليعمل الذنوب فتهتك عنه ستوره سترأً فسترأً حتى لا يبقى عليه منها شيء ، فيقول الله تعالى للملائكة : استروا على عبي من الناس ، فإن الناس يُعيرون ولا يُغيرون ، فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس ، فإن تاب قَبِلَ الله منه ، وردَّ عليه ستوره ، ومع كل ستر تسعة أستار ، فإن تتابع في الذنوب قالت الملائكة : ربَّنَا إِنَّه قد غلبنا وأعذرنا ، فيقول الله تعالى للملائكة : استروا عبي من الناس ، فإن الناس يُعيرون ولا يُغيرون - أي : لا ينصحونه حتى يغير ما هو عليه - فتحف به الملائكة يسترونه من الناس ، فإن تاب قَبِلَ الله منه وَرَدَّ عليه ستوره ومع كل ستر تسعة أستار ، فإن تتابع في الذنوب قالت الملائكة : يا ربنا إِنَّه قد غلبنا وأعذرنا فيقول الله تعالى : استروا عبي من الناس فإنَّ الناس يعيرون ولا يُغيرون ، فتحف به الملائكة يسترونه بأجنحتها فإن تاب قَبِلَ الله تعالى منه ، وإن عاد قالت الملائكة : يا ربنا إِنَّه قد غلبنا وأعذرنا فيقول الله تعالى للملائكة : تخلّوا عنه - فلو عمل ذنباً في بيت مظلم في ليلة مظلمة في حجر أبدى الله عنه وعن عورته)) - أي : كشف عنه الستر وفضحه - والعياذ بالله تعالى .

اللهم استرنا بسترِكَ الجميل الذي سترت به أحبائك ومقربيك .

ويرحم الله تعالى القائل :

لا تكشفنَّ مساوى الناس ما سُتروا

فيهتك الله سترأً عن مساويك

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا

ولا تعب أحداً منهم بما فيك

قوله تعالى : {ولا تتأبزووا بالألقاب بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان} .

النَّبْزُ - بالتحريك - اللقب ، والجمع : الأنباز .

والنَّبْزُ - بالتسكين - : المصدر ، تقول : نبزه ينبزه أي : يلقبه ، وفلان ينبز الصبيان أي : يلقبهم ، وشُدِّد للكثرة .

ويقال : النبز والنبز : لقب السوء¹ .

والألقاب جمع : لقب ، وهو في الأصل ما أشعر بمدح أو ذم ، ولكن المراد به هنا لقب السوء الذي يتأذى به المخاطب ويكرهه ، والدليل على ذلك :

أولاً : جاء النهي عنه ، والنهي إنما يتناول ما فيه المنكر والفساد والأذى .

ثانياً : إنّ الألقاب الحسنة قد أقرّها الشرع واستحبها كما يتضح ذلك إنّ شاء الله تعالى .

فنهى الله تعالى المؤمنين أن ينبز بعضهم بعضاً بألقاب السوء ، أو المكروهة عند المخاطب ، وهي أنواع متعددة كما يلي :

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : {ولا تتأبزووا بالألقاب} قال : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمِل السيئات ثم تاب منها ورجع إلى الحق ، فنهى الله تعالى أن يُعيّر بما سلف من عمله .

وروى ابن المنذر وعبد بن حميد عن عطاء : {ولا تتأبزووا بالألقاب} قال : أن يسميه بغير اسم الإسلام ، فيقول له : يا خنزير ، يا كلب ، يا حمار . . الخ .

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه : {ولا تتأبزووا بالألقاب} قال : أن يقول : إذا كان الرجل يهودياً فأسلم ، يقول له : يا يهودي أو يا نصراني أو يا مجوسي ، أو يقول للرجل المسلم : يا فاسق .

وروى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن قتادة : {ولا تتأبزووا بالألقاب} قال : لا تقل لأخيك المسلم يا فاسق يا منافق .

¹ هذا كلام العلامة القرطبي في تفسيره .

وروى عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد : { وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ } قال : يُدعى الرجل بالكفر وهو مسلم .

فجميع هذه الألقاب الوارد ذكرها عن أولئك الأئمة من الصحابة والتابعين جميعها داخله في الألقاب التي نهى الله تعالى المؤمنين أن يتنابروا بها ، وكل واحدة منها فسوق ، وقائلها فاسق تجب عليه التوبة فوراً ، وطلب السماح من المخاطب بها ، بدليل قوله تعالى : { بئسَ الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ } .

فقد حكم سبحانه على كل من وقع فيما نهى الله تعالى عنه عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنه فاسق ، سواء في ذلك السخرية ، واللمز ، والنبز بالألقاب .

والمعنى : بئس الاسم يُذكر به أحدهم وهو الفسوق الذي أتى به بسبب ارتكابه النهي فهو فاسق - بعد الإيمان - أي : بعدما آمن واتصف بكونه مؤمناً - وفي هذا ذم شديد للنابز واللامز والساخر ؛ على اجتماع الفسق والإيمان فيه ، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجتمعا في نفس واحدة لأن الإيمان يأبى الفسق .

يقال : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة - يريد بذلك استقباح الجمع بين الصبوة وما يكون في حال الشباب من الميل إلى الجهل وبين كبر السن ، فإن الجمع بينهما قبيح جداً

فالجملَة وهي : { بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان } متعلقة بجميع ما تقدم من النهي وهي الأمور الثلاثة : السخرية واللمز والنبز - وعليه أكثر العلماء ، وقد اقتصر عليه العلامة الحافظ ابن حجر الهيتمي في (الزواجر).

والمعنى على هذا القول : بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته ، أو يُسمى كلباً أو خنزيراً ونحو ذلك من النبز بالألقاب السيئة بعد كونه مؤمناً ، فإن النبز بذلك فسوق ، ويسمى قائله فاسقاً .

ولا يدخل في النهي عن التنازع بالألقاب - لا يدخل دعاء الرجل أخاه بلقب قبيح في نفسه لكن لا على طريق الاستخفاف به ولا الإيذاء له - فيما إذا دعت إليه الضرورة ، لتوقف معرفته على ذلك اللقب القبيح في نفسه كقول علماء الحديث : عن سليمان الأعمش ، وعن واصل الأحذب ، وعن الأعرج ؛ ونحو ذلك مما يُقصد به التعريف لا الاستخفاف والإيذاء ، ولا سبيل إلى التعريف به إلا بذلك .

قال الإمام البخاري في (كتاب الأدب من الجامع الصحيح) : باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم : الطويل والقصير ، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ما يقول ذو اليمين)) ، وما يراد به شين الرجل اهـ .
فليس ذلك من التنازع ولا من الغيبة المحرمة .

وينبغي أن يُعلم أنّ النبز بالكفر والتكفير أمره جداً خطير .

قال الإمام البخاري في (صحيحه) : باب من كَفَّر أخاه مِنْ غير تأويل فهو كما قال .

ثم أسند الحديث إلى أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء به أحدهما)) أي : فقد رجع بالكفر أحدهما .

وأسند الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أيما رجل قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها - أي : بالكلمة - أحدهما)) .

وفي رواية لمسلم : ((أيما امرئ قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما : إن كان كما قال ، وإلا رجعت إليه))¹ .

وروى أبو داود وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ثلاثة من أصل الإيمان : الكف عن قال لا إله إلا الله ،

¹ أي : إن كان المخاطب بذلك في الباطن كافراً فهو كما قيل له ، وإن لم يكن كذلك رجعت على قائلها فيكفر اهـ مناوي ملخصاً .

ولا تكفره بذنوب ، ولا تخرجه عن الإسلام بعمل ، والجهد ماض - أي :
مستمر باق - منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخره هذه الأمة الدجال ، لا
يبطله جور جائرٍ ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار)) .

ومن هنا تعلم أن مسألة التفسير أمرها عظيم ، والتكفير أمره أعظم .

إحفظ لسانك أيها الإنسان

لا يلدغَنَّك إنه ثعبان

قوله تعالى : {ولا تتأبزووا بالألقاب} .

هذا نهي عن النبز بالألقاب السيئة ، وأما النداء أو المخاطبة بالألقاب
الحسنة فذاك أمر محبوب شرعاً ومرغوب كما قلنا - لا خلاف في ذلك ،
فقد لُقِّبَ سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بالعتيق ، لقوله صلى الله عليه وعلى
آله وسلم : ((أنت عتيق الله من النار)) - ولُقِّبَ عمر بالفاروق لظهور
الإسلام يوم إسلامه ؛ وذلك بدعوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولُقِّبَ
سيدنا حمزة رضي الله عنه بأسد الله - لما أن إسلامه كان حماية ومنعة
فاعتَزَّ الإسلام به .

روى البغوي والطبراني أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في حمزة :
((والذي نفسي بيده ، إنه لمكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة
حمزة أسد الله وأسود رسول)) .

ولقب خالد بن الوليد بسيف الله ، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم :
((نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله)) .

وألقاب أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام ورضي الله عنه وكرم الله
وجهه بالألقاب الحسنة كثيرة وشهيرة .

ولقب سيدنا عثمان رضي الله عنه بذي النورين ، وخزيمة بذي الشهادتين -
وقد جرت العادة بالألقاب الحسنة عند جميع الأمم : العرب والعجم في
مخاطباتها ومكاتباتها ، ولا فرق في ذلك بين اللقب والكنية ، فما كان منها

سيئاً يكرهه المخاطب ويتأذى منه فهو حرام ، وما كان منها حسناً فهو سائغ ومحبوب شرعاً .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتحسين الأسماء ، فيشمل أيضاً تحسين الألقاب والكنى ، لأنها دالة على المُسمَّى والمُلقَّب والمُكَنَّى - ولذلك ينبغي تحسين الألقاب والكنى ، كما ينبغي تحسين الأسماء مطلقاً .

روى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحَسِّنُوا أَسْمَاءَكُمْ))^١ .

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكره الاسم القبيح ويُغيِّره ، وكذلك يُغير اللقب القبيح كما سيأتي في كلام أبي داود .

روى الترمذي عن السيدة أم المؤمنين عائشة رضوان الله تعالى عليها ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يُغيِّر الاسم القبيح .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنَّ ابنة لعمر رضي الله عنه كان يقال لها عَاصِيَةٌ فسَمَّاهَا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((جميلة))^٢ .

قال أبو داود في (سننه) : وغيَّر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم اسم العاصي وعزيز وعتلة ، وشيطان والحكم ، وغراب وحُباب فسماه هشاماً ، وسمى حرباً سلماً ، وسمى المضجَع المنبعث ، وأرضاً تسمى عَفْرَةَ سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبني الزينة سَمَّاهم بني الرشدة ، وبني مُغوية سماهم بني رشدة .

قال أبو داود بعدما أورد ذلك : تركت أسانيدها اختصاراً . اهـ .

قال العلامة الخطابي شارح سنن أبي داود : أما العاصي فإنما غيِّره كراهية لمعنى العصيان ، وإنما سَمَّاهُ المؤمن الطاعة والاستسلام - أي : لله

^١ ورواه ابن حبان في (صحيحه) .

^٢ قال الحافظ المنذري : ورواه مسلم باختصار : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم غيَّر اسم عاصية قال : ((أنت جميلة)) .

تعالى ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأما العزيز لأن العزة لله تعالى - وشعار العبد الذلة والاستكانة أي : فالعبد يسمى عبد العزيز .

وعتلة معناها الشدة والغلظة ، ومنه قولهم : رجل عُتِلَّ أي : شديد غليظ - ومن صفة المؤمن اللين والسهولة .

قال : وشيطان اشتقاقه من الشطن وهو البعد من الخير ، وهو اسم المارد الخبيث من الجن والإنس .

قال : والحكم هو الحاكم الذي لا يُرد حكمه ، وهذه الصفة لا تليق إلا بالله تعالى ، ومن أسمائه سبحانه الحكم .

قال : وغراب مأخوذ من الغرب وهو البعد ، ثم هو حيوان خبيث المطعم ، أباح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قتله في الحل والحرم .

قال : وحُباب بضم الحاء المهملة وتخفيف الباء الموحدة : نوع من الحيات، وروي أنه اسم شيطان .

قال : وأما عفرة بفتح العين وكسر الفاء ، فهي نعت الأرض التي لا تُنبت شيئاً فسمّاها خضرة على معنى التفاؤل حتى تخضر اهـ كلام الخطابي رحمه الله تعالى .

قال العلامة القرطبي : فأما ما يكون من الألقاب ظاهرها الكراهة فإذا أريد بها الصفة - أي : للتعريف - لا العيب فذلك كثير .

قال : وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، ومروان الأصفر ؟

فقال ابن المبارك : إذا أردتَ صفته ولم تُرد عيبه فلا بأس به اهـ .

قوله تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } .

التوبة هي ، الرجوع عن الذنب ، والمعنى : ومن لم يتب عن تلك المناهي: التنازير بالألقاب واللمز والسخرية - من لم يتب منها فهو ظالم أولاً لنفسه لأنه إذا لم يتب فقد عرّض نفسه للعذاب والعقاب على ذنبه ، ثانياً :

هو ظالم لغيره لأن في التنازب بالألقاب واللمز والسخرية إيذاءً للغير وإهانةً له ، وهذا من أكبر المظالم التي يجب التوبة منها ، والتحلل ممن أُوذي بها.

فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فِي عَرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ - إِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) .

وقد بيّنت شروط التوبة مفصلةً في كتاب (صعود الأقوال) وهي : الإقلاع عن الذنب ، والندم على ما فعل ، والعزم على أن لا يعود ، والتحلل وطلب العفو ممن أساء إليه وآذاه بذلك الذنب ؛ فإن كان مالاً أعطاه وأرضاه ، وإن كان مما يتعلق بعرضه استعفاه واسترضاه ، قبل أن يأتي عليه يوم الحساب ، فهناك يكون القصاص بالحسنات والسيئات لا بالدينار والدرهم والليرات ، فإنها لا تنفع هناك شيئاً ، بل الأمر أعظم من المال ، وإنما هو بصالح الأعمال ، فيأخذ منها المظلوم حقه تماماً ، وإذا لم تف الحقوق عليه طُرح من سيئاتهم على الظالم ثم طرح في النار ، وبذلك يكون قد ذهب ماله في الدنيا لغيره ، وذهبت أعماله الصالحة في الآخرة وصارت لغيره ، وهذا هو الخسران المبين .

وفي قوله تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } في هذا حثٌّ على التوبة والإسراع إليها ، فإن التماذي على الذنوب والاستمرار عليها دون أن يُبادر إلى التوبة منها في ذلك خطر عظيم ، وعقاب أليم ، وذلك أن مَنْ لم يسرع إلى التوبة يعتبر مُصِراً على الذنب ، وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ويل للمصرين ، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون)) ، فإن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة ، والإصرار على الكبيرة يجعلها أخطر من كونها كبيرة فحسب ؛ لأن الإصرار على الذنوب والتماذي فيها وعدم المبالاة بما جاء فيها من عقاب ذلك الإصرار كما قال العلماء وهو بريد الكفر- أي : السبب العظيم الذي يُسرّع به إلى الكفر ، وذلك بأن يستحلي الذنوب فيستحلها ، واستحلال الكبائر المحرمة أو إحداها هو كفر ، لأن الاستحلال أمر اعتقادي فهو صار في حال يعتقد أن فعله

الكبائر حلال ليس بحرام ، وهذا مخالفٌ لما ثبت في الشرع ثبوتاً قطعياً ، فيعتبر كافراً ، لأن استحلال الحرام القطعي كفر ، لأنه راجع للاعتقاد القلبي - فافهم ولا تجهل .

قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم} .

أعاد سبحانه النداء مع ها التنبيه بصيغة الإيمان لعظم ما يأتي بعد النداء ، وأنّ الأمر عظيم وخطره جسيم ، ينبغي الإصغاء إليه وتلقيه بالقبول والطاعة ، وأنه مقتضى الإيمان الذي اتصفوا به ، {اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ} الاجتناب هو التبعاد عن الشيء ، والأصل في ذلك أن يكون الإنسان في جانب وذلك الشيء المتباعد عنه في جانب آخر - وفي هذه الصيغة قوة في النهي وتأكيد للمباعدة عنه ، نظير قوله تعالى : {فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} وقوله تعالى : {إِنَّمَا الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} - أي : تباعدوا عن ذلك كله ، واجعلوها في جانب آخر ، بعيداً لا تصلون إليه ، بحيث تكونون أنتم في جانب وذلك المنهي عنه في جانب آخر .

{اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ} .

فقد أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يتباعدوا عن كثير من الظن ، حتى لا يقعوا في ظنون سيئة فيها تهمة بالسوء لمن يُساء به الظن ، ومن ليس هو موضع سوء ظنٍّ ، كَمَنْ يُظَنُّ به الفاحشة أو شرب الخمر أو غير ذلك من المحرمات بدون أن يكون دليل على هذا الظن من أمارة تدل على ذلك ، بل كان الظنون به ظاهر الصلاح ، أو مستور الحال لم يُعرف بتعاطي المحرمات .

قال كثير من العلماء : الذي يُمَيِّزُ الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل مَنْ لم تُعرف له أمارة - أي : علامة صحيحة - وسبب ظاهر - كان ذلك الظنّ السيء به حراماً ، واجب الاجتناب - وذلك إذا كان المظنون به ممّنْ شُوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظنُّ الفساد

به ، وظن الخيانة به حرام ، بخلاف من اشتهر في الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث ، وكثرة التردد للفسقة ومواضع فعل الفسق .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : وسوء الظن حرام كسوء القول ، ولكن لست أعني به إلا عَقْد القلب وحكمه - أي : الظان - على غيره بالسوء ، أما الخواطر وحديث النفس فمعفو عنه ^١ ، فالمنهي عنه أن تَظُنَّ ، والظن عبارة عما تركز إليه النفس ويميل إليه القلب ، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله تعالى علام الغيوب ، فليس لك أن تظن في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يحتمل التأويل ، فعند ذلك تظن فيه ما علمته - أي : ما ظهر لك وشاهدته ، فما لم تشاهده منه ولم تسمعه منه ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يُلقيه إليك - فينبغي أن تُكذبه فإنه - أي : الشيطان - أفسق الفساق اهـ .

أي : وخبر الفاسق مردود ، فكيف بما يأتيك به أفسق الفساق - فانتبه واحذر كل الحذر ، أن تأخذ بخير أفسق الفساق ؛ بل وكل فاسق .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً- ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك))^٢ .

فحذّر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من اتباع الظن ، وحذر من سوء الظن بمن لا يُساء به الظن ، وبيّن صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه

^١ لما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً قال : ((إن الله تعالى تجاوز لي عن أمّتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا)) اهـ .

وفي قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((تجاوز لي)) إشارة إلى أنه أمر غير مرضي عنه ، فينبغي مدافعة حديث النفس السيء ؛ ولو كان أمراً مرضياً لما احتاج إلى التجاوز .

فعوّد نفسك على أحاديث الخير فيما بينك وبين نفسك ، وأبعدها عن التحدث بالشر والسوء ، فإنّ حديث النفس يمر عليك مروراً ، فاطرد السيء منه حتى لا يجلس عندك ، ويقيم في قلبك ؛ فيصير تصديقاً وجزماً .

^٢ رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والترمذي وأبو داود بروايات متعددة تختلف في بعض الألفاظ .

أَكْذِبَ الْحَدِيثَ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَكْذَبَ الْحَدِيثَ النَّفْسِي إِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ ، وَالْقَوْلِي إِنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَمَتَى تَمَكَّنَ سُوءَ الظَّنِّ وَكَثُرَ تَحْدِيثُ نَفْسِهِ بِهِ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ يَوْمٌ يُحَدِّثُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ، فِي حِينٍ أَنَّهُ كَذَبَ بَلْ هُوَ أَكْذَبَ الْحَدِيثَ .

قوله تعالى : {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} .

في هذا دليل أن الظن الحسن لا يدخل تحت الاجتناب ، وذلك بأن يُظن بالله تعالى خيراً ، وأن يُظن بعباد الله ظناً حسناً .

أما حسن الظن بالله تعالى فهو واجب إيماني ، لا يكمل الإيمان إلا به ، وذلك بأن تظن بالله تعالى خيراً ، فإذا عملت ما أمرك به تظن به القبول ، وإذا دعوتَه تظن به الإجابة ، وإذا عبدته تظن به إثابته على العبادة ، وإذا استغفرته ظننت به المغفرة - دون أن تستبعد ذلك عنه .

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني)) - وفي رواية : ((وأنا معه حيث يذكرني)) - وفي رواية : ((وأنا معه حين يذكرني)) الحديث¹ .

فإنه تعالى عند ظنك أيها المسلم ، فحسن ظنك بربك ، ولا تسيء ظنك به ، فإن سوء ظنك بربك يعود وباله عليك ، وسل الله تعالى أن يرزقك حسن الظن به في كل الأمور .

روى الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم عن الأوزاعي مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((اللهم إني أسألك التوفيق لمحاببتك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك)) .

وإن حسن الظن بالله تعالى هو من حسن العبادة له :

¹ انظر الحديث برواياته في كتابي (صعود الأقوال) و (التقرب إلى الله تعالى) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((حسنُ الظن من حسن العبادَةِ))¹ .

وروى مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله عنه ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَبْلَ موته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بثلاثة أيام يقول : ((لا يموتنَّ أحدكم إلاَّ وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله عز وجل)) .

ومن المعلوم أنَّ الموت جائز على الإنسان في كل حين ، فينبغي أن يُحسِّنَ الظنَّ بالله تعالى دائماً في كل حال وحين .

اللهم يا من لا تخيب فيك الظنون الحسنة ؛ ارزقنا حسن الظن بك ، وحقق لنا ما ظنناه فيك - آمين .

وروى الإمام أحمد وابن حبان عن حيان أبي النضر قال : خرجت عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت وائلة بن الأسقع - الصحابي رضي الله عنه - وهو يُريد عيادته أيضاً ، فدخلنا عليه فلما رأى يزيد بن الأسود وائلة بن الأسقع رضي الله عنه بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل وائلة رضي الله عنه نحوه حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفي وائلة رضي الله عنه فجعلهما على وجهه - فعل ذلك تبركاً بكفي صحابي من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لأن كَفِّي وائلة قد مست كفي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالمصافحة والتقبيل .

فقال له وائلة رضي الله عنه : كيف ظنك بالله تعالى ؟

فقال : ظني بالله تعالى والله حسنٌ .

فقال وائلة رضي الله عنه : فأبشر ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن بي خيراً فله وإن ظن بي شراً فله)) .

والله تعالى أكرم من أن يُخيَّب من ظنَّ به خيراً .

¹ رواه أبو داود وابن حبان في (صحيحه) واللفظ لهما ، ورواه الترمذي والحاكم ولفظهما : قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنَّ حسن الظن من حسن عبادَةِ الله تعالى)) .

روى الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً قال : (والذي لا إله غيره لا يُحَسِّن عبدٌ بالله الظن إلا أعطاه ظنه ، وذلك بأن الخير في يده سبحانه وتعالى) .

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أمر الله عز وجل بعبد إلى النار فلما وقف على النار التفت فقال : أما والله يا ربِّ إنَّ كان - أي : إنَّه كان - ظني بك لحسن .

فقال الله عز وجل - للملائكة - ردوه - أي : إلى الجنة - أنا عند حسن ظن عبدي بي)) .

وأما حسن الظن بعباد الله تعالى فهو أيضاً واجب إيماني ، وهو من حق أخيك المسلم عليك أن تظن به حسناً ما لم يظهر من أمر ظاهر يدل على السوء والشر كما بينا ذلك .

روى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يطوف بالكعبة ويقول : ((ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك : ماله ودمه وأن لا يُظنَّ به إلا خيراً)) .

فمن حرمة المؤمن أن تظن به خيراً ، وإذا أسأت ظنك به فقد هتكت حرمة ، ولم تؤدِّه حقه الإيماني فعليك مسؤولية ذلك ، وأنت مؤاخذ على ذلك .

وروى ابن مَرْدُويَه وابن النجار عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه عز وجل ، إنَّ الله تعالى يقول : {اجتنبوا كثيراً من الظن} .

روى الإمام أحمد في (الزهد) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (لا تظننَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً) .

فالواجب على المسلم إذا سمع كلمةً من أخيه المسلم تُوهمُ السوء أن لا يظن به السوء بل يحملها على محمل حسن ما دام يجد لها في الخير محملاً ما ولو بعيداً .

وأخرج الزبير بن بكار في (الموفقيات) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (مَنْ تعرَّض للتهمة فلا يلومَنَّ من أساء به الظن ، ومن كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشى سره كان الخيار عليه ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظنَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وكن في اكتساب الأصدقاء - أي : الصادقين والمخلصين معك - فإنهم جنة عند الرخاء ، وعدة عند البلاء ، وآخ إخوانك على قدر التقوى ، وشاور في أمرك الذين يخافون الله تعالى) اهـ .

قوله تعالى : {ولا تجسسوا} .

التجسس هو تتبع أخبار الغير والبحث عما يكتم منها ، فإذا أُفرد التجسس يشمل التحسس وهو طلب الأخبار والبحث عنها ، سواء كانت مكتومة أم لا ، قال تعالى - مخبراً عن يعقوب عليه السلام - : {يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه} أي : التمسوا أخبارهما وابعثوا عنهما .

وقد جاء في (صحيح) مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا)) .

فنهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن التجسس والتحسس فالفرق بينهما ما تقدم .

وقيل : الفرق بينهما أن **التجسس** هو تتبع الظواهر ، و**التحسس** تتبع البواطن .

وقيل : **التجسس** هو تفحص أخبار الناس بغيرك ، و**التحسس** أن تتفحص عنها بحاستك وبنفسك .

وقد قرئ بالآية شاذاً : {ولا تحسسوا} .

والمراد بالنهي عن التجسس والتحسس هو البحث عن عورات الناس ومعاييبهم ، والاستكشاف عما ستروه من الزلات والعثرات ، وهذا يُعد من الكبائر كما عليه الجمهور .

روى أبو داود وغيره عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه : لا تتبّعوا عورات المسلمين ، فإنّه من تتبّع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته)) - أي : داخل بيته .

وتقدم حديث الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنبر فنادى بأعلى صوته : ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفِض الإيمان إلى قلبه ؛ لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبّعوا عوراتهم)) الحديث .

وروى أبو داود عن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود رضي الله عنه فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، وقد فعل ذلك متسترأ .

فقال ابن مسعود رضي الله عنه : (إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به) .

وأخرج عبد الرزاق وعَبْدُ بن حميد وغيرهما عن المسور بن مخرمة عن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهم في المدينة ، فبينما هم يمشون شبّ لهم - أي : ظهر - سراج في بيت ، فانطلقوا يأمونه ، فلما دنوا منه إذا باب مُجاف - أي : مغلق - على قوم لهم فيه أصوات ضجّة ولغط .

فقال عمر رضي الله عنه وأخذ بيد عبد الرحمن رضي الله عنه : أتدري بيتَ مَنْ هذا ؟

فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرب فما ترى ؟

فقال أرى إن قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : {ولا تجسسوا} فقد تجسسنا - فانصرف عنهم وتركهم .

فانظر يا أخي في خوف الصحابة رضي الله عنهم من التجسس ، فإنه قد نهى الله تعالى عنه .

وقد نقل في (روح المعاني) عن الإمام الأوزاعي أنه قال : من التجسس المنهي عنه الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون . اهـ .

ويشير بذلك إلى الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة)) - أي : صُبَّ في أذنيه الرصاص المذاب عقوبة له .

ونقل العلامة القرطبي في (تفسيره) عن عمرو بن دينار : أنّ رجلاً له أخت ، فاشتكت - أي : مرضت - فكان يعودها ، فماتت فدفنها ، فكان هو الذي نزل في قبرها فسقط من كفه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه ، فكشف عنها فإذا القبر يشتعل ناراً ، فجاء إلى أمه فقال : أخبريني ما كان عمل أختي ؟

فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها - فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تُؤخّر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت أيضاً إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقت أذنبا أبوابهم - أي : وضعت أذنبا على باب الجيران فتتجسس عليهم وتخرج أسرارهم .

فقال الرجل : بهذا هلكت اهـ . والعياذ بالله تعالى .

فالتجسس المنهي عنه هو البحث عن عورات الناس وذنوبهم المستترة ، وهي ذنوب فعلوها متسترين ، قاصرة عليهم ، لا يتعدى شرها للغير ولا أذاها ، ولا ضرر فيها على غيرهم .

وأما التجسس عن المجرمين الذين يبيّتون الجرائم والمكائد ، أو المظالم والشر والفساد ، وكل ما يعود ضرره على العباد والبلاد ، فهذا أمر واجب شرعاً ، كالبحث عمّن يُدبّر مكيده اغتيال ، أو بغية على امرأة ، أو عمل

نهب أو سلب ، أو اعتداءً على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، فهذا البحث عنهم أمر محتّم شرعاً دفعاً للفساد وأمناً وحفظاً للعباد والبلاد .

فالشرع يوجب على كل من علم بأمرهم أن يرفع ذلك إلى الحاكم حتى يُعاقبه ، ويكفّ ضرره عن العباد ، ومن لم يخبر عنهم فهو آثم عند الله تعالى ، ومعاقب على ذلك .

قوله تعالى : {ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم} .

في هذه الآية الكريمة ينهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يغتاب بعضهم بعضاً ؛ بأن يذكره بما يكرهه في غيبته .

فالغيبية هي كما بينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث: قال : ((أندرون ما الغيبة؟)) .

قالوا: الله ورسوله أعلم .

قال : ((ذكرك أخاك بما يكره)) .

قيل : يا رسول الله : رأيت إن كان في أخي ما أقول .

قال : ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتّه ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه))¹ والبهتان أدهى وأمر .

والمراد بذكرك أخاك بما يكره ذكره صريحاً ، أو كناية أو كتابة ، ويدخل في ذلك الرمز ، والإشارة إذا أردت ما يفهمه النطق ، فإنّ علة النهي عن الغيبة هي الإيذاء بتفهم الغير نقصان المغتاب فبأيّ وجه كان هذا الإفهام ؛ فهو غيبية كما أوضح ذلك الإمام الغزالي رضي الله عنه .

والمراد بما يكرهه في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ذكرك أخاك بما يكره)) بأيّ شيء يكرهه ، فإنّ ((ما)) عامة تشمل وتعم ، فهي تعم كل ما يكرهه ، سواء كان ذلك يتعلّق في دينه أو دنياه ، أو خلقه أو خلقه ، أو

¹ رواه أصحاب السنن وغيرهم .

ماله أو ولده ، أو زوجته أو مملوكه ، أو خادمه ، أو لباسه أو غير ذلك مما يتعلق به ؛ هذا هو الذي دلَّت عليه الأحاديث الواردة في ذم الغيبة .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لما عرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم¹ الناس ويقعون في أعراضهم)) .

فالطعن في عرض المسلم حرام ، ولو كان الطعن في أمر يتعلق ببذنه أو ثيابه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام رجل ، فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلاناً ، أو قالوا : ما أضعف فلاناً .

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((اغتبتم صاحبكم وأكلتم لحمه))² .

والغيبة تُعد من قبائح الكبائر ، ولها آثارها الذميمة ، وصاحبها يُعاقب إن لم يتب ويتحلل من الذي اغتابه .

والغيبة لها ريح منتن تشمه الملائكة وأولو النفوس الطيبة :

¹ أي : بالغيبة .

² رواه أبو يعلى ، ورواه الطبراني ولفظه : أن رجلاً قام من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأى في قيامه عجزاً فقالوا : ما أعجز فلاناً ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((أكلتم أخاكم واغتبتموه)) .

فقد جاء عن جابر رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفعت ريح منتنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أندرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين))¹.

الذي يغتاب الناس ولم يتب يعذب في قبره :

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : بينا أنا أماشي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بيدي ورجل على يساره ؛ فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، فأيكما يأتيني بجريد)) .

قال أبو بكرة : فاستبقت أنا وصاحبي فأتيته بجريد - أي : غصن نخل - .

فشقها نصفين فوضع في هذا القبر واحدة ، وفي هذا القبر واحدة - وقال : ((لعلَّه أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين ، إنهما يعذبان بغير كبير - أي : في نظر الناس ولكنها كبيرة عند الله تعالى - بالغيبة والبول)) .

وعند البخاري : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة)) .

والظاهر أن القصة متعددة ، وعلى كلِّ فالغيبة والنميمة أختان في كونهما كبيرة ، وفي تعدي ضررهما للغير ، وأمرهما كبير عند الله تعالى .

كما أن أمر الطهارة أمر كبير عند الله تعالى ، فعدم الاستتار عند البول وعدم التنزه عنه أمر كبير ، فالبول نجاسة حسية جسمية ، والغيبة والنميمة نجاسة نفسية ، يجب التطهر منهما .

وعن يعلى سيابة رضي الله عنه أنه عهدَ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأتى على قبر يعذب صاحبه ، فقال : ((إنَّ هذا كان يأكل لحوم

¹ رواه أحمد وابن أبي الدنيا ورواه أحمد ثقات .

الناس)) - أي :بالغيبية - ثم دعا صلى الله عليه وسلم بجريدة رطبة فوضعها على قبره وقال : ((لعله أن يخفف عنه ما دامت هذه رطبة))^١.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبع الغرقد ، فأتى على قبرين ثريين^٢ .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((أدفنتم فلاناً وفلانة)) أو قال : ((فلاناً وفلاناً؟)) .

قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : ((أقعد فلان الآن فضرب)) ثم قال : ((والذي نفسي بيده لقد ضرب ضربة ما بقي منه عضو إلا انقطع ، ولقد تطاير قبره ناراً ، ولقد صرخ صرخة سمعها الخلائق إلا الثقلين : الإنس والجن ، ولولا تمريج^٣ قلوبكم، وتزئدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع)) .

ثم قالوا : يا رسول الله : وما ذنبهما ؟

قال : ((أما فلان فإنه كان لا يستبرئ من البول ، وأما فلان - أو فلانة - فإنه كان يأكل لحوم الناس))^٤ .

الغيبية والنميمة يحْتان الإيمان كما تُحت الشجرة :

روى الأصبهاني عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((الغيبية والنميمة يحْتان الإيمان كما يعضد الراعي الشجرة)) .

^١ رواه الطبراني .

^٢ أي : غنيين بالمال .

^٣ أي : قلق قلوبكم واضطرابها وخطها .

^٤ رواه ابن جرير الطبري من طريق علي بن يزيد عن القاسم عنه ، ورواه من هذا

الطريق أحمد بغير هذا اللفظ وزاد فيه : قالوا : يا نبي الله متى هما يعذبان ؟

قال : ((غيب لا يعلمه إلا الله)) - كما في (ترغيب المنذري) .

^٥ حت الورق من الشجرة إذا أسقطه لترعاه الغنم .

الغيبة إذا كثرت وعظمت ولم يتب منها تأتي على الحسنات وربما لم تبق فيها شيئاً لصاحبها :

روى الأصبهاني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إن الرجل ليؤتى كتابه منشوراً فيقول : يا رب فأين حسنات كذا وكذا عملتها ليست في صحيفتي فيقول : مُحِيتْ باغتيابك للناس)) .

والمعنى : أنها صارت إلى غيرك من أهل الحقوق عليك ، فإنهم أخذوها بمقابل ما لهم عليك من الحقوق ، وما لهم عليك من المظالم .

ويشهد لهذا ما تقدم في حديث البخاري : ((من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار؛ إن كان له حسنات أخذ منها بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)) .

وبذلك يصير مفلساً لا شيء معه من الحسنات ، بل هو مدين لغيره ؛ وهذا شر أنواع الإفلاس ، وأقبح من إفلاس أهل الدنيا إذا تراكت عليهم الديون واستغرقت وزادت - كما جاء في حديث المفلس ، وقد فصلت ذلك كله في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : {أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم} .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى قباحة حال الذي يغتاب الناس ، وسوء فحشه ، وشناعة جشعه ، فَيُسَبَّحُ حاله بحال من يأكل ميتة ، وهذا أمر مستقبح ومستقذر ، ثم يزيد ذلك قبحاً وذنماً وفحشاً أن يكون ذلك الميت إنساناً لا حيواناً ؛ فهذا قبح على قبح ، ثم إن ذلك يزداد قبحاً ووحشية وكراهية أن يكون الإنسان الميت الذي ينهش من لحمه ميتاً هو أخوه في الإنسانية والآدمية ، بل أخوه في الملة الإسلامية والعقيدة الإيمانية - إذا إن هذا الذي يغتاب غيره قد هوى إلى الحضيض الأسفل في البهيمية ، والحيوانية الشرسة والوحشية على وجه ما يبلغه الحيوان ولا البهائم ، فأين

الإنسانية ؟ وأين الأخوة الإيمانية ؟ وأين العقل لهذا الإنسان ؟ وأين الإيمان الذي اتصف به هذا الإنسان ؟ !! ألم يسمع كلام رب العالمين ، ومَنْ أصدق من الله قبلاً ، ألم يتدبره ويتعقل ما فيه كما قال سبحانه : {كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب} .

ولكن الأمر في كثير من الناس هم كما قال الله تعالى : {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} الآية .

بل ربما يمر على هذه الآية كثير من المسلمين ويقولون إنهم ليسوا من أولئك ، والآية لا تشملهم ، ويقول أحدهم : أنا لست بمراد في هذه الآية ، والآخر يقول كذلك أنا لست منهم ، والآخر والأول كل منهم يصرفها إلى غيره ويدّعي أنه ليس من أولئك .

فيقال لهم : إذا هذه الآية هي خطاب الله تعالى لمن ؟ ! ..

أليس للمؤمنين ، فإنه سبحانه قال في صدر الآية : {يا أيها الذين آمنوا} فإذا قال كل مؤمن : أنا لست منهم وهكذا . . فلمن يخاطب الله تعالى ؟ وفيمن نزلت هذه الآية ؟ وما فائدة النهي عن الغيبة الذي جاء فيها ؟ !! إذاً ولا شك أنّها خطاب للمؤمنين ، فالواجب على كلٍّ منهم أن يقف عند هذه الآية ، ويحاسب نفسه ، ويستغفر من ذنبه ، ويتوب إلى ربه ، ويتحلل من أخيه بملاطفته إياه ، ويستغفبه من قبل أن تأتي الطامة الكبرى ، ويتذكر الإنسان ما سعى ، ويندم ولا تنفعه الندامة ، ويتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى .

روى ابن حبان في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ماعز الأسلمي إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فشهد على نفسه بالزنا أربع شهادات يقول : أتيت امرأة حراماً - وفي كل ذلك يعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قال : ((فما تريد بهذا القول ؟)) قال : أريد أن تطهرني - أي : بإقامة حد الزنا . .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يُرجم فرجم ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلين من الأنصار يقول أحدهما

لصاحبه : انظر إلى هذا الذي ستر الله تعالى عليه فلم يدع نفسه حتى يرجم رجم الكلب - قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار شائلٍ برجله - أي : لأنه منتفخ - .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أين فلان وفلان)) .

فقالوا : نحن ذا يا رسول الله .

فقال لهما : ((كُلَا من جيفة هذا الحمار)) .

فقالا : يا رسول الله غفر الله لك من يأكل هذا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ما نلثما من عرض هذا الرجل أنفاً أشد من أكل هذه الجيفة ، فوالذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها)) .

فأكل جيفة الحمار هي دون أكل لحم الإنسان الذي اغتابه ، بل أكل لحم الإنسان بالغيبة أشد وأقبح - فتدبر واعتبر ، وتبصر واذكر ، وانته وازدجر ، فليس الأمر هزلاً بل هو جد ، وليست أعراض الناس لا سيّما العلماء - ليست لعبة للملاعبين ، ولا عبثاً للعبثين ، فلا تجهل مع الجاهلين ، وسوف ترى حقائق الأمور ونباها بعد حين :

سوف ترى وينجلي الغُبار

أفرس تحتك أم حمار؟

فكم ممّن يدعي أنه خيال ولكن في الحقيقة هو حمار ، وكم ممّن يدعي أنه خيال بارع وإنما في الحقيقة بغال .

فلا تنتقص غيرك ، ولا تنظر إلى أحد من المسلمين بعين الحقارة، بل انظر إلى نفسك أنك أقلّ المؤمنين إلا إذا رفعك الله تعالى ، فهذا الرفع والفضل له لا لك ، فاحمده على فضله عليك ، وقف موقف العبد الذليل أمام الرب الجليل سبحانه وتعالى ، مَهْمَا علا مقامك وارتفعت منزلتك في التقوى والعمل الصالح ، فإنّ الفضل لله تعالى عليك ، كما قال سبحانه :

{ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم} أمين .

فقف موقف الفقير الذليل لربك الغني الجليل ، وتذكّر قول العارف الكبير والإمام الشهير سيدي أبي الحسن الشاذلي في قصيدة له رضي الله عنه ، ونفعنا الله به وبأولياء الله تعالى وأحابه أجمعين :

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى

وأنت الذي لم تزل محسنا

إذا كنت في كل حال معي

فعن حمل زادي أنا في غنى

وعودتنا منك فضلاً عسى

يدوم الذي منك عودتنا

وينبغي أن يُعلم أن هذا الوصف الذي وصف الله تعالى به الذين يفتابون الناس ، سوف يكون حقيقة وجودية ، وعقوبة حقة واقعة ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الآتية :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرّب إليه يوم القيامة فيقال له : كُلْهُ ميتاً كما أكلته حياً - فيأكله ويكلح ويضجُّ))¹ .

فمن أكل لحم إنسان بالغبية في الدنيا مُثِّل له يوم القيامة جسمه ميتاً ، وقرب إليه ، وأمرَ أن يأكل منه ، فيأكله وهو يَضجُّ ويلقى من الكراهية لما يذوقه من قذارة الطعم ؛ و تنتن الرائحة ؛ يلقي أنواع العذاب ، ولذلك يضج ويصيح ولات ينفعه صياحه .

¹ رواه أبو يعلى والطبراني ، وأبو الشيخ في كتاب (التوبيخ) إلا أنه قال : (يصيح) بالصاد المهملة ، وكلاهما بمعنى واحد كذا قال بعض أهل اللغة ، والظاهر أن لفظة (يضجُّ) فيها زيادة إشعار بمقارنة فزع أو قلق والله تعالى أعلم . اهـ . ويكلح : يعبس ويقبض وجهه كراهية .

وعن شفي بن مائع الأصبحي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ، يسعون ما بين الحميم والجحيم ، ويدعون بالويل والثبور ، يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى ؟)).

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((**فرجل مُغلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجرُ أمعاه ، ورجل يسيل فوه - أي : فمه - قيحاً ودماً ، ورجل يأكل لحمه .**

فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟

فيقول : إنّ الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس .

ثم يقال للذي يجر أمعاه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى .

فيقول : إنّ الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول منه .

ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إنّ الأبعد كان ينظر إلى كلمة¹ فيستلذها كما يُستلذ الرفث.

ثم يقال للذي يأكل لحمه : ما بال الأبعد آذانا على ما بنا من الأذى ؟

فيقول : إنّ الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة)² .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به : حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد)).

وفي رواية : ((أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء يُشينه بها في الدنيا ؛ كان حقاً على الله أن يُذيبه يوم القيامة في النار ، حتى يأتي بنفاد ما قال)).¹

¹ أي : كلمة الفحش والسوء والأذى .

² قال في (الترغيب) : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت) والطبراني في (الكبير) بإسناد ليين ، وأبو نعيم ، وقال : شفي بن مائع مختلف في صحبته ، فقيل له صحبة ، قال الحافظ : شفي ذكره البخاري وابن حبان في التابعين .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله تعالى رَدْعَةَ الخبال حتى يخرج مما قال))^٢ .

واعلم أنّ كُلَّ من سمع كلاماً مؤذياً في حق غيره فهو شريك القائل في الإثم ما لم يُنكر ذلك عليه ، ويَرد عن أخيه المسلم ، وإن عجز فارق المجلس - وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل من ردَّ عن عرض أخيه في غيبته ، وفي شدة عقاب من طَعَن بأخيه في غيبته أو بهتته ، أذكر بعضاً منها :

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من ذَبَّ عن عِرْض أخيه - أي : دافع - بالغيبة كان حقاً على الله أن يُعْتقه من النار))^٣ .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((من ردَّ عن عرض أخيه رد الله تعالى عن وجهه النار يوم القيامة)) .

وعن سهل بن مُعاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((من حَمَى مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يَحْمِي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مسلماً يريد به شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال))^٤ .

^١ رواه الطبراني بإسناد جيد .

^٢ قال المنذري : رواه أبو داود في حديث ، ورواه الطبراني وزاد : ((وليس بخارج)) والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح الإسناد .
و((ردغة الخبال)) : عُصارة أهل النار ، كذا جاء مفسراً مرفوعاً ، وهو بفتح الراء وإسكان الدال وبالغين المعجمة . اهـ

^٣ رواه الإمام أحمد بسند حسن والطبراني وغيرهما .

^٤ رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، ورواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ في كتاب : (التوبيخ) ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من ذب عن عرض أخيه رد الله عنه عذاب النار يوم القيامة)) وتلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين} .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من حمى عرض أخيه في الدنيا بعث الله عز وجل ملكاً يوم القيامة يحميه من النار))^١ .

وعن جابر بن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ ((ما من امرىء مسلم يَخْذَلُ امرءاً مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمة ، ويُنتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في موطن يُحب فيه نصرته .

وما من امرىء مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته))^٢ .

ومن أجل هذه الأحاديث وغيرها قال الإمام النووي : رحمه الله تعالى ونفعنا به :

باب تحريم الغيبة ؛ وأمر مَنْ سمع غيبةً محرمةً يرُدُّها ، والإنكار على قائلها ، فإن عجز أو لم يُقبل منه فارق ذلك المجلس إن أمكنه .

قال الله تعالى : {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه} .

وقال تعالى : {والذين هم عن اللغو معرضون} .

وقال تعالى : {إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} .

فالإنسان مسؤول عن سمعه أين صرفه ولمن استمع وماذا سمع .

ثم أورد بعض الأحاديث في ذلك ، ومنها حديث عُتبان بن مالك رضي الله عنه - في حديثه الطويل المشهور - قال : قام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يصلي فقال : ((أين مالك بن الدخشم)) ؟

فقال رجل : ذلك رجل منافق لا يحب الله ورسوله .

^١ رواه أبو داود وغيره .

^٢ رواه ابن أبي الدنيا .

فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله تعالى ، وإن الله قد حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي وجه الله تعالى)) متفق عليه .

قال عبد الله : وأما قول بعض العوام - : إذا اغتاب مسلماً - : أنا لا أغتابه؛ بل أذكر هذا الكلام أمامه مقابلةً ومعينةً وبحضوره ، ويظن بذلك الكلام أنه ليس عليه إثم الغيبة ، ويظن نفسه أنه لم يقع في الغيبة من جهله .

فيقال له : إذا تكلمت بما يكرهه أخوك حال غيبته فقد اغتبتته ، وإن أنت قابلته بما يكره من الكلام فيه مجابهةً فالإثم أشدّ - لأنّ كلامك فيه بما يكره فيه إيذاء له ؛ وإن كان ذلك الكلام موجوداً فيه وكونك قابلته بذلك فقد قابلته بالتعيب عليه وانتقاصه وهذا أشدّ عليه في الأذى لأنه مقابلة بالأذى ، وطعن منك له بما يكره .

وفي المثال : لا تقل له : أنت أعور بعينه أمامه فإنه أشدّ إيذاء له - فهذا أحرم من الغيبة ؛ فإياك والجهل والجهالة .

وفي الحديث : ((إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم)) .

فإن قال الجاهل : فماذا أفعل ؟

قل له : أمسك عليك لسانك .

فإن قال : لا أستطيع .

قل له : اعتزل مخالطة الناس إلا بقدر الضرورة ، وكفّ شركاً عن الناس ، وعن نفسك ، وارحم نفسك بإبعادها عن الآثام وإيذاء المسلمين وخذ هذه الحكاية عبرةً وتذكراً :

مرّ بعض الصالحين - حال سياحته - على جبلٍ عالٍ فرفع رأسه فإذا إنسان عابد عليه سيما الصلاح ، مقيم ثمة - أي : هناك - .

فقال : السلام عليكم ، ماذا تفعل هنا ؟

فقال العابد : عندي كلب عقور يؤذي الناس . . وما قدرتُ على أن أكفَّ
أذاه إلا بالبعد ، فأويتُ إلى حيث ترى - فودَّعه بخيرٍ وانطلق .

وأراد بالكلب العقور لسانه المؤذي ، الذي يَعقر ويعض فلاناً وفلاناً وفلاناً
. . . إلخ .

فاسجن لسانك العقور حتى يطيب ويطهر ، ويصير لسانك لسان رجل
مسلم وقور تُكلم الناس بكلام طيب ، دون جرح وإيذاء والكلمة الطيبة
صدقة ، كما ورد في الحديث .

روى الإمام أحمد والحاكم وصححه عن جابر بن سليم قال أتيت رسول الله
صلى الله عليه وعلى آله وسلم في بعض طرق المدينة فقلت : عليك السلام
يا رسول الله .

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((عليك السلام تحية الميت)) .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((سلام عليكم سلام عليكم سلام
عليكم)) - أي : هكذا قُلْ - .

قال : فسألته عن الإزار فأقنع ظهره ، وأخذ بمعظم ساقه فقال : ((ههنا
انتزر - أي : نصف الساق - فإن أبيت فههنا أسفل من ذلك ، فإن أبيت
فههنا فوق الكعبين^١ ، فإن أبيت فإن الله لا يحب كل مختار فخور)) .

فسألته عن المعروف^٢ .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو
أن تُعطي صِلَةَ الحبل ، ولو أن تعطي شِسْعَ النعل^٣ ، ولو أن تُفْرِغَ من
دلوك في إناء المستقي ، ولو أن تنحِّي الشيء عن طريق الناس يؤذيهم ،
ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق ، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه ،
ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض .

^١ هذا في حق الرجل خاصة دون المرأة .

^٢ أي : أعمال الخير والمعروف والبر .

^٣ زمام النعل .

وإن سبَّك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم فيه نحوه فلا تسبّه فيكون أجره لك ووزره عليه .

وما سرّاً أذنك أن تسمعه فاعمل به ، وما ساء ذلك أن تسمعه فاجتنبه))¹ .

وفي البخاري وغيره أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه)) .

وفي رواية الترمذي : ((والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله تعالى)) .

ما يباح من الغيبة

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : إعلم أنّ الغيبة تُباح لغرض شرعي صحيح لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهي ستة أبواب :

الأول : التظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول : ظلمني فلان بكذا وكذا - والمعنى أنه يشكو ظلم الظالم لمن يستطيع ردّ ظلمه .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد العاصي إلى الصواب ، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا وكذا فازجره عن ذلك ونحو هذا - ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر ؛ وإن لم يقصد ذلك كان حراماً .

الثالث : الاستفتاء : فيقول للمفتي : ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له في ذلك ؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ، ودفع الظلم ونحو ذلك - فهذا جائز للحاجة ، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول : ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا وكذا ؛ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ، ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى .

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، وذلك من وجوه :

¹ الحديث كما في (الدر المنثور) وغيره .

منها : جَرَحَ المجروحين من الرواة والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين ، بل واجب للحاجة .

ومنها : المشاورة في مصاهرة إنسان ، أو مشاركته ، أو إيداعه ، أو معاملته أو غير ذلك ، أو مجاورته - ، ويجب على المشاور أن لا يُخفي حاله ؛ بل يذكر المساوىء التي فيه بنية النصيحة .

ومنها إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مُبتدع ضالّ أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحته ببيان حاله ؛ بشرط أن يقصد النصيحة وهذا مما يُغلط فيه ، وقد يحمل المتظلم بذلك الحسد ، ويلبس الشيطان عليه ذلك ، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك .

ومنها : أن يكونَ له وظيفة لا يقوم بها على وجهها إما بأن لا يكون صالحاً لها ، وإما بأن يكون ظالماً متشديداً ؛ أو مُغفلاً ونحو ذلك ، فيجب ذكر ذلك لمن له الولاية العامة ليزيله ويولّي من يصلح ، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به ، وأن يسعى في أن يحثّه على الاستقامة أو يستبدل به .

الخامس : أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته ، كالمجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وأخذ المكس ، وجباية الأموال ظلماً ، وتولي الأمور الباطلة ، فيجوز ذكره بما يجاهر به ، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر .

السادس : التعريف : فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش ، والأعرج ، والأصم ، والأعمى ، والأحول ؛ وغيرهم جاز تعريفهم بذلك ، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص ، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى - .

فهذه ستة أسباب¹ ذكرها العلماء ، وأكثرها مُجمع عليه ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة فمن ذلك :

¹ قال الشارح : وقد جمعها الشيخ كمال الدين بن أبي شرف في قوله :
القدح ليس بغيبة في ستة متظلم ومعرف ، ومحذر

عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ((اأذنوا له ببس أخو العشييرة)).

(متفق عليه)

احتج به البخاري على جواز غيبة أهل الفساد ، وأهل الريب .

وعنها رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً))^١ .

وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقلت : إنَّ أبا الجهم ومعاوية بن أبي سفيان خطباني .

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أما معاوية فصُعْلوك لا مال له ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه))^٢ .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي : لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفقوا ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل .

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبرته .

فأرسل إلى عبد الله بن أبي فاجتهد يمينه ما فعل .

ومجاهر بالفسق ، ثمة سائل ومن استعان على إزالة منكر

ونظمها بعضهم في قوله :

لكل غيبة جَوْرٌ وخذا
منظمة كأمثال الجواهر

تظلم ، واستعن ، واستفت ، حَذَّرَ وعرف وانكرن فسق المجاهر

^١ رواه البخاري ، قال : قال الليث بن سعد - أحد رواة هذا الحديث : هذان الرجلان كانا من المنافقين .

^٢ متفق عليه ، وفي رواية لمسلم : ((وأما أبو الجهم فضراب للنساء)) ، وهو تفسير لرواية ((لا يضع العصا عن عاتقه)) ، وقيل : معناه كثير الأسفار .

فقالوا : كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فوقع في نفسي مما قالوه شدة حتى أنزل الله تعالى على نبيه تصديقي {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} .

ثم دعاهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم^١

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إنَّ أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يُعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أَخَذْتُ منه ، وهو لا يعلم .

قال : ((خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف))^٢ ، اهـ ما ذكره الإمام النووي رضي الله عنه .

قوله تعالى : {فَكَرِهْتُمُوهُ} .

وفي هذا حَمَلٌ لكل عاقل على الإقرار بكراهية ذلك قطعاً ، وعدم المحبة والميل لذلك ، وإِثْمًا كُنِيَ عن الغَيْبَةِ بأكل لحم الإنسان ، وأوعد الذي اغتاب ولم يَثْبُ بأكل لحم أخيه ميتاً ؛ ذلك لأنَّ الغيبة فيها ذكر المثالب والمعائب ، وفيها تمزيق الأعراض والطعن فيها ، وهذا مماثل لأكل لحم الإنسان بعد تمزيقه وتقطيعه في كونه مستكرهاً ومستقبحاً في الشرع الحكيم ، وعند أهل العقل السليم ، والذوق الصحيح ، وقوله تعالى : {لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً} وهكذا المغتاب لا يشعر .

وقوله تعالى : {أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ} .

هذا استفهام إنكاري جاء لبيان أنَّ الأمر منكر جداً ، وأنَّ أحداً من العقلاء لا يُحِبُّ أَكْلَ لحم أخيه ميتاً ، ولا يميل إلى ذلك أدنى ميل ، كما أنَّ من اغتاب غيره فإنَّه كأكل لحمه ، لأنَّ اللحم ساتر للعظام ، والشاتم الذي يغتاب غيره كأنه يَقْشُرُ ويكشف ما عليه من ستار أسبله الله تعالى عليه ، فهو مثل لآكل اللحم الذي كسا الله تعالى به العظام - والفاء في قوله تعالى:

^١ متفق عليه .

^٢ متفق عليه .

{فَكَرِهْتُمُوهُ} - فاء وقعت في جواب الشرط المقدر ، ويقدر معه قد ، والمعنى : إن تيسر لكم ذلك ، أو عرض على أحدكم ذلك فقد كرهتموه ، فإنه لا يمكنكم أن تُنكروا كراهيتكم لذلك ، فكيف تَقعون في غيبة غيركم وأنتم تعلمون وتُقرّون بقبيح ذلك ، ونفرتكم من ذلك ، وكراهيتكم الشديدة لذلك ؟ !!

كما أنكم تعلمون أنّ من اغتاب إنساناً فإنه سوف يُقدّم إليه لحمه ميتاً ويقال له : كله ميتاً كما أكلته في الدنيا حياً ، فيأكله ويكلح كما تقدم في الأحاديث الواردة في ذلك على وجوه متعددة .

فقوله تعالى : {فَكَرِهْتُمُوهُ} هذا تقرير لهم بكراهيتهم لذلك ، فكيف يُقدمون على الوقوع في ذلك ؟ ! ففيه غاية التحذير من الغيبة والإبعاد عنها - فافهم.

وفي هذا بيان إلهي عن حقيقة الغيبة ، وعن مَوْقف المغتاب مع الذي اغتابه، وأنه موقف شنيع للغاية ، وقبيح ومكروه كل الكراهة ، بل ولا أقبح ولا أشنع ولا أبشع ولا أشد وحشية عند العاقل من ذلك ، فكيف يُقدم على ذلك الرجل المؤمن ، ويقتحم تلك القباحات والشناعات والوحشية ، لينال من أخيه المؤمن ؟ !!

الله أكبر الله أكبر ، فإنه ليس هناك أبلغ من هذا التنفير ، ولا أقوى من هذا التحذير ، الذي جاء عن العليم الخبير سبحانه وتعالى .

ولكن وأسفاه لكثير من المسلمين والمسلمات ، يمرون على هذه الآية وأمثالها وهم عنها معرضون ، ولا يتذكرون ولا يتعظون ، ولا يخافون ولا يحذرون ، بدعوى أنهم لا يغتابون ، ويقولون في أنفسهم إنهم ليسوا من المغتابين لغيرهم ، وإنما المراد بالآية غيرهم ، وهكذا غيرهم يقول ذلك أيضاً ، وكلُّ واحد يزعم أنه ليس منهم .

فيقال لهم : إذا كان الأمر كذلك فهذا الخطاب الإلهي والنداء الرباني بقوله: {يا أيها الذين آمنوا} - إلى قوله تعالى : {وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا} هذا الخطاب لِمَنْ هو ؟ فإنه سبحانه يخاطب المؤمنين ، وإذا كان كل واحد

منهم يقول : أنا لست منهم ، فمن هو الذي منهم - أهم اليهود ، أم المشركون ، أم الكفرة ؛ كلا - فإنّ الخطاب للمؤمنين .

فاحفظ لسانك أيها المؤمن ، بل احفظ جنانك ولا تقع في المؤمنين ، فإنّ المحاسب خبير وبصير ، قال تعالى : {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} .

وإنّ أخطر شيء على الإنسان هو اللسان ، فإنه يُعَرِّضُ صلاح الصالح للفساد ، ويُعَرِّضُ الحسنات للبطلان .

ولذلك جاء في حديث سيدنا معاذ رضي الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم: ((وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)) الحديث .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله : ((إذا أصبح ابن آدم فإنّ الأعضاء كلّها تكفّر اللسان فتقول : اتق الله ، فينا فإنما نحن بك ؛ فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا))¹ .

قوله تعالى : {واتقوا الله إن الله تواب رحيم} .

والمعنى : واتقوا الله في جميع المناهي التي نهاكم فيما سبق ؛ وأولها الغيبة وما قبلها التجسس ، وسوء الظن ، والسخرية ، واللمز والنبز بالألقاب ، وعدم التثبت في الأخبار التي تردكم ، وأعظم تلك المناهي التقدم على الله تعالى ، والتقدم على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أمر من الأمور ، أو بعمل من الأعمال التي لم يشرعها لكم ، وكذلك من أعظم المناهي سوء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعدم الاحترام والتعظيم والتكريم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، بأنّ يصدر

¹ رواه الترمذي وغيره .

قال في (النهاية) : المراد بالتكفير هنا هو أن ينحني الإنسان مريضاً في رأسه قريباً من الركوع . . إلخ يعني أنّ الأعضاء تتواضع للسان راجية منه أن لا يوقعها في المهالك ، فهي تسأله راجية منه ذلك مع التواضع له ليستجيب اللسان رجاءها ، فيحافظ عليها من المتالف والمخاوف - فالمراد بالتكفير هنا التواضع بطأأة الرأس

ذلك منكم عن غفلة أو سهو ونسيان ، فإن ذلك يُهددكم بحبوط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، وأما إن صدر ذلك منكم على وجه التقصد أو الإيذاء أو الإستهانة فذلك كُفر صريح ؛ يُخرجكم عن دائرة الإسلام ، قال تعالى :
{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْنُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} .

فاتقوا الله أيها المؤمنون - أي : توقوا غضب الله تعالى وعذابه ، وعقابه وعتابه وحجابه ، فإنّ الذنب يختلف حسب حال المذنب حين يرتكبه ، ولكل ذنب عقوبة مماثلة .

فمن العقوبات حجاب القلب عن الله تعالى قال تعالى : {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} فران على قلوبهم ظلمات ذنوبهم التي ارتكبوها وكسبوها ، فهم المتسببون فيها باختيارهم فعل الذنب ، وبارادتهم ومحبتهم، فكان ذلك سبب حجابهم عن ربّهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}.

فقد ذكر سبحانه ذلك عن الكفار ، ولكن يُسمّع عباده المؤمنين ، ويحذرهم أن يقعوا في مثل ذلك أو ما يقاربه .

ومن اللطائف : ما قاله بعض الأجلة من العلماء : إنّ الله تعالى ختم كلاً من الإثنين بذكر التوبة رحمة بعباده ، وتعطفاً عليهم في هذه الآية ، والتي قبلها ، لكن لما بُدئت الأولى بالنهي ختمت بالنفي الوارد في قوله تعالى :
{وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .

ولما بدئت الثانية بالأمر بقوله {اجتنبوا} ختمت به في قوله تعالى : {وَاتَّقُوا اللَّهَ} ، وكان ذكر كلمة التهديد الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى : {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} لأنّ ما فيها أفحش ، لأنّه إيذاء في حضور الإنسان بالسخرية منه واللمز والنبز ، بخلافه في الثانية فإنّه أمر خفي ، إذ كلُّ من الظن والتجسس والغيبة قائم على أساس الإخفاء ، وعدم علم المتكلم به غالباً .

{إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} .

جملة تعليلية مُعللة للأمر في قوله تعالى : {وَاتَّقُوا اللَّهَ} ويسمى عند البيانين استئناف بياني ، يأتي جواباً عن سؤال مقدر اقتضته الجملة السابقة ، ولذلك موضعها الفصل لا العطف ، والمعنى : اتقوا الله بانتهائكم عما نهاكم ، وتوبوا إليه مما صدر منكم ، لأنه تعالى تواب رحيم لمن اتقى، واجتنب ما نُهي عنه ، وتاب مما فرط منه .

{تَوَابٌ} صيغة مبالغة ، وهو المبالغ في قبول توبة التائبين والتوابين ، ووجه المبالغة : **إِمَّا بِاعْتِبَارِ الْكَيْفِ** فإنه سبحانه يجعل التائب من الذنب كمن لا ذنب له أو **بِاعْتِبَارِ الْكَمِّ** لكثرة التوبة على المتوب عليهم ، أو لكثرة ذنوبهم وقوة مَحْوِ توبته عليهم جميع آثار ذنوبهم مهما كثرت ، وجميع هذه الوجوه صحيحة وثابتة ، ولا يناقض بعضها بعضاً ، بل كلها متلازمة لا تنفك عن بعضها .

{رَحِيمٌ} أي : بالرحمة الخاصة المشار إليها بقوله تعالى : {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} وقد خَصَّ التائب برحمة منه فيغفر لهم ذنوبهم ، ويبدل سيئاتهم حسنات ، فيكتب مكان كل سيئة تاب منها حسنة ، ويرحمهم فيدخلهم الجنة .

قال تعالى : {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} فله رحمة خاصة بعباده المؤمنين بسبب إيمانهم - وقد بَحِثْتُ في الفرق بين هذين الاسمين العظيمين في تفسير سورة الفاتحة ، فارجع إليه ينفعك بإذن الله تعالى .

حكم الغيبة

وما يجب على التائب منها

حتى يبرأ من المسؤولية يوم القيامة

أما حكمها : فالغيبة هي حرام ، وهي من الكبائر التي يجب التوبة منها فوراً كبقية الكبائر .

قال العلامة القرطبي في تفسيره : لا خلاف أنَّ الغيبة من الكبائر ، وأنَّ من اغتاب أحداً فعليه أن يتوب إلى الله عز وجل . اهـ .

وقالت فرقة قليلة : إنَّ الغيبة تُعتبر من الصغائر ، ولهم أدلة ولكن ليست
قطعية كما سيتضح لك ، وأما جماهير العلماء فقالوا : إنها كبيرة
واستدلوا على ذلك :

أولاً : إن الله تعالى ذكر الغيبة في جملة المنهيات المحرمة التي هي كبائر
بلا شك : السخرية ، والنبز بالألقاب ، واللمز ، فهذه كبائر بدليل قوله
تعالى بعدها : {بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ} ، ثم نهى عن الظن والتجسس وكلاهما من الكبائر - أي: الظن
السوء بدليل: {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} ولما ذكر الغيبة شنع على الواقع فيها
تشنيعاً بليغاً ، ثم عقب ذلك بما فيه تحريض وحث على التوبة ، وجميع
ذلك دليل على أنَّ الغيبة من الكبائر .

ثانياً : إنَّ نصوص السنة جاءت تنصّ على تحريمها في جملة المحرمات
القطعية ، ومن ذلك الحديث : ((كل المسلم على المسلم ، حرام دمه وماله
وعرضه))^١ ومن المعلوم أنَّ الغيبة راجعة إلى العرض الذي هو موضع
المدح والقدح ، وقد جاء في الحديث : ((وعرضه حرام عليه أن يغتابه))^٢ .

ومن المعلوم أنَّ لفظ التحريم يدل على عظم الذنب وكبره ، ولم يأت في
جانب الصغائر .

قال تعالى : {حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخَنزِيرُ . . } ، إلى تمام
الآية ونحو ذلك من آيات التحريم . .

وأما الصغائر فقد سمّاها الشارع مُحقرات الذنوب ، كما ورد عنه صلى الله
عليه وعلى آله وسلم : ((إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً))
وأشبهه هذا الحديث .

وقد سماها في القرآن سوءاً في مقابل الفحشاء أو نحوها قال تعالى : {كذلك
لنُصرف عنه السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ} فالسوء الصغائر ، والفحشاء هي الكبائر -
وأما إذا أُفرد السوء بالذكر فيعم الكبائر والصغائر ، قال تعالى : {وما

^١ متفق عليه .

^٢ رواه الترمذي .

عَمِلَتْ مِنْ سُوءِ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا{ الآية - وليس هذا موضع تفصيل هذه الفوارق وأشباهاها .

ثالثاً : إنّ الغيبة من الكبائر ؛ بدليل ورود الوعيد الشديد لفاعلها ، وأنّه يُعذب في قَبْره كغيرها من الكبائر ، كما جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال بينا أنا أمشي ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أخذ بيدي ورجل عن يساره ، فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنّهما ليعذبان وما يعذبان كبير - وبلى)) إلى أن قال : ((وما يعذبان إلا في الغيبة والبول))¹ .

قال ابن الأثير : والمعنى: وما يُعذبان في أمرٍ كان يَكْبُرُ عليهما ويشق فعله. اهـ - لا أنّه في نفسه غير كبير، وكيف لا يكون كبيرة وهما يُعذبان فيه ، فالحق أنّ الغيبة من الكبائر ، لأنه قد عُدَّ بها صاحبها في القبر كما عذب على سائر الكبائر ، وسوف يُعذب عليها يوم القيامة .

ومن المعلوم أنّ الوعيد بالعذاب في القبر وفي الآخرة دليل كَبْر الذنب .

رابعاً : الحديث المتقدم في عذاب الذين يغتابون الناس ، واستقذار أهل النار لهم ، وتأذيتهم بنتتهم - فهذا دليل صريح أيضاً أنّ الغيبة من الكبائر ، وحيث كان الأمر كذلك فيجب على الذي يغتاب غيره أن يبادر إلى التوبة منها .

خامساً : إنّ تشبيه حال الذي يغتاب أخاه بالأكل من لحمه ميتاً وما في ذلك من الكراهية ، وتقزُّز النفس ونفرتها من ذلك ؛ هذا دليل واضح أنّ الغيبة كبيرة قبيحة جداً ، ولا سيما فيها أكل لحم أخيه ، وإذا كان اعتداؤه على دم أخيه كبيرة ، فكيف بالاعتداء على أكل لحم أخيه ؟ ! ، وإذا كان الاعتداء على شيءٍ من مال أخيه كبيرة ؛ فما بالك بأكل لحم أخيه ؟ ! ، وإذا كان الطعن بالسب والشتم لأخيه كبيرة ؛ فما بالك بأكل لحمه بالغيبة ؟ ! أفبعد ذلك هل يتصور أن تكون صغيرة ؟ . .

¹ رواه الإمام أحمد وغيره بسند صحيح .

وأَيُّ قول قبيح من سب أو شتم ما يبلغ بقائله قباحة من يأكل لحم أخيه ميتاً - فهي كبيرة من باب أولى .

وأما حجة القائلين بأن الغيبة من الصغائر فهي : أنّ الغيبة لو كانت من الكبائر للزم من ذلك فسق الناس كلهم إلا الفذّ النادر منهم - وهذا حرج عظيم .

ولكن هذا يُردُّ عليه بأنّ ارتكاب أكثر الناس للمعصية وفسوها فيهم لا يدلّ ذلك على كون تلك المعصية صغيرة ، ولا يوجب أنّ تكون صغيرة ، على أنّ ارتكاب أكثر الناس للغيبة هذا أمر حَدَثَ بعدُ ، ولم يكن قبل في صدر الأمة على عهد السلف الصالح من القرون الخيرية الثلاثة ، بل كانوا يحذرون كل الحذر من الغيبة ، ويحذرون الناس منها ، كما دلت على ذلك الأخبار عنهم .

ويقال أيضاً إنّ القول بأنها صغيرة لا ينهض بذلك الدليل ، لأنّ فسو الغيبة وانتشارها بين كثير من الناس دليل على الإصرار ، ومن المقرر بلا خلاف أنّ الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة ، فهذا فرار من وكفّ السقف إلى الجلوس تحت الميزاب .

ويجب على المسلم أن يعلم أنّ الزمان لا يُغيّر حكم الحرام والحلال ، فالحرام حرام ، والحلال حلال ، وذلك كله إلى الله تعالى ، فهو سبحانه المحلّل وهو المحرم ، وإنما يباح الحرام في حالات خاصة ، وهي حالة الاضطرار ما لم تتعلق بإيذاء الغير وانتهاك حقه - كما هو مفصل في كتب الفقه في كتاب الإكراه وغيره .

فامتداد الزمان وارتكاب الناس الحرام لا يُغيّر الأحكام ، فإنّ الدين الإسلامي جاء مطوّراً للبشرية ، ولم يأت متطوّراً مع التطورات البشرية وتقلباتهم على مدى العصور .

والمعنى أنّ الدين جاء يُطوّر الناس ، وينقلهم مما كانوا عليه في الجاهلية إلى الحضارة العلمية ، وينقلهم من الجهالة العملية إلى الأعمال الصالحة

الحسنة المرضية ، ومن العمى التقليدي لآبائهم الضالين إلى التعقل ونور الهدى والحق المبين .

فجاء مطوراً ناهضاً ورافعاً من حضيض الحيوانية والبهيمية إلى ذروة الكمالات الإنسانية الحقيقية .

ولو أنّ الدين جاء متطوراً مع الزمن ، ومع أهل الزمن ل جاء موافقاً للجاهلية على ما هم عليه من القبائح والهتات ، ووأد البنات ، وارتكاب المظالم والمنكرات ، وسيطرة القوي على الضعيف ، وتناول الخبائث ، وشرب الخمر ، وتعاطي الزنا والربا الذي كان منتشرأ بينهم ؛ إلى ما وراء ذلك من الهنات والسيئات ، - مع أنّه لم يوافقهم على شيء من ذلك ، بل نقلهم وطوّرهم وحولهم إلى العفة والحصانة ، والصيانة والرصانة ، والصدق والأمانة ، والرحمة وحب الخير ، والبعد عن الفساد والشر ، وهكذا دواليك .

وأما ما يقال في القاعدة الفقهية : تتبدل الأحكام بتبدل الأيام أو ما في معنى ذلك - فهذا كما بينه الفقهاء الذين هم وضعوا هذه القاعدة : أن المراد بذلك الأمور المبنية على عرف الزمن ، وأن يكون ذلك العرف لا يُناقض ولا يعارض نصاً شرعياً ، فقد يتبدل بعرف آخر فيتبعه الحكم ، وله أمثلة متعددة تحتاج إلى تفصيل واسع ، وقد ألقيت بك على الجادة فارجع إلى كتب الفقه وشروح المجلة ونحوها ترى تفصيل ذلك إن كان يهملك الأمر ، ولا تأخذ بكلام الجهال الموهم ، الذي يوقع في شبهات ، فإنّ الدين الإسلامي نُورٌ واضح لا خفاء فيه ولا التباس ، بل هو هُدى ونور لجميع الناس ، قال صلى الله عليه وسلم : ((الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)) الحديث .

التوبة من الغيبة :

لما كانت الغيبة من الكبائر وجبت التوبة منها كما في بقية الكبائر ، وذلك : بالإقلاع عنها ، وبالندم على ما فعله ، والعزم على أن لا يعود ، والتحلل

منها لأنها حق آدمي ومظلمة له كما تقدم في الحديث : ((من كانت عنده مظلمة في عرضه أو شيء من ذلك فليتحلله منه اليوم .)) الحديث .

واختلف العلماء في الاستحلال هل يكفي من الغيبة المجهولة أم لا بُدَّ أن يذكر له ما قاله بالتعيين ؟ نعم - في المسألة وجهان : والذي رجحه في (الأذكار) أنه لا بُدَّ من معرفتها ، لأنَّ الإنسان قد يَسْمَحُ عن غيبة دون غيبة ، وكلام العلامة الحلبي وغيره : الجزم بالصحة ، لأنَّ مَنْ سَمَحَ بالعفو من غير كشف عما قيل فيه فقد وطن نفسه عليه مهما كانت الغيبة . ويندب لمن سئل عن التحليل أن يُحلل أخاه مما قال أي : - بأن يسامحه - ويعفو عنه ، ولكن لا يلزمه ذلك ، لأنَّه تبرع منه بإسقاط حقه على غيره .

وكان جماعة من السلف الصالح رضي الله عنهم يمتنعون من التحليل مخافة التهاون في أمر الغيبة وهذا اجتهاد منهم خاص صادر عن نيَّةٍ صحيحة - ولكن الحكم العام أنَّ التحليل ، وإسقاط الإنسان حقه الذي ثبت له على غيره وقد طلب منه العفو والسماح ؛ فإنَّ الشرع قد ندب إلى ذلك ، وحثَّ عليه ، وحثَّ من عدم السماح إذا اعتذر إليه من بغى عليه وطلب منه السماح ، وأما إذا لم يعتذر ولم يطلب منه السماح فله أن يتمسك بعدم السماح .

روى الطبراني في (الأوسط) عن السيدة الكبرى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ونفعنا الله تعالى بها ، عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((عَفَّوا نساءكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناءكم ، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عذره لم يَرِدْ عليَّ الحوض)) .

وقد رواه الطبراني من طرق متعددة ، وروى الحاكم نحوه أيضاً .

قال الحافظ المنذري : وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ألا أنبئكم بشراركم؟)) .

قالوا : بلى يا رسول الله إن شئت .

قال : ((إن شراركم الذي ينزل وحده)) - وفي رواية : ((شراركم الذي يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رِفْدَه - أي : عطاءه وإحسانه فهو شحيح - أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟)).

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله .

قال : ((من يبغض الناس ويبغضونه)).

قال : ((أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟))

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله .

قال : ((الذين لا يُقِيلون عَثْرَةَ^١ ، ولا يقبلون معذرة^٢ ، ولا يغتفرون ذنباً))^٣

قال : ((أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟))

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله .

قال : ((من لا يُرجى خيره ولا يؤمن شره)).

قال العلماء : والذمي كالمسلم في كل ما يرجع بالإيذاء والضرر عليه ، ومن ذلك الغيبة ، فإنَّ الشرع قد عَصَمَ دمه وماله وعرضه .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من سمع يهودياً أو نصرانياً فله النار)).

والمراد : أن يُسمَع يهودياً أو نصرانياً ما يؤذيه .

وأما الحربي وهو الذي راح يبغي على المسلمين ، ويسعى في أذاهم وإضرارهم في بلادهم وأولادهم وأموالهم ، أو أعراضهم مُعلنًا عداوته عليهم وشراسته ، فإنَّه يحارب ويقاوم ولا عصمة له ، ولا غيبة له ، لأنَّه نَقَضَ العهود والمواثيق ، فإنَّه لا عهد له ولا ذمة ، فإنَّ دين الإسلام لا

^١ أي : لا يصفحون عن زَلَّات الناس ، ولا يسمحون عنهم إذا قصرُوا معهم .

^٢ لا يقبلون عذر من اعتذر إليهم من هفوة معهم .

^٣ لا يغفرون ذنب من أذنب معهم .

يَرْضَخُ لِلذَّلِّ ، وَلَا إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ ؛ وَإِنْ كَانَ يُدْعُو إِلَى السَّلْمِ وَالسَّلَامِ ، وَلَكِنْ بِالْعِزَّةِ وَالْإِعْظَامِ ، وَمَعَ الْإِحْتِرَامِ لِكُلِّ مَنْ يَحْتَرَمُ الْإِسْلَامَ ، وَالْحِفَافِ عَلَى حُرْمَاتِ النَّاسِ جَمِيعاً مَا دَامُوا يُحَافِظُونَ عَلَى حُرْمَاتِ الْإِسْلَامِ ، وَيُرْعَوْنَ حُقُوقَهُ الْأَدْبِيَّةَ ، فَهُوَ بِالْمُقَابِلِ يِرَاعِي حُقُوقَهُمُ الْأَدْبِيَّةَ تَامَةً كَامِلَةً .

قال تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } .

فالتعامل معهم يجبُ أن يصحبه اللطف والبر ، قائماً على القسط والعدل ، دون غش لهم ولا بخس لحقوقهم ، ولا خيانة ، ولا غبن ، ولا ظلم ، ولا بغي ، ولا اعتداء ولا إيذاء ، بالقول ولا بالعمل ؛ هذا كله مقتضى البر إليهم ، والقسط معهم كما هو واجب المسلمين مع بعضهم بعضاً ، هذا هو دين الإسلام - ولكن أين أكثر المسلمين ؟ !! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ولذلك يجب على كل عاقل وعاقلة أن يعلماً أنه ما من أمر فيه خير للعباد وسعادة لهم ، وحصانة لهم ، وصيانة وسلام لهم ، وحضارة وتقدم في ميدان الرقي الثقافي والخُلقي والأدبي والاجتماعي ، وكل ما فيه حفظ الأموال والأعراض ، وحقن الدماء ، إلى ما وراء ذلك إلا وقد جاء دين الإسلام به على أكمل وجوه الكمال ، وأحكم وجوه الحكمة ، وأسد طرق السداد ، وأرشد سبل الرشاد ، التي فيها خير العباد والبلاد .

وما من شيء يترتب عليه فساد أمر العباد ، ويُلحق الضرر بالبلاد على مختلف أنواع الفساد ؛ إلا وقد نهى عنه ، وَحَدَّرَ مِنْهُ ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهِ ، وَهَدَّدَ وَأَنْذَرَ وَحَدَّرَ - فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ نِظَامُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ ، وَقَدْ أَحْكَمَ أَحْكَامَهُ وَأَكْمَلَ نِظَامَهُ ، فَأَحَلَّ حَلَالَهُ ، وَحَرَّمَ حُرَامَهُ ، وَارْتَضَاهُ دِيناً : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً } .

وإنّ وضع الأنظمة تابع لحكمة الواضع ، وحكمته تابعة لعلمه سعة وضيقاتاً ، فمن هو أوسع علماً من الله تعالى ؟ وأحكم حكمة منه حتى يكون نظامه أكمل من نظام شريعة الله تعالى ؟ فإنه سبحانه وسّع كل شيء علماً ، وأكمل كل ما شرعه حكمة وحُكماً ، قال تعالى : {كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم} .

والبحث في هذا الموضوع واسع المجال ، والتفصيل قطعيّ الحجة ، والدليل عقلاً وذوقاً وفطرة وفكرة وواقعاً - وربما يأتي في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ التحلل من الغيبة ليس بواجب على من وقع في غيره ، وقال : هي مظلمة وكفارتها الاستغفار لمن اغتابه ، واحتجوا بحديث عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((كفارة من اغتابته أن تستغفر له)) وقد ردّ الجمهور هذا القول من عدة وجوه :

أولاً : أنّ هذا القول فيه تناقض ، فكيف تكون مظلمة وكفارتها الاستغفار - فإنّ الغيبة هي من المظالم المتعلقة بالعرض ، فإنّ كونها مظلمة تُثبت ظلامة المظلوم ، فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له ما لم يتعذر لقاءه ؛ كالعائب الذي لم يعد ، وكالميت فينبغي أن يُكثر لهما الاستغفار ، والله هو الغفور الرحيم .

ثانياً : وأما استدلالهم بحديث : ((كفارة من اغتابته أن تستغفر له)) فقد أخرج البيهقي في (الشعب) وقال : إسناده ضعيف ، وقد اقتصر الحافظ العراقي في (تخريج الإحياء) على تضعيفه ، فهو حديث ضعيف لا يُعارض الصحيح في البخاري وغيره ، ومنه قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فليتحلّله منه اليوم)) الحديث كما تقدم .

وقد جاء أيضاً في رواية الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلّله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا

درهم ، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه فكانت عليه)) .

ثالثاً : يقال إنه على فرض ثبوت هذا الحديث الضعيف فهو محمول على أن يطلب له المغفرة من الله تعالى إن تعذرت مراجعته واستحلاله ، وإلا تعين عليه الاستحلال ما لم يترتب على طلب الاستحلال مفسدة كبرى؛ بأن يكون الذي اغتیب حادّ المزاج ، ضيق الخلق ، شحيح النفس غير صفوح ولا سموح ، وربما يزداد غيظه ، ويشتد لؤمه ، وتأخذه الحدة فيضطرب بشدة ، فإذا تحقق ذلك منه فليستغفر له لعل الله تعالى يغفر لهما.

على أن الغيبة ليست في مستوى واحد ، فهناك غيبة فيها نوع من الإيذاء نحو ذكر العيب في الملبوس ، أو في الدابة ، أو في شبه ذلك فهذا إيذاء وربما كفره الاستغفار لمن اغتابه ، ولكن هناك غيبة فيها إيذاء كبير ، وتطول خطير ، لا شك أنه من الكبائر التي لا بد من التحل منها ، أو وقفة يوم الحساب عند رب الأرباب ، وذلك كغيبة الأولياء الصالحين ، وغيبة العلماء العاملين المتقين ، وعباد الله تعالى الأتقياء الأخفاء المخلصين ، الذين إذا غابوا لم يُفقدوا ، وإذا حضروا لم يُذكروا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء - أي : فتنة - مظلمة .

وغيبة المؤمنين من العوام ذوي سلامة الصدور والقلوب من الحقد والحسد والغلّ والغش والكبر ، وحب الظهور والترفع ، أولئك الذين ذكروا هم أحباب الله تعالى ، وموضع نظره من خلقه ، يغار الحق سبحانه عليهم ، فيرسل الغارة على من آذاهم ، تعرفهم بسيماهم إن كنت صاحب بصيرة ، وإن كنت أعمى البصيرة فسل أهل البصائر ، وباعد نفسك من المخاوف والمتالف والمخاطر - فإني لك من الناصحين ، نفعنا الله تعالى بجميع عبادته المؤمنين الصادقين ، أينما كانوا وحيثما كانوا من الخواص أو من العوام .

وتحرم غيبة الصبي والمجنون على القول الصحيح عند العلماء ويبقى حق مطالبتهما ممن اغتابهما إلى يوم القيامة ، وذلك إن تعذر الاستحلال منهما بأن مات الصبي صبيّاً ولم يبلغ ، ومات المجنون مجنوناً ولم يفق من جنونه ، فيبقى حَقهما معلقاً إلى يوم القيامة ، ولكن يُسقط الله تعالى حقه

تفضلاً - إذا تاب وندم المغتاب ، لأنَّ الغيبة يتعلّق بها حق الله تعالى حيث وقع المغتاب فيما نهاه الله تعالى عنه ؛ وهذا يسقط بالتوبة النصوح ؛ وحق الذي اغتابه لا بد فيه من الاستحلال ، وإن لم يقع في الدنيا توقف على الآخرة لفصل القضاء الذي قال تعالى فيه : {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} .

فعلى العاقل أن يأخذ حذره ويُصلح أمره . . .

تذكرة واعتبار

لما ذكر سبحانه عقد الأخوة بين المؤمنين ، وأمرهم أن يرعوا حقوق تلك الأخوة التي عقدها الله تعالى بينهم ، لأنَّه سبحانه هو سوف يسألهم عن تلك الأخوة التي عقدها بينهم ، وعهد بذلك إليهم ، قال تعالى : {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً} .

وتلك الحقوق منها إيجابية يجب تحقيقها وتأديتها لبعضهم ، وقد بينها صاحب البيان عن القرآن الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهي كثيرة منها : السلام ورؤده ، والنصيحة ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ، وأن يلقى أخاه بوجه طلق مع البسامة دون غلظة ولا فظاظة ، وأن وأن . . كما تقدم في الأحاديث .

وهناك حقوق سلبية يجب البعد عنها ، لأنَّ فيها إيذاء لأخيه المؤمن ، وهي تُسمى المناهي : كالسخرية ، واللمز ، والنبز بالألقاب السيئة ، وسوء الظن ، والتجسس ، وتتبع زلات أخيه ، والتطلع والبحث عن عثراته وعوراته ، والغيبة .

ويجب أن يُبعد عن كل ما فيه أذى لمسلم ، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((ليس منّا ذو حسدٍ ولا نميمة ولا خيانة ولا إهانة)) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً} .

فإياك أن تهين مسلماً ، أو تؤذيه بنوع من الأذى فيشملك هذا الوعيد الشديد، المذكور في الآية الكريمة .

فجميع تلك الأمور منهي عنها ، ويجب البعد عنها ، والتحقق بضردها ، فيكرم أخاه المؤمن ، ويعظمه بدلاً من السخرية والهزاء به ، ويلقبه بالألقاب الحسنة بدلاً عن السيئة ، ويظنُّ به الظنَّ الحسن بدلاً عن الظن السيء ، ويستتر عليه عوراته ويخفيها ما استطاع ، ويتغاضى عنها بدلاً من تتبعها والتطلع إليها ، ويذكر أخاه بما يحب أن يُذكر به في حضوره وغيبته بدلاً من العكس . .

واعلم أن الذي يُحاسب على تلك الحقوق ويسأل عنها هو الله تعالى ربِّ العالمين ، فإن الإنسان قد يتكلم فيه ويغتابه بعض الناس ، وقد يسخرون به وهو لا يشعر بذلك ، ولكنَّ الله تعالى رب العباد يرى ذلك ويسمع ، وهو بعباده خبير بصير ، فسوف يُوقف صاحبَ الحق ومن انتهك حقوقه الإيمانية ، فيحاسبه عليها ويعاقبُ من قصّر فيها ، حتى يؤدي صاحب الحق حقه ولو لم يدْر بأن له حقاً ، قال تعالى : { إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً } ، وقال تعالى : { يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ } الآية .

واعتبر وتدبر في الحديث الآتي تعلم أنَّ العهد هو عهد الله تعالى ، عهد به إليهم ، وهو يسأل عما عهد إليهم ؛ بأداء حقوقهم وعدم انتهاكها .

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يقول الله تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ؟

قال : يا ربِّ كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده .

يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمني ؟

قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا اسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطْعِمَهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ
أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني .

قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ .

قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا اسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطْعِمَهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ
أَسْقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي)) .

وهكذا كلما كان العبد المؤمن أقرب إلى الله تعالى وأتقى الله تعالى كان
السؤال عن حقوقه أشد ، كما يشير إليه الحديث المتقدم في قوله : ((أما
علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده)) وذلك لأنه عبد منكسر قلبه إلى الله
تعالى ، ومقبل بقلبه على الله تعالى .

وفي الأثر : ((أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)) .

فأهل الانكسار هم أهل القرب والحب والافتقار؛ ترى الله تعالى عندهم ،
وأما أهل التكبر والتجبر أولئك أهل الطرد والبعد وإمامهم إبليس الذي قال
الله تعالى له : {قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك
من الصاغرين} .

فأبعده عن حضرته ، فكيف تجد الله تعالى عنده ، أو عند عشيرته ؟ !!

جعلنا الله تعالى وإياكم من أهل الانكسار إلى الله تعالى ، الذين هم أهل
الاعتزاز به والافتخار .

جاء في الحديث عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : لما نزلت : {ثُمَّ
إِنكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} .

قلت : يا رسول الله أتكرّر علينا الخصومة ما كان بيننا ؟

قال : ((نعم ، ليكرّر ذلك حتى يؤدّي إلى كلّ ذي حقّ حقه)) .

قال الزبير:

فقلت : إنَّ الأمر إذاً لشديد^١ .

ثم اعلم أيها المسلم وأيتها المسلمة : أنَّ تلك الحقوق الإيمانية هي حقوق ثابتة لكل مؤمن ومؤمنة ، على كل مؤمن ومؤمنة ، وهي موجب عقد الأخوة الذي عقده الله تعالى بينهم كافة ، لا فرق فيها بين مَنْ عرفت ومن لم تعرف من المسلمين ، وبين مَنْ صاحبتَه أو لم تصحبه ، وبين من آخيته أو لم تؤاخه .

وأما الحقوق المترتبة على الأخوة بالتآخي ، أو القائمة على أساس الصحبة الخاصة والصدقة الصادقة الخالصة فهي تزيد على حقوق الأخوة العامة بين سائر المؤمنين .

فحقوقها على الأصحاب والأصدقاء هي أقوى وأشد ، وهو الصديق الذي ذكره الله تعالى بقوله : { **أَوْ صَدِيقِكُمْ** } فهذا الصديق ألحقه الله تعالى بالآباء والإخوة النسبية الرحمية ، والأخوات والأعمام والأخوال ؛ من حيث المحبة واحتكام الألفة ، والقيام بواجبها ، ورفع التكلف والكلفة من بين الأصدقاء قال الله تعالى : { **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون** } من سورة النور .

^١ رواه الترمذي ، والإمام أحمد ، وعبد الرزاق ، والحاكم ، والطبراني كما في (الدر المنثور) وألفاظهم تختلف يسيراً . فالذنوب الخاصة بهم وفيهم وبين ربهم يُسألون عنها ، ويُسألون عن الحقوق بينهم أيضاً ، وهنا يجري بينهم التخاصم ، { **كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا** } ، وفصل القضاء لربِّ الأرض والسماء ، فهو يحكم ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .
فما عليك أيها العاقل إلا أن تُؤدي ما عليك من الحقوق الدموية والمالية والعرضية التي يدخل فيها الحقوق الأدبية والاجتماعية - فافهم .

وفي سبب نزول هذه الآية أقوال متعددة ، والظاهر مِنْهَا قولان ، ولا تعارض بينهما ، لأنَّ العبرة لعموم الكلم لا لخصوص السبب .

القول الأول : هو ما رواه الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يوعبون في النفير - أي : يخرجون بجموعهم في المغازي - مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضمناهم ¹ ، ويقولون لهم : إن احتجتم فكلوا - أي : من بيوتنا - فكان الضمى يقولون : إنما أحلُّوه لنا من غير طيب نفس ، والله تعالى يقول : {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل} فكانوا يتحرَّجون من أكل ما في بيوت المجاهدين ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ . { الآية .

القول الثاني : قول ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أنَّ أهل الأعدار - الثلاثة - تخرجوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم فنزلت الآية تبيح لهم ذلك بلا حرج . اهـ .

وإنما كانوا يتخرجون من أن تقذرهم الناس ، أو ترى فيهم ما يكرهونه ، كمدَّ رجل الأعرج ، ورائحة المريض من عرقه ، ومن أعمال الأعمى حين يتناول الطعام ، فكان هؤلاء الزمى يتخرجون مخافة ، إيذاء مؤاكلهم ، فنزلت الآية ترفع الحرج ، وهي عامة لهؤلاء ومن بعدهم ، فإنَّ العبرة لعموم الكلام لا لخصوص السبب ، فرفع سبحانه الحرج عن هؤلاء الزمى في تخلفهم عن الجهاد في سورة الفتح ، ورفع الحرج عن أكلهم من بيوت المجاهدين التي استلموها ؛ رفع عنهم الحرج في هذه الآية ، فلا تكرر بين ما هنا وهناك ، كما رفع الحرج عن المؤكلة معهم .
قوله تعالى : {ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم} .

¹ الضمى : المراد بهم هنا الزمى جمع ضمٍ كزمن ، اهـ كما في القرطبي وابن كثير ، والمراد أنهم يدفعون إلى العاجزين عن الخروج - يدفعون إليهم مفاتيحهم لحفظ أموالهم ، فهم ضامنون وكفلاء ،

هذا ابتداء كلام ، وشروع في أحكام تناول الطعام من بيوتات القرابات ، وأنّ ذلك لا يحتاج إلى إذن صريح كما هو الحكم في غير الأصناف ، فما عداهم لا يحل لهم الطعام من بيوتهم إلا بإذنه ، وأما هؤلاء الأصناف المذكورون فلهم الطعام بدون إذن صريح ؛ ما لم يكن هناك منع صريح ، أو قرينة تدل على كراهيته لذلك ، فيكون حكمه في الاستئذان من طعام بيته حكم غير هؤلاء الأصناف من الأجانب .

وقوله تعالى : **{وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ}** أي : ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم الشخصية ، وبيوت آبائكم ، فإنها داخلة في بيوتكم ، لأن بيوت آبائكم هي من جملة بيوتكم ، كما جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أنت ومالك لأبيك)) ، وكما جاء أيضاً : ((إنّ أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم))¹ .

حتى قال كثير من السلف : إنّ المراد بقوله تعالى : **{وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بَيْوتِكُمْ}** أراد بيوت الأولاد ، وأضافها إلى الآباء لمزيد اختصاصها بهم ، وبدليل أنّه سبحانه ذكر أصناف الآباء بعد ولم يذكر الأولاد ، فدل ذلك على أنّ المراد من بيوتكم أي : بيوت أولادكم ، ويدخل في هذا الحكم تناول الطعام من مال الأزواج الذين هم أهلوكم في بيوتكم ، كما قال الحكيم الترمذي في وجه قوله تعالى : **{وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بَيْوتِكُمْ}** قال : كأنه سبحانه يقول : مساكنكم التي فيها أهلوكم وأولادكم ، فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أفادهم هذا الرجل الذي له المسكن ؛ فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم ورثوه من آخرين ، أو ملكوه من غيرهم بسبب ما ؛ فليس في ذلك حرج أن يأكل من مال ولده أو زوجته .

{أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ} .

قال أكثر العلماء يجوز تناول الطعام في بيوت هؤلاء الأصناف بدون إذن صريح ، لأنّ القرابة بينهم هي إذن منهم ، وذلك لأنّ في تلك القرابة عطفاً

¹ رواه أصحاب السنن وغيرهم .

تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل في بيتهم ، ويسرُّوا بذلك إذا علموا .

قال العلامة أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : أباح الله تعالى لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبدولاً ؛ فإذا كان مُحْرزاً دونهم لم يكن لهم أخذه - أي : إذا كان محفوظاً موضوعاً في مكان تدل القرينة على عدم الإذن ، فلا يجوز تناوله إلا بإذن صريح .

ثم قال : ولا يجاوزوا إلى الإِدْخار - أي : لهم أن يتناولوا الطعام في بيوت القرابات إذا كان غير ممنوع عنهم ، بشرط أن لا يدخروا معهم ، ولا إلى ما ليس بمأكول ، وإن كان غير محرز عنهم إلا بإذن منهم اهـ .

قوله تعالى : {أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه} .

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بهؤلاء - الوكلاء والعبيد والأحرار .

قال ابن عباس رضي الله عنه : عني في الآية وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ماله ؛ فيجوز لكل منهما أن يأكل مما هو قيم عليه ، ولذلك قال القاضي ابن العربي : وللخازن أن يأكل مما يخزن إجماعاً .

وهذا إذا لم يكن له أجره ؛ فأما إذا كانت له أجره على الخزن حرم عليه الأكل إلا بإذن صريح ، أو قرينة تدل على السماح - .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً ، وخلف مالك بن زيد على أهله وماله ، فلما رجع وجدته مجهوداً ، فسأله عن حاله فقال : تحرَّجت أن أكل من طعامك بغير إذنك فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : {أو صَدِيقِكُمْ} والمعنى وليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيت صديقكم بغير إذن صريح ما لم يكن بخيلاً ، فإنَّ قرينة حاله تدل على المنع . .

والصديق هو من يصدقك في مودته ، وتصدقه في مودتك ، فإنه على وزن فعيل الدالة على الفاعلية ، والمفعولية ، كما قيل في الصديق الصادق.

إن الصديق الحق من كان معك

ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدّك

شنتت فيك شمله ليجمعك

ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد به هنا الجمع ، نظير كلمة العدو فإنها تطلق على الواحد والجمع ، قال الله تعالى مخبراً عن الخليل : {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} .

وأما إطلاق الصديق وإرادة الجمع ، فكما قال جرير :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا

بأسهم أعداء وهنّ صديق

فأخبر بصديق عن الجمع ، والدليل على أن المراد به الصديق الجمع هو المناسبة لذكر الأصناف السابقة بالجمع .

وقال كثير من المفسرين : المراد بالصديق المفرد لا الجمع ، والسر في ذكره خصوصاً بالإفراد دون أصدقائكم ، هو الإشارة إلى قلة الأصدقاء ، حتى إنه قيل :

صاد الصديق وكاف الكيمياء معا

لا يُوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وأيضاً فيه الإشارة إلى أن الصداقة شأنها عظيم .

ورفع الحرج في الأكل من بيت الصديق والأخذ من ماله ، لأنه أسرُّ إلى كل منهما عنده من بعض ذوي القرابة ، فإنَّ بعض ذوي القرابة قد يقسو عليك ولا يعينك .

ومن ثمَّ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : الصديق أكبر من الوالدين ، لأنَّ الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالأبَاء والأمهات بل قالوا : {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم} فالصديق كما قيل يبين وقت الضيق .

وقال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه ونفعنا الله تعالى به : من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأُنس والثقة والانبساط ورفع الكلفة - بمنزلة النفس والأب والأخ اهـ .

وقيل لبعض الحكماء : مَنْ هو أحب إليك أخوك أم صديقك ؟
فقال : أنا لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي اهـ .

وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم أهل القرون الثلاثة ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم ؛ ولو كانوا غُيَّباً - أي : ولو كان صاحب البيت غائِباً عن بيته ، فكان صديقه يدخل بيته ويأكل .

قال العلامة القرطبي : ذكر محمَّد بن ثور عن معمر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطباً فجعلت آكله .

فقال : ما هذا ؟ فقال : أبصرت رُطباً في بيتك فأكلت .

فقال : أحسنت إنَّ الله تعالى قال : {أَوْ صَدِيقِكُمْ} .

وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : {أَوْ صَدِيقِكُمْ} قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتة - أي : إعلامه بذلك - لم يكن بذلك بأس .

وقال معمر : قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحُبِّ ؟

فقال : أنت لي صديق ؟ فما هذا الإستئذان ؟ - أي : فاشرب وإذنك معك .

والحُبُّ هو الجرّة الكبرى ، يبرّدون فيها الماء للشرب مع وقايتة وتغطيته وتطيبه .

وقد نص العلماء : على أنّ نفي الحرج عن الصديق فيما يتناوله من الأكل من بيت صديقه لا يحتاج إلى إذنه الصريح ما دام يعلم من رضاه وسماحته ومحبته ؛ التي هي موجب الصداقة ، وبشرط أن يأكل ولا يدّخر معه شيئاً ؛ إلا بإذن أو قرينة تدل على الرضا .

وقد اختلف العلماء هل بقيت هذه الصداقة الخاصة التي تُعطي صاحبها هذه الأحكام أم أنّها ذهبت مع الذاهبين في تلك الأيام .

فقال كثير منهم : إن هذا شيء كان - أي فيما مضى ولا سيما في القرون الثلاثة الأولى ، وبعدها بقي قليل منها في الأصدقاء .

قالوا : وأما اليوم فقد طوي بساطها ، واضمحل فسطاطها ، وعفت آثارها ، وأفلت أقمارها ، وصار الصديق اسماً للعدوّ ، الذي يُظهر لك محبته ويضمرك عداوته ، وينتظر لك حرب الزمان وغارته .

قالوا : فآه . وأواه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وأنشدوا :

ومن نكّد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بُدُّ

وأنشدوا في ذلك :

احذر عدوك مرةً واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الزمان فصار أعلم بالمضرة

قالوا : والصداقة هي قائمة على أساس المروءة الكاملة ، وسخاوة النفس الفاضلة ، وبذل النفيس من المال لحفظ الصداقة . بين أهل الكمال .

وقالوا : وهذا نادر النادر في الأزمنة المتأخرة .

قال العلامة الأبياري - وهو يتكلم عن تعريف المروءة - قال : وهي صيانة النفس عن الأدناس ، وما يشين عند الناس ، أو آداب نفسانية ، تحمل مراعاتها الإنسانية على الوقوف عند محاسن الأخلاق ، وجميل العادات ، يقال : مَرَّء الإنسان فهو مريء ، كقرب فهو قريب - كما في المصباح .
قال : وكلها أي : التعاريف التي ذكرها قريبة المعنى لكنها بعيدة المرمى .
ولله در من قال :

مررت على المروءة وهي تبكي

فقلت علام تنتحب الفتاة

فقال كيف لا أبكي وأهلي

جميعاً دون خلق الله ماتوا

قال رحمه الله وقد كان قيل :

ولا بُدَّ من شكوى لذي مروءة

يواسيك أو يُسليك أو يتوجع

قال رحمه الله فقلت :

ولا تشك من خطب ألم إلى فتى

وكن صابراً فالصبر للحر أنفع

فما من فتى تلقى به من مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

اهـ . كلام العلامة الأبياري .

هذا وقد أنشدوا في ذلك قول القائل :

وزهدني في الناس معرفتي بهم

وطول اختباري صاحباً بعد صاحب

فلم تُرني الأيام خلاً تسرني

مبادئه إلا ساءني في العواقب

ولا كنت أرجوه لكشف ملامة

من الدهر إلا كان إحدى النوائب

ومن أبيات تنسب إلى أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وعليه
السلام :

ولا خير في وُدِّ امرءٍ متلّون

إذا الريح مالت مال حيث تميلُ

جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله

وعند احتمال الفقر عنك بخيل

فما أكثر الأصحاب حين تعدهم

ولكنهم في النائبات قليلُ

فالصديق بالمعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة ، الذي كان معهوداً من
الأمّة في السلف قد أصبح اليوم نادراً قليلاً جداً كما قال القائل :

تمسك ما استطعت بذيل حر

فإن الحر في الدنيا قليل

ويعني بذلك المتحرر من حب المال ورقيته له ، وعبوديته له ، فقد جاء في
الحديث : ((تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم)) الحديث .

وأما الصحبة العامة ، والصدّاقة المجملّة فهي باقية والحمد لله - على القلة
أيضاً - .

وقد ذكروا لذلك شروطاً : الصدق ، الوفاء ، البذل ، والسخاء والسماحة
وعدم التكلف له ، والتغاضي عن هفوات الأصحاب ، وحفظ العهد ،
وتمكن الود ، وعدم التلون ؛ بل يكون كل من الصديقين له وجه واحد مع
صاحبه ؛ يحفظ مكانته في غيبته وحضوره مهما تقلبت الأيام ، وتبدلت
العصور في حياته أو بعد ممات صديقه وإلى ذلك يشير الإمام الشافعي
رضي الله عنه في أبيات له :

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفاً

فدعه ولا تكثر عليه التأسفا

ففي الناس أبدال وفي الترك راحة

وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا

فما كل من تهواه يهواك قلبه

ولا كل من صافيته لك قد صفا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة

فلا خير في ود يجيء تكلفا

ولا خير في خل يخون خليله

ويلقاه من بعد المودة بالجفا

وينكر وداً قد تقادم عهده

ويُظهر سراً كان بالأمس في خفا

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها

صديق صدوق يصدق الوعد منصفا

وتفصيل الكلام على شروط الصحبة هو مذكور في كتب الإمام الغزالي
حجة الإسلام رضي الله عنه ، فمن أراد التوسع في هذا الباب فليرجع إليه
فمنها الرسائل ومنها كتاب (الإحياء) الجامع لجميع ما هنالك .

والبذل والسخاء هو أساس في دوام الصحبة الخاصة والعامة ، وأما البخل والشح فذلك مفسد للدين ، مبعث عن الله تعالى وجنته ، ومفسد للصحبة إفساداً ذريعاً سريعاً ، بل لا يمكن حصول الصحبة والصدقة الصحيحة مع البخل ، فإن البخيل لا صديق له إلا ماله ، ولذا تراه بعيداً عن الناس ، والناس بعيدون عنه ، بل هو بعيد من الله تعالى .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((السخي قريب من الله ، قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل))^١ .

وعن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((لا يدخل الجنة خبّاب ولا مَنّان ولا بخيل))^٢ .

وفي حديث النسائي يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد أبداً)) .

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((المؤمن غرٌّ كريم والفاجر خبٌّ لئيم))^٣ .

فالمؤمن سليم الصدر ينخدع أحياناً لرقعة قلبه ولينه وليس هو بمكّار ، وأما الفاجر فهو خدّاع يسعى بين الناس بالفساد والشر ، ويُظهر خلاف ما يُبطن لهم - نعوذ بالله منه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لما خلق الله جنة عدن بيده ، ودلّى فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال لها : تكلمي .

فقلت : قد أفلح المؤمنون .

^١ رواه الترمذي .

^٢ رواه الترمذي وحسنه ، قال المنذري : الخباب بفتح الخاء وتكسر هو : الخداع الخبيث اهـ . أي : (الذي يُبطن الخبث - ويظهر ما يسر الناظر والسامع) .

^٣ رواه الترمذي وأبو داود .

فقال : وعزتي وجلالي لا يُجاورني فيك بخيل))^١ .

قوله تعالى : {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً} .

الأشتات : جمع شتّ ، وهو وصف كالحق ، يقال : أمر شتّ أي : متفرق ، أو على أنه في الأصل هو مصدر ، وُصف به مبالغة كقولك : فلان عدل أي : عادل .

وهذه الجملة هي كلام مستأنف ، مسوق لبيان أحكام أخرى من جنس ما قبلها ، فإنّها كلّها تتعلق بالأمر الأدبية الاجتماعية ، وبيان أحكام آداب المؤاكلة والطعام ، والاجتماع عليه والتفرق .

وجاءت الآية الكريمة ترفع الحرج - أي : الإثم - عن عدة أمور كانوا يتخرجون من الوقوع فيها ، ويرون أنّ فيها نقصاً أو عيباً :

الأول : ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة أنها نزلت في بني ليث بن عمرو بن كنانة ، فإنّهم كانوا يتخرجون أنّ يأكلوا طعامهم منفردين ، وكان الرجل منهم لا يأكل ، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه ، فإن لم يجد ما يؤاكلة لم يأكل شيئاً ، وربما قصد الرجل في بيته والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح ، وربما كانت معه الإبل المحفلة فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يُشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل - وقد قيل هذا التخرج هو سنة موروثه من سيدنا الخليل عليه السلام صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى الأنبياء أجمعين .
وفي ذلك يقول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد يوماً فالتمس له

أكياً فإني لست آكله وحدي

وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أندرون ما الكنود؟)) .

^١ رواه الطبراني بإسناد جيد ، ورواه غيره أيضاً .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هو الكفور الذي يضرب عبده ، ويمنع رفته ، ويأكل وحده))^١ .

فنزلت الآية الكريمة في رفع الإثم عن الأكل منفرداً ، ولكن لما قَدّم قوله تعالى : {أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً} دل على أنّ الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، وقد نص العلماء على أنّ اجتماع الأيدي على الطعام سنة كما سيأتي ، فتركه بغير داعٍ مواظبة هو مَذْمُومَةٌ وَمَحَقٌّ للبركة .

روى الإمام أحمد بإسناده عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنّ رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إنا نأكل ولا نشبع .

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله تعالى يبارك لكم فيه))^٢ .

وروى ابن ماجه عن سالم عن أبيه عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإنّ البركة مع الجماعة)) .

الأمر الثاني : ما جاء عن عكرمة وأبي صالح أنّها نزلت في قوم من الأنصار ، كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه ، فرخص الله تعالى لهم أن يأكلوا كيف شأؤوا على وجه يرتضيه كلهم .

وقيل كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته أو صداقته فيدعوه إلى طعامه ، فيقول : إني لأتخرج أن أكل معك وأنا غني وأنت فقير .

وهذه صفة جاهليّة ، فجاء الإسلام فرفعها ، وعلى كلّ فالعبرة لعموم الكلم لا لخصوص السبب - فنفي الجناح عن الكل .

وقيل : إنّ هذه الآية تنمّة لما قبلها ، وفيه بُعدٌ لأنه سبحانه أعاد نفي الجناح ، وفي الأول بدأ برفع الحرج .

^١ رواه البيهقي ، والطبراني ، وابن مَرْدَوَيْهِ ، وابن جرير وابن أبي حاتم كما في (الدر المنثور) وغيره .

^٢ رواه أبو داود وابن ماجه من طريق أخرى .

الأمر الثالث : إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوال الآكلين في الأكل ، وقد أقر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك وسوّغه ، وصارت تلك سنة الجماعات التي تُدعى إلى الطعام في النهد ، والولائم ، والطعام في السفر .

قال العلامة القرطبي في (تفسيره) : وقد ترجم البخاري في (صحيحه) : باب ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج والنهد والاجتماع اهـ .

قال القرطبي : ومقصوده فيما قاله علماؤنا في هذا الباب إباحة الأكل جميعاً - أي : مجتمعين - وإن اختلفت أحوالهم في الأكل ، وقد سَوَّغ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك ، فصارت سنة في الجماعات التي تدعى إلى الطعام في النهد والولائم .

وما ملكتْ مفاتيحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك .

وقال : والنهد هو ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر النفقة ينفقونه بينهم - وقد تناهدوا .

ويقال : تناهد القوم الشيء بينهم .

وفي حديث الحسن : ((أخرجوا نهدكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم)).

فالنهد ما تُخرجه الرفقة عند المناهدة وهو استقسام النفقة بالسوية في السفر وغيره.

وقال المهلب : طعام النهد لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسواء ، وإنما يأكل كل واحد على قدر نهمته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره - وقد قيل إن تركها أشبه بالورع .

وقال القرطبي : وإذا كانت الرفقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد ، لأنهم لا يتناهدون إلا ليصيب كل واحد منهم من ماله ،

ثم لا يدري لعل أحدهم يقصر عن ماله ويأكل غيره أكثر من ماله أو بالعكس، وإذا كانوا يوماً عند هذا ويوماً عند هذا بلا شرط، وإنما يأكلون أضيفاً عند بعضهم، والضيف يأكل بطيب نفس مما يُقدم إليه - فيكون هذا أطيب للنفوس .

وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحرى أفضلهم أن يزيد على ما يخرجه أصحابه، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سراً دونهم اهـ كلام القرطبي بقليل من الإيجاز.

وعلى كلِّ حال فالأولى كما قال العلماء : إن العبرة لعموم الكلام لا لخصوص السبب ، فقد رفع الجناح والخرج عن جميع أولئك.

وفي هذه الآية الكريمة ما يدل على أن دين الإسلام جاء بحسن المعاشرة ، وبالسماحة وسخاوة النفس ، وبتواضع العباد لبعضهم، دون ترفع بالحال أو بالمال على الغير ، وبالانسجام مع كل مؤمن ومع كل مسلم ، غنياً أو فقيراً، كبيراً أو صغيراً ، صحيحاً أو مريضاً أو زماً ، أو ذا جاه أو وضيعاً ، فالانسجام وعدم التكبر واستصغار الغير هو أصل عظيم من مبادئ دعوة الإسلام ، كما أن الآية ترد على كلِّ متشدّد ومتنطّع - في معاملاته ومعاشرته ومؤاكلته، إلى ما وراء ذلك ، فالتشدد والتنطع ليس بورع ، فنهى الإسلام عن الإفراط وعن التفريط وأمر بالتوسط والاقتصاد في الأمور ، كما قال الله تعالى : {وعلى الله قصد السبيل} .

فتكفل سبحانه وأوجب على نفسه أن يُبين في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم السبيل المتوسط القصد ، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا غلوّ وتشدد، ولا انفلات وخلاعة وعدم مبالاة .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((والقصد القصد تبلغوا)) - أي: تبلغوا المراد وتصلوا إلى الجنة سالمين غانمين - .

وقد تكلمت في هذا الموضوع وعلى الآية السابقة مفصلاً في بعض كتبي فارجع إليه ينفعني وينفعك الله تعالى إن شاء الله تعالى وبخاصة كتاب الشمائل الشريفة عليه الصلاة والسلام .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إنَّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق)) - أي : ادخلوا فيه برفق بلا تشدد.

وعند البيهقي بزيادة : ((ولا تُبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى ؛ فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)) الحديث .

قوله تعالى : {فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة} الآية .

قد ذكر الله تعالى في الآية الكريمة صنفاً آخر من التشريعات الإلهية الأدبية، المتعلقة بالحقوق الاجتماعية، التي تتجلى فيها الكرامة الآدمية، والعزة الإنسانية المترفعة عن حضيض الحيوانية البهيمية .

فإذا دخل الإنسان بيتاً فعليه أن يُسلم، وقد ذكر الله تعالى البيوت مطلقاً ولم يُفَيِّدها بوصف فهي تشمل بيوتات متعددة :

الأولى : بيت الإنسان نفسه ، الذي فيه أهله و عياله ، فينبغي إذا دخله أن يسلم على أهله، كما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يا بُني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك))^١ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : أوصاني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بخمس خصال : قال : ((أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك - يا أنس ارحم الصغير ووقرّ الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة))^٢ .

الثانية : بيوت الأقارب الذين تقدم ذكر أصنافهم في الآية الكريمة من أبيه وأمه وعمه . . إلى آخر ما تقدم، وغيرهم من الأصدقاء وغيرهم ممن

^١ رواه الترمذي وصححه .

^٢ رواه البزار والبيهقي وغيرهما .

يدخل بيوتهم، ويكون المعنى: فإذا دخلتم فسلموا على أنفسكم بأن يقول: السلام عليكم، أو سلام عليكم أو سلام الله عليكم - هذه صيغ ثلاثة .

والمراد بالسلام : السلامة من الآفات والمكروهات، فهو دعاء. أو كما قال بعضهم: السلام في التحية هو اسم الله تعالى السلام، والمعنى: الله عليكم بالسلام والأمان من المخاوف والمتالف والمكاره، واستدلوا على ذلك بحديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: ((السلام اسم من أسماء الله تعالى أنزله إلى الأرض فأفشوه بينكم)).

{فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} .

هذا مصدر ويسمى مفعولاً مطلقاً، كقولك: قعدت جلوساً - والمعنى: أن سلامكم تحية بينكم، فالسلام هو التحية بينكم لا غيره من الكلمات التي تستحبونها أو تستعملونها، كقولك: مرحباً، أو: أنعم ضيفاً، أو صباح الخير، أو مساء الخير ، ونحو ذلك، فإن هذا كله لا يعد تحية ولا سلاماً، وإنما يؤتى به من بعد السلام من باب التكريم .

وقوله تعالى : {تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} ثابتة بأمر الله تعالى، النازل من عنده جل وعلا {مُبَارَكَةٌ} فيها البركة على المسلم والذي يردّ عليه - كما تقدم في حديث أنس: ((يكن بركة عليك وعلى أهلك)).

{مُبَارَكَةٌ} في خَيْرَاتِهَا الدنيوية، وخيراتها الأخروية وهي الحسنات، فإن السلام والرد عليه يترتب عليهما حسنات كما جاء في حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فسلم فقال : السلام عليكم، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((عشر)).

ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه رسول الله ثم قال : ((عشرون)).

ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه رسول الله ثم قال ((ثلاثون)) رواه الترمذي وأبو داود ، وفي رواية لأبي داود : ثم

أتى آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال : ((أربعون)) ثم قال : ((هكذا تكون الفضائل)).

الثالثة : بيوت الله تعالى المساجد ؛ فإذا دخلت المسجد فقل : (بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

وكل جملة من هذه الجمل قد ثبتت في السنة .

الرابعة : البيوت التي ليس فيها أحد فنقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإن الملائكة ترد عليك كما ورد ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (إذا دخل أحدكم البيت غير المسكون - أي : بيتاً غير مسكون - أو المسجد فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)¹ .

وعن مجاهد قال : (إذا دخلت بيتك وليس فيه أحد ؛ أو بيت غيرك وليس فيه أحد فقل : بسم الله والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)² .

وروى ذلك عن قتادة وقال : (فإنه كان يؤمر بذلك ، وحُذِّثنا أن الملائكة ترد عليه) .

وقوله : كان يُؤمر بذلك - أي : في عهد الصحابة - وكذلك قوله : وحُذِّثنا - أي : حدثنا بعض الصحابة رضي الله عنهم - أنّ الملائكة ترد السلام إذا لم يكن في البيت إنسان ، وكذلك ملائكة المسجد ترد السلام على المسلم بقوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . اهـ .

ومثل ذلك لا يدرك بالرأي فله حكم المرفوع .

قوله تعالى : {تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ} .

¹ رواه ابن أبي شيبة ، والبخاري في (الأدب المفرد) ومثل هذا لا يقال بالرأي .

² رواه ابن المنذر وابن أبي شيبة وغيرهما . .

وصف سبحانه تلك بأنها طيبة أيضاً ، وما أعظم هذه التحية وما أكرمها ،
وما أجمعها للخير وأدفعها للشر ، فإنها طيبة يطيب لها القلب ، ويطيب لها
السمع ، وتطيب لها النفس ، وترتاح لها النفوس ، وتُسَرُّ بذلك .

وأصل التحية هو الدعاء بطول الحياة ، ثم أُطلقت على كل ما يُحيي به
الإنسان غيره عند لقائه ، ولكن صيغة هذه التحية هي من عند الله تعالى ،
فإنَّ الله تعالى هو قد شرعها وأمر بها - قال تعالى : **{وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ
فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}** .

ومهما فكر الحكماء ، ومهما بحث العلماء عن صيغة تجمع كل خير ،
وتدفع كل شر ، مع الدوام والزيادة المستمرة - مهما حاول أن يأتي بصيغة
تجمع تلك الأمور الثلاثة لا يجد إلى ذلك سبيلاً ، ولذلك اختارها الشرع
بأن تكون تحية هذه الأمة ، وأبطل ما سواها من تحيات الجاهلية - وهذه
الصيغة هي : **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فهي جامعة لكل ما يتمناه**
الإنسان ويرجوه ، ويسعى إلى الظفر به .

فإن الإنسان إذا سئل : ماذا تحب أولاً ؟

**فإنه يقول لك : أنا أحب أن أكون سالماً من الآفات والمتالف ، آمناً من
المخاوف .**

فيقال له : وإذا حصل لك ذلك ، ماذا تحب ثانياً ؟

**يقول لك : أحب أن يكون عندي الخير الكثير ، والبرّ الوفير ، من كل
أنواع وألوان الخيرات والمبرات والمكرمات .**

ثم يقال له : فإذا حصل لك ذلك ماذا تحب ثالثاً ؟

**يقول : أحب أن يدوم لي ذلك ، ويثبت ، وأن يزداد ، وأن ينمو ويكثر ولا
ينقص .**

**فيقال للإنسان : هذه المحبوبات الثلاث ، الدافعة لكل شر ؛ والجامعة لكل
خير ؛ والجالبة لكل زيادة على وجه الثبات والدوام ؛ هذه مجموعة في**

تحية الإسلام التي شرعها الله تعالى لعباده أن يجعلوها تحيةً بينهم ، ألاّ
وهي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فإنّ السلام جامع لكل سلامة من المتالف وأمان من المخاوف ، ورحمة الله
تعالى جامعة لكل خير وجالبة لكل بر . وبركاته - أي : دالة على الثبوت
والبقاء ، والزيادة والنماء ، فإنّ مادة البركة تدل على البقاء والدوام ، ومنه
يقال لمجمع الماء الثابت المخزون : بركة ، ويقال برك البعير في مكانه
أقام ، وتدل على النمو ، قال صلى الله عليه وسلم : - لما قلّ الماء وقد اشتد
عليهم العطش واحتاجوا إلى ماء الوضوء أيضاً والغسل ، وهم في سفر ،
فوضع يده الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم في ركوة بين يديه ،
فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم
أمثال العيون ، وهو يقول للصحابية : ((حي على الطهور والبركة من الله
تعالى)) والماء كما هو يفور أمثال العيون - صلى الله عليه وعلى آله وسلم
تسليماً كثيراً . .

ولذلك وصف تحية الإسلام بأنها طيبة { تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ } .

ولما وصفها سبحانه بأنها طيبة تدل على أنها من جملة الكلم الطيب ،
المضمون قبوله وصعوده إلى الله تعالى ، كما قال سبحانه : {إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}

فتحية السلام كلمات طيبة ، تصعد مع الكلم الطيب إلى الله تعالى ، وخيرها
وبرها كثير ، وفضلها كبير ، أذكر جملة منها موجزة - لأنّ تفصيلها يحتاج
إلى رسالة خاصة - .

أولاً : تقدم في الحديث أنّ المسلّم إذا قال : السلام عليكم له عشر حسنات ،
وإذا زاد كلمة : ورحمة الله فله عشرون حسنة ، وإذا زاد كلمة : وبركاته
فله ثلاثون حسنة كما تقدم . .

فإذا علمت ذلك فما أكثر ما يجمعه الإنسان من حسنات بواسطة السلام ،
فكم يلتقي كل يوم مع إخوته المؤمنين ويسلم عليهم عند اللقاء ، وعند
الفراق إذا قام من مجلسه .

وربما تقول : إنّ زيادة : ورحمة الله وبركاته تأتي غالباً من الذي يردّ السلام .

قلت في الجواب : نعم ولو كان كذلك فهي مكتوبة في صحيفة المسلّم والرادّ ثلاثين حسنة ، لأن البادىء هو الذي ترك الزيادة للذي يرد عليه ، فكأنه قالها - وأيضاً هو المتسبب فيها ، والمتسبب له أجر العامل - كما هو معلوم ، وباب الفضل والكرم الإلهي واسع فلا تحجره بأوهامك ومقاييسك الفاسدة .

ثانياً : جاء في الحديث أنّ السلام هو خير أعمال الإسلام :

روى الأئمة الخمسة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أنّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أيُّ الإسلام خير؟ فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إطعام الطعام ، وتقرأ السلام على مَنْ عرفتَ ومن لم تعرف)) .

فإطعام الطعام لأهله ، ونشر السلام هما في الدرجة الأولى من الأعمال والأقوال التي تُعدّ هي خير أعمال الإسلام وأقواله .

ثالثاً : أنّ نشر السلام يورث التحابب ؛ والتحابب يتوقف عليه دخول الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم)).

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)) .

وروى ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : ((عمّوا بالسلام ، وعمّوا بالتشميت)) - أي : سلّموا على من عرفتم ومن لم تعرفوا.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أكثر الصلاة في بيتك يكثر خير بيتك ، وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك)).

رابعاً : بإفشاء السلام ترفع درجات العبد عند الله تعالى .

فقد جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما - في رؤيا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربّ العزّة : وفيه:

((قال: يا محمد فيم يختصم الملاء الأعلى؟

قلت: في الكفارات والدرجات .

قال: وما الكفارات؟

قلت: إسباغ الوضوء عند الكريهات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات .

قال: وما الدرجات؟

قلت: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة في الليل والناس نيام))
الحديث وقد ذكرته برواياته في كتاب: (صعود الأقوال) وشرحته شرحاً وافياً.

خامساً: بذل السلام من أعظم أسباب مغفرة الذنوب :

عن أبي شريح رضي الله عنه قال : قلت: يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إنّ من موجبات المغفرة بذل السلام، وحسن الكلام)).

وتعميم السلام سنة مؤكدة ولو على الضرير؛ كما ورد مرفوعاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه ((ترك السلام على الضرير خيانة)).

سادساً: أحق الناس برحمة الله تعالى من بدأهم بالسلام :

جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إنَّ أولى الناس بالله تعالى من بدأهم بالسلام))^١.

سابعاً: في إفشاء السلام ذكر اسم الله تعالى السلام :

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضعه في الأرض - أي: أنزله إلى الأرض - فأفشوه بينكم، فإنَّ الرجل المسلم إذا مرَّ بقوم فسلم عليهم فرتّوا عليه كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردّوا عليه ردَّ عليه من هو خير منهم))^٢.

ثامناً: إفشاء السلام دليل على الكرم :

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أسرقُ الناس الذي يسرق صلاته)).

قيل : يا رسول الله وكيف يسرق صلاته ؟

قال : ((لا يتم ركوعها ولا سجودها)).

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((وأبخل الناس من بخل بالسلام))^٣.

ومن هنا تعلم أنّ قضية السلام هي شريعة إيمانية، وليست هي قضية تفضلية ولا امتنانية . .

ولما كثر خير السلام وبره كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يُكثرون منه استكثاراً لفعل الخيرات، ونيل الحسنات والمبرّات:

فعن أنس رضي الله عنه قال : (كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فنُفَرِّقُ بيننا شجرة فإذا التقينا يُسلم بعضنا على بعض)^٤

^١ رواه الترمذي وحسنه، وروى أبو داود نحوه.

^٢ رواه الطبراني والبخاري وأحد إسنادي البزار حسن جيد قوي . اهـ (ترغيب).

^٣ رواه الطبراني بإسناد جيد.

^٤ رواه الطبراني بإسناد حسن.

والمعنى: أنهم إذا فصلت بينهم شجرة أو غيرها من الفواصل ثم وقع نظرهم على بعض يُسلمون على بعضهم - فوأسفاه على المسلمين، كيف كان سلفهم وكيف صار خلفهم - !!!

واعلم أنّ البخيل الذي لا أبخل منه هو من بخل بالصلاة على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون وعلينا معهم أجمعين، لأنه بخل على أكرم الناس وأفضلهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : خرجت ذات يوم فأتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : ((ألا أخبركم بأبخل الناس؟!)).

قالوا: بلى يا رسول الله .

قال: ((مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليّ فذلك أبخل الناس))^١.

وعن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((البخيل من ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليّ))^٢.

قوله تعالى : {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون}.

يشير بقوله تعالى: {كذلك} إلى جميع ما تقدم في هذه السورة وهي سورة النور - من الأحكام وشرعه سبحانه : الحصانة، والإحصان، والحدود، وما ذكره سبحانه من الآداب الشرعية في التحية والاستئذان في دخول الإنسان بيت غيره، والتعفف، وغيض الأبصار عن العورات وما حرم النظر إليه، وما ذكره سبحانه من الأمور الإيمانية الاعتقادية، ومثل الإيمان في القلب كالمصباح، وما يقتضيه الإيمان من العمل وغير ذلك ، فجاءت هذه الآية الكريمة أي: {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون} وأمثالها تدل على أمور متعددة فيها الحجة الإلهية على العقلاء من قبل عقولهم :

^١ رواه ابن أبي عاصم بسنده .

^٢ رواه الترمذي وصححه ورواه النسائي وابن حبان في (صحيحه).

الأول: فيها فتح باب للعقلاء لأجل أن يعقلوا أحكام الله تعالى التي شرعها لهم ، وأن يشحذوا أفكارهم ويَجُولُوا بِألبابهم في أحكام شريعته سبحانه، وما فيها من الحِكم والأسرار التي ضمنتُ جميع مصالح العباد والبلاد ، وضمنت لهم إبعادهم عن الشر والفساد ، فإذا عقلوا أحكام الله تعالى ؛ وتبصَّروا ما فيها من الحِكم ؛ وأنها جاءت تضمن سعادة الإنسان وصلاح أموره كلها ؛ الخاصة والعامة ، والفردية والاجتماعية ، والأدبية ، والخلقية ، والمالية ، وأحواله الشخصية إلى ما وراء ذلك ؛ حينئذ تتجلى له حكمة الله تعالى في أحكامه ، وسعة علمه سبحانه ، وأنَّ هذه الشريعة جاءت بالإرشادات والتوجيهات ، والتحليل والتحرير ، كل ذلك دالٌّ على أن الذي شرع ذلك ليس من جنس العباد، وليست القضية هي حكمة حكيم من البشر، أو قضية لبیب يعرف وضع القوانين والأنظمة ، بل يعلم يقيناً أنَّ مستوى الشريعة الإلهية أعلى من ذلك بكثير، وأجل من ذلك وأعظم ، بل يعلم يقيناً أنَّ جميع الحكماء والفظناء والألباء من أولهم إلى آخرهم ؛ لو اجتمعوا على أن يشرعوا ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها ، ولا ما يقاربها ، لأنَّ تشريع المشرِّع تابع لحكمته وعلمه ، ومهما اتسع علم المخلوق وحكمته فهما متناهيان ، وأما ربُّ العالمين فهو خالق غير مخلوق سبحانه وتعالى . .

وهو خالق حكمة الحكماء، وفطنة الألباء، فعلمه سبحانه لا يتناهى ، وحكمته لا تتناهى ؛ بل إليهما المنتهى وليس لهما انتهاء .

قال تعالى: {حِكْمَةٌ بِاللُّغَةِ} .

وقال تعالى: {تنزيل من حكيم حميد} .

وقال تعالى: {تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} .

فهو سبحانه إليه المنتهى في كل الأمور؛ ولكنه ليس له انتهاء لا في علمه ولا حكمته، ولا قدرته ولا إرادته؛ إلى ما لا يتناهى في جميع صفاته .

فما مقدار هذه النسبة؟ الجواب: ليس أي مقدار، لأنَّ المتناهي هو يتلاشى فيما لا يتناهى، فما له نسبة أصلاً إن كانوا يعقلون .

الثاني: في هذه الآية الكريمة وأمثالها يخاطب الله تعالى العقلاء من قبل عقولهم وألبابهم، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، فلا يقعون في حيرة ولا ريب، كالمتخبط في الظلمات، وإنما القضية أن يكونوا على بصيرة.

قال تعالى: {قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ}.

فالنور جليّ، والحق أبلج غير خفي، وبصائر الحق أشهدهم إياها في الكائنات، وفي الأرض والسموات، وأنزلها في الآيات المتلوة، كما أراهم إياها في الآيات المشهودة الكونية، وجميع ذلك يدلهم على سعة علمه وبديع حكمته، وعظمة قدرته.

ولذلك جرت عادة الله تعالى أن يذكر آيات تكوينه ثم يعقبها بتنبيه العقلاء إلى أن يعقلوا ما فيها - ففي آيات التكوين:

يقول تعالى: **{إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}.**

أي: فليعقل العقلاء ذلك، ويتبصروا بما هنالك.

قال تعالى: **{إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.**

وقال جل شأنه: **{إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون}.**

وقال تعالى: **{وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون}.**

وغير ذلك من الآيات الكريمة، فإنه سبحانه يلفت العقلاء إلى أعمال عقولهم في ذلك.

وفي آيات التشريع يقول سبحانه: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} - كما في سورة البقرة ، وجاءت هذه الآية الكريمة بعدما بيّن سبحانه أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصيام والحج ، وذكر الجهاد ، وبعدهما بين أحكام النكاح ، وأحكام الطلاق ، وما يترتب عليهما من حقوق ومسؤوليات ، ثم بعد ذلك جاء بهذه الآية الكريمة ، فهو يُخاطب العقلاء ، ويحثهم على أن يعقلوا ويتبصروا ويتدبروا في آيات تشريعه، ويتفكروا في آيات تكوينه ، فكلُّها شواهد دالة على وجوب وجوده ، ووحدانيته ، وكلُّها مشاهد تتجلى فيها آثار أسمائه ، وصفات كماله سبحانه ، وسعة علمه ، وبديع حكمته ، قال تعالى : {وَكَايِنِ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} .

فهو سبحانه يتجلى في مجالي مصنوعاته ومخلوقاته ، ويُريهم آثار كمال أسمائه وجمال نعوته ؛ ولكنهم يُعرضون ، في حين أن العقل يوجب على صاحبه إذا شاهد المصنوع أن يقر بوجود الذي صنعه لا محالة ، وإذا سمع الكلمة الحكمة أن يوقن بوجود القائل الحكيم ، ولكن كما قال سبحانه : {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذْرَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ} - أي: أعرض عنهم ودعهم ليوم يجمعهم الله تعالى فيه ، فإنهم لا يعترفون بالحق ؛ ولو عرفوه ، ولا يقرُّون بالمعقول ؛ ولو عقلوه . .

قال تعالى : {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} .

فهم أتباع أهواء ومشتهيات ، وليسوا بأتباع حق ثابت بالبيانات ، يعرفون الحق ولا يعترفون ؛ بل يعرضون عنه وينحرفون .

الثالث : في هذه الآية الكريمة وأمثالها أقوى أنواع التحديات الدامغة لمن يتصدى بالرد على حكم من أحكام شريعة الله تعالى ، ويدّعي أنها غير معقولة ، أو أنّ غيرها أصلح للبشرية منها وأنجح ؛ فليتقدم - فإنه سوف يرجع بالخذلان ، لأنّ آيات الله تعالى وشريعته ، مُحكمة ومعقولة لدى أصحاب العقول السليمة والأذواق المستقيمة .

فيقال للمنتقد على أحكام الله تعالى : أنت تتكلم هذا الكلام عن عقل سليم ، تجرّدت فيه عن ميولات نفسك وأهوائها ، ودواعي شهواتها البهيمية ، أم أنت تتكلم وتطعن في شريعة الله تعالى دفاعاً عن أهواء نفسية ، وآراء شخصية لك ، ودفاعاً عن ميولات تستهويها بعض النفوس التي يغلب عليها اتباع الشهوات المفرطة الحيوانية ؟ !!! .

فإن الآيات الكريمة تخاطب أهل العقول المجردة عن مسايرة الأهواء النفسية ، والشهوات البهيمية ، ولذلك نعى سبحانه على المعاندين والجاحدين لآياته ؛ بأنهم أصحاب أهواء وشهوات ، وليسوا بأصحاب أفكار سليمة وعقول نيرة مجردة ، أو عن دعوى سعة الفكر ، ونباهة العقل - بلا دليل على ذلك .

قال تعالى : {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً} - أي : وهم يعلمون أنه سبيل رشد لكنه لا يتفق مع أهوائهم - {وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً} الآية .

وقال تعالى : {وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر} .

أي : كذبوا بالحق لما جاءهم ولم يتبعوه لأنه لا يوافق أهواءهم وشهوات نفوسهم .

{وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} فهم أصحاب أهواء ، وليسوا بأصحاب آراء سليمة ، ولا عقول حكيمة .

وقال تعالى : {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم} الآية .

فإذا قلت لهم : الدين والشريعة تبيح الزنا والخمر والفواحش .

قالوا : سلّمنا ، وهذه شريعة مقبولة . .

وإذا قيل : إن الشريعة تنهى عن ذلك .

قالوا : هذا غير مقبول وجدوا وأنكروا - إذاً الميزان عندهم هو موافقة الأهواء ، ومن المعلوم أن الأهواء مختلفة فأى يتبع ويرجح على غيره ؟ !

! ، وكيف يُلزم العاقل باتِّباع هوى غيره ؟ !! قال تعالى : {ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون} .

فالأهواء البشرية مختلفة كأوراق الشجر، يزاحم بعضها بعضاً ، وتتشاجر الأوراق والأغصان مع بعضها ، لأن الهواء يلعب بها ، وهكذا الأهواء تتلاعب في البشر ، فيميل كل واحد حيث يميل ، ويقع التشاجر ، فالهواء يلعب بالشجر ، والهوى يلعب بالبشر ، فلا بد من مرجع حكيم ، صادر عن علم عليم بما يصلح أمر هذا الإنسان ، ويُسعد في أموره كلها ، ومهما كان عند الإنسان علم بما يصلح بني الإنسان ؛ فلا يبلغ علمه مستوى علم الذي خلق هذا الإنسان ، فالخالق أعلم بما يصلح به مخلوقه ، وبما يفسده ، وبما يُشقيه وبما يُسعد ، وبما يرفعه منزلة ويعلو بكرامته ، وبما يهوي به إلى الدناءة والحيوانية البهيمية والرذيلة {أَلَا يَعْلَم مَن خَلَقَ} ؟ .

فالخالق أعلم بمخلوقه ، وبما أودع فيه ، والصانع أعلم بمصنوعه وكيف يستقيم هذا المصنوع ، وصانع المعمل هو أدري بما فيه صلاح المعمل ، وهذا أمر بديهي .

فلا شرع أضمن لصلاح العباد وسعادتهم من شريعة الله تعالى ، فإنّ شرائع الله تعالى هي نُظْم إلهية ، وضعها الله تعالى وشرعها لعباده ليهتدوا بإرشاداتها وتعاليمها ، ويتخلقوا بها ، ويتحلّوا بالفضائل والكمالات التي جاءت بها .

وإذا جادل المجادل في هذا الموضوع أو عاند العنيد فيجب على العاقل الذي يريد محاجته ومناظرته أن يعلم هل هذا الخصم هو جاحد لوجود الله تعالى أصلاً ، أم هو مُلحد في آيات الله تعالى وأحكامه ، يحاول أن يميل بآيات الله تعالى وأحكامه حيث يهواه .

فإن كان جاحداً لوجود الله تعالى فيجب أن يكون مبدأ المناظرة بين الموحد والجاحد والمحاجة هي أولاً في إثبات وجود الإله المعبود صانع العالم وخالقه ، ومدبره ، فَمِنْ هنا تبدأ المناظرة ، وتقام عليه الحجج والبراهين القاطعة ؛ الدالة على إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ، ثم الإثبات بالحجج

الساطعة الدالة على أنّ هذا الكتاب كتاب الله تعالى ، المعجز الجامع ، الذي فيه آيات الله تعالى وأحكام دينه الحق وشريعته ، ثم الإثبات بالحجج والبيّنات الدالة على حقية نبوة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالاته ، فبعدما تُثبت له هذه الأصول ، وتؤسس له هذه القواعد ، فإن بقي عنده شبهة حَوْل بعض أحكام الشريعة ، أو حول ما جاء في آيات الله تعالى ؛ فالواجب أن يؤتى إليه بأدلة تزيل شبهاته وريبه ، لأنّها ناشئة عن سوء فهمه ، فتبين له المعاني الصحيحة مع الأدلة القطعية الصريحة .

فإن هذا القرآن لا ريب فيه كما أخبر سبحانه ؛ فمن ارتاب فيه فقد ارتاب في أمر لا يُرتاب فيه ، إذاً يكون ريبه ناشئاً من تلقاء نفسه لا من الكتاب ، ومنشأ هذا الريب هو في الحقيقة عدم فهمه الصحيح لموضوع الآيات ، أو لاتباعه بعض المتشابهات ؛ والوقوف عندها وفصلها عن المحكمات ، وذلك لزيغ في قلبه ، ولو أنه ردها إلى المحكمات لصارت عنده كلها محكمة وزال الريب .

قال تعالى : { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب } .

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً

عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

فالزائغ قلبه يتبع الشبهات ليفتن الناس عن دينهم ، ويصرفهم عن آيات الله تعالى ، وليتأول الآيات المتشابهة بما تهواه نفسه من الفساد والانحراف عن الصراط السوي وطريق الحق .

أما أولو الألباب والعقول الثاقبة فلا يرتابون ولا يشتبهون ، فالكلّ عندهم مُحكم ومبرم ، لأنّ المحكمات هي الأم - أي : المرجع - فلما ردوا المتشابه إلى أصله وهو المحكم صار الكل محكماً عندهم ، لأنّ الكل من عند الله تعالى ، { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً } .

هذا وقد ذكرت في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)
وجوهاً من الحجج والبراهين على ذلك - ونسأل الله تعالى العلم النافع ،
ونعوذ به من علم لا ينفع .

الرابع : مِنَ المقرَّر عند العلماء - إجماعاً - إستناداً إلى الكتاب والسنة أنّ
التكليف قائم على أساس وجود العقل ، فمن لا عقل له فلا تكليف عليه ،
ولذلك قال العلماء : شرط التكليف وجود العقل ، وسلامة إحدى الحاستين
السمع والبصر ، فَمَنْ كان لا عقل له فلا تكليف عليه ، وَمَنْ فقد الحاستين
فهو غير مكلف لأنّه سُدَّت عليه طرق التعقل ، فكيف يعقل الدين وما جاء
عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟

فحاسة السمع والبصر هما بابان يوصلان الأمور السمعية والبصرية إلى
السمع والبصر ، والعقل حينذاك يعقل ما ورد عليه من طريقهما ، فيعرف
ويتعرف الحق من الباطل ، فالسميع يُبلِّغ فيسمع ، والبصير يفهم مما رأى
ومما يقرأ ، ومما يفهمه عن طريق الإشارات الحسية فيعقل ويعلم ، فإذا
سُدَّ عليه باب السمع وباب البصر منذ صغره فلا تكليف عليه .

ويكفيك في هذا أنّ تعلم أنّ الدين والإيمان والشرائع جاءت للعقلاء ، فإنّ
كُنْتَ عاقلاً عقلت فعلت فأيقنت ، وإن عاندت وجددت فقد عزلت نفسك
عن عقلك ، وكأنك قلت لعقلك : أيها العقل أنت اعتزلني وأبعد عني ، لأنني
أريد أنّ أمشي على غير عقل ولا تبصر ، فأنت والمجنون حينذاك سواء -
لكن جنونك له لباقة بعنوان : [دعوى الفهم والعلم] وهو في الحقيقة : البهم
والجهل ، وبمعنى : [دعوى الذكاء] وهو في الحقيقة : غباء - ولقد قيل في
المثل : الجنون فنون .

فنسأل الله تعالى العقل السليم ، والاهتداء بالهدي المستقيم ، والتمسك
بالقرآن الحكيم ، وبسنة إمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه
وعلى آله وسلم ، الداعي إلى الحق والهدى ، والمنقذ من الضلال والردى ،
جزاه الله تعالى أفضل الجزاء كما هو أهله صلى الله عليه وعلى آله وسلم
تسليماً .

ورضي الله تعالى عن ابن رواحة حين قال :

أتانا رسول الله يتلو كتابه

إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا

به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه

إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قوله تعالى : {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} .

فلنرجع إلى هذه الآية ونقول : لما بين سبحانه وتعالى - فيما سبق - أن المؤمنين إخوة ، وأمر بأداء حقوقها ، ونهى عما فيه انتهاك لحرمتها ، ونهى عن السخرية والنبز ، واللمز ، وسوء الظن ، والتجسس ، والغيبة - لما في ذلك من انتقاص المؤمن أخيه المؤمن ، وإيذائه ، واحتقاره ، والترفع عليه ، وادعاء الأفضلية ، ذكر بعد ذلك هذه الآية الكريمة ، يُبين فيها تأكيد الأخوة الإيمانية التي هي الأصل ، وتقويتها بالأخوة الإنسانية ، وأنهم كلهم إخوة جسمانياً وإنسانياً ، خلُقوا من أب واحد ، وأم واحدة ، فهم سواسية ، ليس لأحد منهم فضل على غيره ، ولا أكرمية على غيره ، ولا رفعة درجة إلا بتقوى الله عز وجل ، فأكرمهم عند الله أتقاهم ، وبين أن التقوى ليست دعوى ، وكون الإنسان أتقى من غيره ليست مستندة إلى دعواه ، بل مراد ذلك إلى الله تعالى فقال : {إن الله عليم خبير} أي : هو عليم بمن اتقى ، كما قال سبحانه : {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} ، كما أنه تعالى عليم خبير بمن هو أتقى : {إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} .

وَبَيَّنَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ أَبِي وَأُمِّ - آدَمَ وَحَوَاءَ - وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا^١
وَقِبَائِلَ لِيَتَعَارَفُوا بَيْنَهُمْ ، فَيُؤَاوِلُوا أَرْحَامَهُمْ ، وَيَتَأَلَّفُوا بَيْنَهُمْ ، وَيَتَّبِعُونَ
أَنْسَابَهُمْ ، وَيَتَوَارَثُوا أَمْوَالَهُمْ بِحَقِّهَا الشَّرْعِي .

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ
أَرْحَامَكُمْ ، فَإِنَّ صَلَاةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ ، وَمَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ ، وَمَنْسَأَةٌ
فِي الْأَثَرِ)) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ولم يجعلهم سبحانه شعوباً وقبائل ليتفاخروا بينهم بالآباء والقبائل ، ويترفع
بعضهم على بعض ، فيحتقر نسب غيره ، وينقسموا على بعضهم .

وقد خطب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم حجة الوداع فقال : -
كما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ عَلَى رَاِحَلْتِهِ يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ بِمَحْجَنِهِ فَلَمَّا خَرَجَ -
أَي : مِنْ دَائِرَةِ الْمَطَافِ - لَمْ يَجِدْ مَنَاخًا فَنَزَلَ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ فَخَطَبَهُمْ
فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ
وَتَكَبَّرَهَا بِأَبَائِهَا ، النَّاسَ رِجْلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ
هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالنَّاسَ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقِبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا} إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} .

ثم قال : ((أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم))^٢ .

فقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم المراد في هذه الآية .

^١ الشعوب جمع شعب بالفتح ، وهو الطبقة الأولى من الطبقات أي : طبقات النسب
التي عليها العرب ، وقبائل وهي تحت الشعوب ، وعمائر وهي تحت القبائل ،
وبطون وهي تحت العمائر ، وأفخاذ وهي تحت البطون ، وفضائل وهي تحت
الأفخاذ ، وعشائر وهي تحت الفضائل .
فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وعبد مناف فخذ ،
وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة .

^٢ قال في (الدر) : رواه ابن أبي شيبة ، والترمذي وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ،
وابن مردويه ، والبيهقي في (الشعب) اهـ .

فإنه تعالى جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيتألفوا ويتكاتفوا ويشد بعضهم أزر بعض ، ولم يجعلهم شعوباً وقبائل ليتفاخروا على بعضهم ، ويترفعوا وينقسموا ويتخالفوا.

عن جابر رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: ((يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد ؛ ألا لا فضل لعربي على عجمي ؛ ولا لعجمي على عربي ؛ ولا لأسود على أحمر؛ ولا لأحمر على أسود ؛ إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغتُ؟)).

قالوا: بلى يا رسول الله .

قال: ((فليبلغ الشاهد الغائب)).

وجاء في رواية : ((ولا لأبيض على أسود ؛ ولا لأسود على أبيض ؛ إلا بالتقوى))^١.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها ، كلكم لآدم وحواء، كطف الصاع بالصاع ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوجه))^٢.

فجاءت هذه الآية تدعو الناس إلى التعارف والائتلاف ، وتحذرهم من الانقسام والاختلاف.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إن أنسابكم هذه ليست بأنساب على أحد)).

وفي لفظ آخر: ((ليست بنسبة لأحد)) - أي: ليس لأحدكم أن يفخر بها على غيره - ((كلكم بنو آدم طف^٣ الصاع لم تملؤوه ، ليس لأحد على أحد فضل

^١ رواه البيهقي وابن مَرْدُويَه.

^٢ رواه البيهقي .

^٣ قال في (النهاية) : ((كلكم بنو آدم طفّ الصاع . . .)) الحديث - أي : قريب بعضكم من بعض ، يقال : هذا طف المكيال ، أي: ما قرب من ملئه ، وقيل : هو ما

إلا بدين وتقوى ، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم))^١ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((إن الله عز وجل أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وادم من تراب ؛ مؤمن تقى، وفاجر شقى .

لينتهين أقوام يفتخرون برجال - أي: بأبائهم - كفره ، إنما هم فحم من فحم جهنم - أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها))^٢ .

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: (الناس مستوون كأسنان المشط ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله تعالى).

وعن أني نضرة رضي الله عنه ، أنّ رجلاً رأى - أي: في المنام - دخل الجنة ، فرأى مملوكه فوقه مثل الكوكب ، فقال : (والله يا ربّ إنّ هذا لمملوكي في الدنيا فما أنزله هذه المنزلة ؟

فقال: هذا كان أحسن عملاً منك)^٣ .

فالناس أكفاء من جهة التمثيل - كما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

الناس من جهة التمثيل أكفاء

أبوهم آدم والأم حواء

نفس كنفس وأرواح مشاكلة

وأعظم خلقت فيهم وأعضاء

علا فوق رأسه ، والمعنى : كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتفاضل عن غاية التمام ، وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي : لم يبلغ أن يملأ المكيال ، ثم أعلمهم أنّ التفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى يملأ المكيال ويحصل الكمال.

^١ رواه الإمام أحمد والبيهقي وغيرهما . .

^٢ رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما .

^٣ رواه الديلمي .

فإن يكن لهم في أصلهم حسب

يُفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم

على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه

والجاهلون لأهل العلم أعداء

قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى }.

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لبني آدم أنه خلقهم سبحانه من أب واحد وأم واحدة ، وهذا الأب هو آدم ، والأم حواء .

وسمي آدم بهذا الاسم لأنه خلق من أديم الأرض - أي: جلدها وظهرها - كما ورد في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ؛ وَمِنْهُمْ السَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ))¹ .

وأما حواء عليها السلام فسميت بذلك لأنها خلقت من حَيٍّ - أي: خلقت من آدم خلقاً لا ولادةً - وإنما استخرجها الله تعالى من ضلع آدم عليه السلام ، والله تعالى يخلق ما يشاء كما يشاء ، وهو بكل أنواع التخليق عليم .

وقد بين سبحانه ذلك في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } .

فالنفس الواحدة في الآية هي آدم عليه السلام ، وخلق منها زوجها أي: خلق من تلك النفس حواء عليها السلام ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه

¹ رواه أبو داود والترمذي .

وعلى آله وسلم ذلك بقوله : ((استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن اعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن ذهب تُقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً))¹.

وأما آدم عليه السلام فخلقه الله تعالى من تراب :

قال سبحانه : {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً} .

فأنت ترى في هذه الآيات الثلاثة افتتاحها الله تعالى بقوله : {يا أيها الناس} وبين فيها أصل بني آدم ، أي : الآية في سورة الحجرات ونحن نبحت حولها ، والآية التي في أول سورة النساء ، والآية التي في سورة الحج ، ولكن كل آية من تلك الآيات الكريمة تبين طوراً من أطوار التخليق كما تتطلبه المناسبة المعينة ، وفي سياق حجة ساطعة ، وبينت قاطعة ، تدفع بها الشبهات ، وتثبت بها اليقينيّات والإيمانيّات ، ولا أريد الخوض في ذلك وإنما نكتفي الآن أن نحوم حول سورة الحجرات .

والنهي عن التفاخر القبائلي والترفع العشائري كما عليه الجاهلية ، وما يترتب على ذلك من إذلال قوم واحتقارهم وإعزاز آخرين - جاء القرآن الكريم يلومهم بذلك وينعي عليهم ، ولكن هذا لا يتنافى مع ما جاء في شرافة الأنساب الطاهرة الطيبة ، وشرافة النسب الصالح ، فالنسب الشريف النفيس لا يقتضي لغيره التبخيس والتدنيس .

فأشرف الأنساب وأنفسها ، وأطهرها وأقدسها ، وأطيبها وأزكاها ، وأمجدها وأعلاها ، الجوهر العالي على جميع الأجناس ، والذي فاق جميع أنساب الناس هو نسب السبطين الجليلين سيدنا الحسن وسيدنا الحسين عليهما السلام ابني السيدة الكبرى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة

¹ رواه الشيخان وغيرهما عن أي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

نساء العالمين بنت سيدنا ومولانا ، وقرّة أعيننا وروح أرواحنا إمام الأنبياء
والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ؛ سيدنا محمد
صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة تليق به وبمقامه العظيم ، في كل
لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله تعالى العظيم ، وعلينا معهم أجمعين -
فهنيئاً لمن تشرف بهذا النسب ونال فخر هذا الحسب :

أولئك ساداتي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا أخي المجمع

سراة سرى نور النبوة فيهمو

فنورهمو في الناس بادٍ وساطعُ

ورضى الله تعالى عن الشافعي إذ يقول :

آل النبي ذريعتي وهو إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي

وقوله :

يا آل بيت رسول الله حبكم

فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفضل أنكم

من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

وجه الحبيب إذا تبدّى طالعاً

يُنسيك حسن محاسن القمرين

قد زين الدنيا بطلعة وجهه

والبضعة الزهراء والحسنين

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

فالانتساب إلى الحبيب الأسمى ؛ والرسول الأتقى ؛ فيه الفضل والشرف والخير الأبقى .

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أما والله إنني لأتقاكم الله وأخشاكم له . .)) الحديث كما سيأتي إن شاء الله تعالى . - .

فالانتساب إلى الأكرم يقتضي أن يكون النسب أكرم ، وهذا هو ما يفهمه من الآية الكريمة كل مؤمن لبيب ، وقد قال سبحانه في الغلامين : {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} فأكرمهما الله تعالى بنسبهما للأب الصالح وهذا صريح واضح .

وقال تعالى : {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء} .

وهذا أمر بيّن لا يختلف فيه اثنان ، ولا يخالف في ذلك إلا الشيطان - لأنه ثابت بنص الآية حيث قال : {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} فالنسب الصالح له شرفه وفضله وكرامته .

وقال تعالى إخباراً عن دعاء الملائكة عليهم السلام للمؤمنين : {ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم} .

قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} .

استدل العلماء بهذه الآية على أنّ الخلق إنّما يكون من ماء الرجل وماء المرأة ، فإن هذه الآية هي نص في الموضوع لا تحتمل التأويل كما قال سبحانه : {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} أي : من أصلاب الرجال وترائب النساء .

فإن المرأة تُمني كما يمني الرجل ، وعن ذلك يكون الشبّه كما في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال : جاء حبر من اليهود إلى رسول الله صلى

الله عليه وعلى آله وسلم فذكر الحديث بطوله إلى أن قال ثوبان : فقال - اليهودي - أسألك عن الولد - أي ذكوره وأنثته - .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا علا مني الرجل مني المرأة - أي : في الرحم - أذكر بإذن الله تعالى ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثى بإذن الله تعالى)) .

فقال اليهودي : صدقت ، وإنك لنبى ثم انصرف - اليهودي - .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لقد سألتني - أي : اليهودي - وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله تعالى به))^١ .

قوله تعالى : {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} .

هذا دليل قاطع على أن أكرم الخلق على الله تعالى وأفضلهم عند الله هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبيان ذلك أن الله تعالى بين أن الأكرمية عنده تابعة للتقوى ، فمن كان أتقى فهو أكرم ، قال تعالى : {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} ، ومن المعلوم قطعاً ، الثابت بالأدلة ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أتقى العالمين كما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يسألون عن عبادته . . الحديث إلى أن قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له)) ، الحديث بتمامه^٢ .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها ، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ما بال أقوام ينتزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إنني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية))^٣ .

^١ رواه مسلم ، وقد روى الشيخان عن عبد الله بن سلام نحواً من هذا الحديث أيضاً .

^٢ رواه الشيخان والنسائي وقد ذكرته في (الشمائل الشريفة) فانظره .

^٣ متفق عليه .

وفي الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً)) الحديث^١.

وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإنه أتقى الأولين والآخرين عند رب العالمين .

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُعلن بأنه أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ، والأكرم هو الأتقى - كما دلت عليه الآية .

فأكرم خلق الله تعالى على الله تعالى ، وعند الله هو أنقاهم الله تعالى ، وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

عن ابن عباس رضي الله عنهما^٢ وذكر حديثاً وفيه قال صلى الله عليه وسلم : ((أنا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يُحرّك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر)) .

وعند الدارمي : ((وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر)) الحديث، وقد ذكرته كله في كتاب : الشهاداتين وغيره من الكتب .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر))^٣ .

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتقى الأولين والآخرين ، ومن ثمَّ كان أكرم الأولين والآخرين كما في الحديث المتقدم .

ولذلك كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم أول من يُحشر، وأول من يجوز الصراط بأُمَّته ، وأول من يُشفع ويشفع ، وأول من يفتح باب الجنة ، وأول

^١ رواه مسلم .

^٢ رواه الترمذي والدارمي .

^٣ رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم .

مَنْ يدخلها - وجميع أهل الجنة إنّما يدخلون الجنة من ورائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كلٌّ على حسب مقامه ورتبته في التقوى .

قال تعالى : {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد} .

اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندك وبكرامته عليك ، وبفضل سجوده شافعاً إليك - آمين .

قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} .

في هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى أنّ الكرامة عنده تابعة للتقوى ، فعلى قدر تقوى الإنسان تكون كرامته عند الله تعالى ، ولم يقل : إنّ أكرمكم عند الله أغناكم ، وفي هذا تنبيه وإرشاد للعباد أنّ يُقدروا الناس بتقواهم لا بمالهم وغناهم ، وأنّ يُكرموا الأتقى ولا يكرموا الأغنى مالاً، فإن مقياس الكرامة هو التقوى .

روى الإمام أحمد وابن أبي شيبة عن دُرّة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أيُّ الناس خير؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله عز وجل ، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم)) .

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقوى) فكان موضع إكرامه وإعظامه التقوى ، وهي التي تعجبه ويُسرُّ بها، وما كانت الدنيا تعجبه ولا أحد مما فيها إلا ذو تقوى .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إذا أراد الله تعالى بعبده خيراً جعل غناه في نفسه ، وتقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبده شراً جعل فقره بين عينيه)).

والمعنى: أن حاله حال الفقير الذي لا يجد مالاً ويسارع إلى زيادة المال حباً جماً، ويتفانى في جمع المال مع أنه كثير المال ، وغني بالمال ، ولكن كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ ، ولكن الغنى غنى النفس))¹.

فكثرة عَرَضِ الدنيا وحطامها ومالها ليس هو الغنى الحقيقي المعزُ لصاحبه، والمكرم لصاحبه في الدنيا والآخرة ، ولكن الغنى المكرم والمشرف لصاحبه هو غنى النفس .

وبالتقوى ينال غنى النفس ، لأنَّ التقوى تَقِيهِ وتُنَقِّيهِ من الصفات الذميمة الخسيسة ، وتحلِّيه بالصفات الكريمة النفيسة ، وتجعل صاحبها عزيزاً كريماً عند الله تعالى ، وكريماً عند الناس .

روى الحكيم الترمذي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من اتقى الله أهاب الله منه كل شيء، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء)) - أي : أخافه من كل شيء.

ويرحم الله القائل :

يريد المرء أن يحظى مُناه ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

ولما كانت التقوى هي الأمر المعوّل عليه ، وبها يكون مقادير الناس وكرامتهم عند الله تعالى، وبها يُرفع وبتركها يوضع ، لذلك جاءت وصية الله تعالى للأولين والآخرين بالتقوى ، قال تعالى: **{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ** **أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ . . . { الآية .**

ومعنى: وإياكم ، أي: أوصينا من قبلكم، وأوصيناكم يا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم أن اتقوا الله ، وأنتم أحق من غيركم بالتقوى ، لأنّ رسولكم أفضل الرسل وأتقاهم ، فينبغي أن تكونوا أتقى الأمم وأخشاهم الله تعالى .

¹ متفق عليه .

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُوصي بتقوى الله تعالى في وصاياه العامة والخاصة .

فمن وصاياه العامة : ما جاء في حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه قالوا : يا رسول الله أوصنا .

قال: ((أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة)) الحديث كما ذكرته في كتاب (صعود الأقوال) وغيره .

ومن وصاياه الخاصة : وصيته لأبي ذر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكر الحديث بطوله إلى أن قال: فقلت : يا رسول الله أوصني .

قال: ((أوصيك بتقوى الله فإنّها زين لأمرك كله)).

قلت: يا رسول الله زدني .

قال: ((عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل فإنّه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض)).

قلت: يا رسول الله زدني .

قال: ((عليك بطول الصمت فإنّه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك)).

قلت: زدني .

قال: ((إياك وكثرة الضحك فإنّه يميت القلب ويذهب بنور الوجه)).

قلت: زدني .

قال: ((قُلِ الْحَقُّ وَلَوْ كَانَ مَرًّا)).

قلت: زدني .

قال: ((لا تَخَفْ في الله لومة لائم)).

قلت: زدني .

قال: ((ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك))¹.

وجاء في رواية ابن حبان : قلت يا رسول الله زدني .

قال: ((أحبَّ المساكين وجالسهم)).

قلت: يا رسول الله زدني .

قال: ((انظر إلى من هو تحتك - أي: في الدنيا - ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عندك)).

قلت : يا رسول الله زدني .

قال: ((ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتي ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتي)) - ثم ضرب بيده على صدره فقال: ((يا أبا ذر: لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكفِّ ولا حسب كحسن الخلق)).

فتقوى الله تعالى تأتي بكل خير ، وتدفع عن صاحبها كل شر ، لأنَّ التقوى هي التوقي من المكاره والمضار ، فتقوى الله تعالى هي أخذك بالأسباب الوقائية التي تقيك غضبه وعذابه ، وعقابه وعتابه ، وحجابه عن بصيرتك وقلبك في الدنيا ، وعن بصرك وبصيرتك في الآخرة .

والأسباب الوقائية هي امتثالك ما أمر الله تعالى به ، وتركك ما نهاك عنه ، واتصافك بالصفات التي يُحبها سبحانه ، والتنزه عما يكرهه ؛ فإذا اتقيت الله تعالى التقوى الكاملة ؛ بفعل الأوامر الواجبة والمسنونة والمحبوبة ؛ وتركت ما نهاك عنه من المحرمات والمكروهات ، وما ينبغي أن يتنزه عنه أهل الإيمان الكامل فإذا تحققت بذلك ، وثبتَّ عليه مخلصاً لربك ، صادقاً في تقربك إليه ، وحبك إيَّاه ؛ إذا فعلت ذلك: نلت الفضائل ، وعلوت في الدرجات والمنازل .

¹ والمعنى: ليمنعك عن التكلم في الناس وغيبتهم والتكلم بما يكرهونه ليمنعك عن ذلك ما تعلمه من عيوب نفسك وتقصيرها.

قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والطبراني وابن حبان في (صحيحه) والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد. اهـ .

وهذه كلمات موجزة عن فضائل التقوى ومقاماتها ، ومنازلها عساها
تنهض بهمتك ، وتقوى بها عزيمتك :

١- التقوى سبب الولاية :

قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .

فوصف سبحانه أوليائه بكونهم مُتقين حيث قال: {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} وحيء
بكان الدالة على الثبات والتمكن ، فكينونة التقوى ملازمة لهم حيثما تقلبوا،
وراحوا وجاءوا في الجامع ، والشارع ، والمتجر ، والسفر ، والحضر ،
والخلوة والجلوة، ووعدهم بالبُشْرَى في الحياة الدنيا والآخرة ، وبيّن لهم
أنّه لا تبديل لكلامه فيما وعد به ، أما بشراهم في الحياة الدنيا؟ ، فقد سئل
رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك فقال: ((هي الرؤيا
الصالحة، يراها الرجل المسلم أو تُرى له))^١، وقد تكلمت على هذه الآية
مفصلاً في بعض كتبي فارجع إليها .

٢- التقوى الكاملة سبب عظيم في نيل المحبة الإلهية :

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} .

فما ظنك بمن كان الله معه؟

٣- تقوى الله تعالى يفتح الله تعالى بها أبواب بركات السماء والأرض:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} الآية .

٤- تقوى الله تعالى تقيك شر نفسك، وشر كل ذي شر، لأنها وقاية الله
تعالى ، كما روى ابن النجار عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً:
(من اتقى الله وقاه الله تعالى كل شيء)) .

^١ كما في (سنن) الترمذي .

٥- تقوى الله تعالى سبب عظيم في فتح الأبواب المغلقة، وفتح طرق
المخارج من المضايق بأنواعها ، وفتح أبواب الرزق الحلال النافع في
الدنيا والآخرة .

قال سبحانه : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}
الآية .

فهو سبحانه يجعل للمتقين مخرجاً من كل ضيق وقعوا فيه ، ويرزقهم من
حيث لا يعرفون ولا يحتسبون ، فقد يحسب أن هذا باب رزقه فيفتح الله
تعالى له باباً آخر أوسع من أيّ باب ، وسبب شاءه سبحانه ، فهو مسبب
الأسباب ، وهو مفتاح الأبواب .

وقال تعالى : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يسراً ذلك أمر الله أنزله
إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً} .

فما أعظم أمر التقوى؟! نعم إنها تأتي بخير الدنيا والآخرة .

اللهم اجعلنا من المتقين ، واجعلنا للمتقين إماماً برحمتك وفضلك يا ذا
الفضل العظيم - آمين .

ولقد ذكر الله تعالى لنا قصة واقعة ، فيها أدلة قاطعة ، وبراهين ساطعة،
تدل على حقيقة ما رتبته الله تعالى على التقوى ، وصدق ما وعد به المتقين،
ليكونوا على بينة من ربهم .

فهذه قصة يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد مرّت
عليه شدائد ومحن ، وحلّت به المصائب ، ووقع في المضايق المتنوعة ،
والمكاره المتعددة: فراق الأبوين، وتهديده بالقتل ، وإلقاؤه في البئر، وبيعه
فصار مملوكاً ، ثم صار رقياً يخدم بيت الملك ، ثم محنته النسائية ، ثم
إدخاله السجن مع أناس غير صالحين ؛ منهم عبدة أصنام ومنهم شراب
خمر . . إلخ - ولكن ماذا صار إليه بعد ، وماذا كانت عاقبته؟

نعم كانت العاقبة نعمت العاقبة الحسنة ، لأنه سبحانه وتعالى قال:
{وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} فحسن العواقب في الدنيا والآخرة منوط بالتقوى ،
والعاقبة للمتقين .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، ويا ذا الجلال والإكرام ؛ اسمع واستجب فإنك القريب المجيب .

نعم لقد آمنَ اللهُ تعالى يوسف حين ذهبوا به وأسمعوه بالقتل أو رمي البئر ، ألقى في البئر المخيف في أرض منقطعة ، قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ} - حينذاك - {لَتَبْنُنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} - أي: أعلمناه ذلك بالوحي في ذلك الوقت العصيب المخيف من حيث لا يشعرون ، وقلنا: لا تخف ، فسوف يأتي يوم تذكر لهم ذلك ، وتخبرهم عما أرادوه بك ، وكادوك به ، ثم رفعه الله تعالى من حضيض البئر حتى صار في علية القصر الملكي ، ثم نقله من رِقِّ العبودية والمملوكية للمخلوق وهو المَلِك ، فجعله الله تعالى مَلِكاً والعباد تحت أمره ، حتى الملك الذي اشتراه بعد أن برأه الله تعالى مما رمي به وأُتُّم به ، وأخرجه من السجن ، وهو أبيض الوجه رافع رأسه بعزة وكرامة ، وبراعة ، باعتراف النسوة كلهن ، كما قال سبحانه: {قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} .

فترى أيها العاقل أنّ كل واحدة من هذه المحن والشدائد هي أدهى من الأخرى وأمرُّ ، فأخرجه الله تعالى من جميع تلك المضايق ، وبَيَّنَّ السبب في ذلك سبحانه وتعالى في آخر ذكر المحن والمصائب ، قال تعالى مخبراً عن يوسف: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبَوُّوْ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} .

فاعتبر في قوله تعالى: {وَكَاثُرًا يَتَّقُونَ} ولمَ جيء بذلك هنا ، ولما تم له المُلْكُ وكمل وتمكن ، ومضت سنون ومرت أيام ، وجاء إخوته آخر مرّة واسترحموه ، وقالوا له: {يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} .

وهذا تأويل وتحقيق لقوله تعالى: {التَّبَيَّنُّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا} كما تقدم في الآية.

{قالوا ءإنك لأنت يوسف} - مستبعبدين ذلك كل البعد - {قال أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا} - .

ثم بيّن لهم السبب في ذلك، وبيّن لهم عادة الحق مع الخلق فقال: {إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} .

وهنا موضع العبرة في القصة ، وهنا موضع التدبير والتفكر في أفعال الله تعالى وتصرفه في عباده وتدابير أمورهم، وهناك موضع الاعتبار في عظم أمر التقوى وآثارها وفعاليتها ، وبذلك تنهض همم الأتقياء للزيادة، ويتذكر العاقل، ويُنْتَبِه من غفلته ، ويتعلم الجاهل ، ويُفِيق من جهالته ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} الآية - أي: بل هو كلام الله تعالى، يخبرنا عن حقائق واقعية ، فيها إسعاد وإرشاد إلى منهج الحق والسداد .

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك ، وأسعدنا بتقواك ، ولا تشقنا بمعصيتك ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين ويا ذا الفضل العظيم .

٦- التقوى فيها النجاة في الدنيا والآخرة :

قال تعالى: {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} .

٧- التقوى فيها السلامة من المخاوف والمتألف حين يجوز الناس على الصراط :

قال تعالى: {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم نجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً} .

٨- التقوى فيها الأمان يوم الخوف والزحام :

قال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} فالناس في الموقف وقد اشتد وامتد فأزلفت - أي: قربت الجنة للمتقين وهم في الموقف، فصاروا يرونها وجمالها ، ويشمون رائحتها الطيبة ، ويتنسمون ريحها البارد ، فما شعروا

بشدة الموقف ، في الوقت الذي بُرِّزت الجحيم للغاوين ، فالغاوون هم في شدائد الموقف ، فزاد الشدائد شدة أن قُرِّبت لهم وبُرِّزت أي: ظهرت الجحيم ، فأوها وقتامها ، وظلامها، ونيرانها ، وصاروا يشتمُّون روائحها الخبيثة المنتنة ، ويأتي شوب من لهبها قال تعالى : {وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون} .

٩- التقوى شعار أهل الجنة :

قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} .

وقال تعالى: {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين} .

فالمتقون على مراتب في التقوى ، فهم يدخلون الجنة زمراً ، أصنافاً وجماعات ، كلُّ على حسب مقامه .

قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} .

فيها تحريض للعباد ، وحثُّ على تكريم من كان كريماً عند الله تعالى: وهم أهل التقوى، وكلما كان أتقى فهو أكرم يجب إكرامه واحترامه لإيمانه بالله تعالى وتقواه ، وخشيته من الله تعالى ، فإنَّ الخشية من الله تعالى مقرونة بتقواه ، قال سبحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} .

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

فمن أكرم مؤمناً لإيمانه فقد أكرم الله ، وثوابه عند ربه كما ورد في الحديث الذي رواه الطبراني مرفوعاً: ((من أكرم مسلماً فإنما يكرم الله تعالى)) - أي: لأنه كريم على الله تعالى ، فيكرم المرء والمرأة للتقوى ؛ إذا كان عندهما تقوى ، ولا يكرم أحد من رجل أو امرأة لغنى المال ، فإنَّ الله تعالى لم يقل : إن أكرمكم عند الله أغناكم ، بل قال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} .

ولذلك جاء التحذير الشديد لمن عَظَّمَ غَنِيًّا لِمَالِهِ لَا لِتَقْوَاهُ وَإِيمَانِهِ ، وَالْوَعِيدَ وَالتَّهْدِيدَ لِمَنْ احْتَقَرَ أَوْ أَهَانَ مُؤْمِنًا فَقِيرًا الْمَالَ :

روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((مَنْ أَصْبَحَ حَزِينًا عَلَى الدُّنْيَا أَصْبَحَ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مَصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَإِنَّمَا يَشْكُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ تَضَعُضَعَ - أَي: تَوَاضَعَ وَأَذَلَّ نَفْسَهُ - لِغَنِيِّ لَيْنَالٍ مِمَّا فِي يَدَيْهِ فَقَدْ أَسْخَطَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى)) - أَي: لِأَنَّهُ مَقْصَرٌ وَلَمْ يَعْمَلْ بِالْقُرْآنِ .

قال المنذري: رواه الطبراني في (الصغير) ، ورواه أبو الشيخ في (الثواب) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، إلا أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ : ((وَمَنْ قَعَدَ أَوْ جَلَسَ إِلَى غَنِيِّ فَتَضَعُضَعَ لَهُ لِدُنْيَا تُصِيبُهُ ذَهَبٌ ثَلَاثًا دِينَهُ ، وَدَخَلَ النَّارَ)) .

وروى البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : ((مَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعُضَعَ لَهُ ذَهَبٌ ثَلَاثًا دِينَهُ)) .

وقد روى البيهقي نحو هذا الحديث مرفوعاً مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، كَمَا رَوَى الطَّبْرَانِيُّ نَحْوَهُ أَيْضًا .

وفي رواية الديلمي : عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : ((لَعَنَ اللَّهُ فَقِيرًا تَوَاضَعَ لِغَنِيٍِّّ مِنْ أَجْلِ مَالِهِ ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ ثَلَاثًا دِينَهُ)) .

وفي رواية له أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً:

((مَنْ تَضَرَّعَ لِصَاحِبِ دُنْيَا وَضَعَ بِذَلِكَ نِصْفَ دِينِهِ)).

فالتواضع للأغنياء وتعظيمهم لمالهم يُذهب بنصف الدين بل ثلثيه كما تقدم، وذلك على حسب ذلك التواضع والتعظيم ، فليحذر المسلم ، ويحافظ على دينه .

وللطبراني في (الصغير) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ أَصْبَحَ حَزِينًا عَلَى الدُّنْيَا أَصْبَحَ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو - أَي: لِلنَّاسِ -

مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله تعالى، ومَنْ تَضَعُ لَغْنِي لَيْنَالِ مِمَّا فِي يَدِهِ فَقَدْ أَسْخَطَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ - أَيْ حَفِظَ الْقُرْآنَ - فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى)) وقد تقدم هذا الحديث أيضاً .

فهذه روايات متعددة الأسانيد، يشدُّ بعضها بعضاً، وأعدت ذكر بعضها لأجمعها إلى بعضها .

فلا يُكْرَمُ الْغَنِيُّ وَيُعْظَمُ لِمَالِهِ، وَإِنَّمَا يُكْرَمُ إِذَا كَانَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَائِماً بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، مُؤَدِّياً حَقَّ مَالِهِ ، مُوَاصِلاً بِهِ رَحْمَهُ ، مُؤَدِّياً زَكَاتِهِ لِأَهْلِهَا الْمُسْتَحْقِينَ ، مُسَاعِداً وَمُسَعِفاً لِلْفُقَرَاءِ ، وَذِي الْأَرْحَامِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقى في ماله ربه ، ويصل به رحمه ، ويعلم أنّ الله فيه حقاً - فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أنّ لي مالاً لعملتُ عمل فلان - أي: عملَ خيرٍ وبر - فهو بنيته وأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يَخْبِطُ في ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم أنّ الله فيه حقاً - فهذا بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أنّ لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلان¹ - فهو بنيته ووزرهما سواء)) رواه الترمذي عن أبي كبشة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم في حديث طويل .

¹ فلا عبرة بحكم ابن الجوزي بوضعها، فإنه سريع الحكم بالوضع، وربما حكم بوضع الصحاح والحسان، ولذلك قال الحافظ السيوطي في ألفيته: ومن غريب ما رواه - أي: في الموضوعات - فاعلم فيه حديث من صحيح مسلم .
² علماً بالحلال والحرام ، وبما يجب عليه من أمور دينه وعمله، فالعلم بما تصح به العقيدة وتصح به الأعمال المأمور بها والعلم بالحلال والحرام ذلك كله فرض على كل مسلم ومسلمة.

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((يُجاء بابن آدم - أي : يوم القيامة - كأنه بَدَجٌ^٢ فيوقف بين يدي الله عز وجل فيقول الله تعالى له : أعطيتك ، وخولتكَ ، وأنعمت عليك - أي : كثيراً من نعم الدنيا - فماذا صنعت ؟

فيقول : يا رب جمعتَه وثمرته فتركته أكثر ما كان ؛ فارجعني آتكَ به .

فيقول الله تعالى له : أين ما قدّمتَ - أي: من عمل البر والخير - .

فيقول العبد : يا ربّ جمعتَه فثمرته - أي: نميته - فتركته أكثر ما كان ؛ فارجعني آتكَ به .

فإذا عبُدَّ لم يُقدّم خيراً فيمضى به إلى النار)) .

وهذا أحمقٌ ، لأنّه كالحمار حمل حملاً ثقيلاً ، ثم أخذ منه الحمل ولم يستفد الحمار منه شيئاً ، غير أنّ الحمار هو مسخر لابن آدم في ذلك ، فالمسؤولية في تحميل الحمار على ابن آدم ، وماذا يصنع بما حمّله على الحمار .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال: يقول العبد : مالي مالي ، وإنّما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى - أي: ادّخر للأخرة - وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)) .

فالإنسان الذي جمع مالا ووعده ، ونمّاه وكثره ، واتجر به ، وتعب ليل نهار في تكثيره وجمعه ، ولكنّه لم يُؤدِّ حقوق الله تعالى فيه ، ويحسب أنّ

^١ أي لعمل مثل ذلك الفاسق الذي يخبط في ماله ، ولا يتقي فيه ربّه، ولا يصل رحمه ، فنوى بنية جازمة أنّ لو كان عنده مالٌ لعمل ذاك العمل الحرام ، إذاً يعتبر كالعامل ، لأنّ النية الجازمة كالعمل في الخير والشر ، ولكن من نوى الخير فعمله ضوعف له ، ومن نوى الخير ولم يعمل لعدم تيسر الأسباب ففيه خلاف هل يضاعف ثوابه أم لا والأكثر على عدم المضاعفة ، كما دلت عليه بعض الأحاديث ، والقول الأول له أدلته أيضاً منها هذا الحديث الذي نحن فيه حيث قال : ((فأجرهما سواء)) ، والمسألة فيها تفصيل تأتي في موضعها إن شاء الله تعالى .

^٢ البَدَج : ولد الضأن الصغير .

ماله أخلده ، ثم ألقى حمل ما جمعه من المال عن ظهره ، فصار لغيره ، وراح إلى القبر وحده ، فقير المال ، فقير البر والإحسان ، وما ينفعه من الأعمال عند الله الكبير المتعال ، فراح في حَسْرَة على فراق ماله المحبوب، وصار يُعذب بما جمع ومنع ، ويُكوى بديناره ودراهمه وأمواله كَيَّات من نار ، فيتمنى حينذاك أن لا يكون درهم ولا دينار عنده أبداً ، وصار من الأخسرين بعد أن كان في الدنيا يظن نفسه أنه من الأغنياء المكرمين ، الرابحين في تجاراتهم وعماراتهم ومعاملهم وصنائعهم - إلا الذين أدوا حقوق الله تعالى فأدوا أوامره ، وانتهوا عن مناهيه ، وأدوا حقوق عباد الله تعالى التي أوجبها عليهم في أموالهم ، ووفوا بذلك وفاء كاملاً ، قال تعالى : {وفي أموالهم حقُّ للسائل والمحروم} فأولئك هم الرابحون الناجحون المفلحون .

كما جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حرّة بالمدينة ، فاستقبلنا جبل أحد .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يا أبا ذر)).

قلتُ : لبيك يا رسول الله .

قال : ((ما يسرني أنّ عندي مثل أحد ذهباً تمضي عليه ثلاثة وعندي منه دينار إلا شيء أرصده لدين^٢ ، إلا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا)) - عن يمينه وعن شماله وعن خلفه صلى الله عليه وسلم^٣ .

ثم سار صلى الله عليه وعلى آله وسلم ساعة ثم قال صلى الله عليه وسلم : ((هم الأفلون يوم القيامة ، إلا مَنْ قال : هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقليل ما هم)) الحديث .

^١ أي : ثلاث ليال .

^٢ أي : أعده لوفاء دين عليّ .

^٣ ما يسرني أن يكون عندي مثل أحد ذهباً إلا أن أنفقه قبل مضي ثلاث ليال في مساعدة الفقراء والمحتاجين ، وما أبقى عندي إلا ما يفي ديناً عليّ صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ المنذري : رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم ولفظه : قال - أي : أبو ذر رضي الله عنه : انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة ، فلما رأي قال : ((هم الأخسرون ورب الكعبة)) .

قال أبو ذر : فجبنت حتى جلست فلم أتقارّ - أي : لم ألبث مدة - أن قمت ، فقلت : يا رسول الله فذاك أبي وأمي من هم ؟ - أي : من هم الأخسرون - .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((هم الأكثرون أموالاً إلا من قال : هكذا وهكذا وهكذا¹ من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله - وقليل ما هم)) .

والمعنى أن المتصدق منهم والمنفق بسخاء وطيب نفس هكذا وهكذا دون تقطير ولا تقطير ولا منة ولا إيداء بالكلام ولا رياء ولا سمعة هؤلاء قليل ما هم .

قال : ورواه ابن ماجه مختصراً : ((الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة - إلا من قال : هكذا وهكذا ؛ وكسبه من طيب)) .

أي : وكان كسبه لذلك المال هو من طريق الحلال ، وأما الإنفاق من كسب حرام فهو معصية فوق معصية ، لأنّ المال الحرام يجب رده إلى أهله أو ورثتهم إن مات أهله .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في نخل لبعض أهل المدينة فقال : ((يا أبا هريرة هلك المكثرون إلا من قال هكذا وهكذا)) - ثلاث مرات - حتا بكفيه عن يمينه وعن يساره ومن بين يديه ((وقليل ما هم)) .

رواه الإمام أحمد ورواته ثقات ، ورواه ابن ماجه نحوه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((نحن الآخرون¹ الأولون يوم القيامة ، وإنّ الأكثرين هم

¹ إلا من أعطى بسخاء وبذل للمساكين والمحتاجين والفقراء ، فالقول هنا المراد به فعل العطاء والإنفاق .

الأسفلون إلا مَنْ قال : هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن يساره ، ومن خلفه
وبين يديه)) رواه ابن حبان في (صحيحه) .

قال الحافظ المنذري بعدما أورد هذه الأحاديث قال : وفي هذا المعنى
أحاديث كثيرة تدور على هذا المعنى اختصرناها . اهـ .

ويكفي ذلك واعظاً للمسلم .

وإياك يا أخي أن يخطر على بالك أنّ هذه الأحاديث المتقدمة قد جاءت في
الأغنياء المكثرين من الكفار ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب
المسلمين قال : ((إلا من قال هكذا وهكذا)) أي : أعطى بسخاء وساعد
وعمل خيراً ، فلا يكون من الأخسرين ولا من الأسفلين ، وهذا إنما يكون
في المؤمن ، وأما الكافر فإنّ إنفاقه وبذله لا يُخرجه عن كونه من الأسفلين
والأخسرين ، ولا يُخرجه من النار مَهْمَا عمل من خيرات ومبرات مادام
كافراً .

قال الله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} الآية .

وقال تعالى : {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} .

ويدلك أيضاً على أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يُرد بالمكثرين
الأسفلين والأخسرين لم يقصد بذلك الكفار ، لأنّ الكفار هم أخسر الأسفلين
بسبب كفرهم لا بسبب كثرة مالهم وإسآكهم ، قال تعالى - في الكفار - :
{قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه
فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً}.

وهناك آيات كثيرة في هذا المعنى .

¹ أي : نحن آخر الأمم ، وقد مضى قبلنا أمم كثيرة - ولكننا الأولون يوم القيامة
السابقون إلى الجنة .

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : كما في (سنن) الترمذي عن أنس مرفوعاً : ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)). .

فكثرة المال فتنة ومحنة لصاحبه ، يبتليه سبحانه أي شكر الله تعالى فيؤدي حقوق الله تعالى وحقوق عباده التي أوجبها في ماله ؛ أم يكفر نعم الله تعالى عليه ، قال تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلاً} الآيات .

فقوله سبحانه : {كلاً} المعنى : أن النعمة والمال ليس دليلاً على أن صاحبه كريماً على الله تعالى ، وأن ما أعطيه فهو إكرام من الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وإنما هو ابتلاء واختبار وامتحان ، كما أن من قُدر عليه رزقه، وقَلَّ ماله ليس ذلك دليلاً على أن الله تعالى قد أهانه، وإنما هو ابتلاء ، أيسبر أم يضجر ويكفر .

فكثرة المال وقلته فتنة واختبار وامتحان ، وبعد الامتحان يُكرم المرء أو يهان .

ويرحم الله القائل :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن

لما كان في الدنيا شراب لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة

وقد شبعن فيها بطون البهائم

فالكرامة هي تقوى الله تعالى وبها العزة والكرامة في الدنيا والآخرة ، وليست الكرامة بجمع حطام الدنيا وجيفها ؛ وليس عنده تقوى لله ولا عزة نفس ، ولا كرامة ، بل هو عبد الدينار وعبد الدرهم - كما ورد في الحديث.

اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من فتنة المال وإفساده دين المسلم :

روى البزار بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم)) .

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله ، فقال : ((إنما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((ألا وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، وإن الآخرة أجل صادق ، يقضي فيها ملك قادر)) الحديث كما ذكرته في (الشمائل الشريفة) في خطبته صلى الله عليه وسلم .

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الشيطان لعنه الله تعالى : لن يسلم مني صاحب المال من إحدى ثلاث أغدو عليه بهنّ وأروح : أخذه من غير حله ، وإنفاقه في غير حله ، وأحبّبه إليه فيمنعه من حقه))¹ .

فلا يزال الشيطان يسعى في أن يجمع الإنسان مالاً حراماً غير حلال ، وأن يضيّعه في الحرام ، وأن لا يؤدي حقه من الزكاة ونحوها ؛ حباً للمال وحرصاً عليه ، ورغبة وفناء فيه حتى يفنيه الموت .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطى رضي وإن لم يُعط سخط - تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش .

طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ؛ إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقية كان في الساقية ، إن استأذن لم يُؤذن له وإن شفع لم يشفع)) - أي : فهذا هو العبد المخلص لله تعالى في عبوديته وعباداته ، لا تهمة الأشكال ولا المظاهر ، فهو

¹ رواه الطبراني بإسناد حسن ، والمعنى : أنّ الشيطان يُلازمه ويلاحقه صباحاً ومساءً ؛ حتى يوقعه في تلك الثلاث أو إحداها .

أشعث أغبر ، ولا تهمه المراتب الدنيوية ولا مناصبها فإن جعل في الحراسة رَضِي بها ، وإن جعل في الساقية رَضِي بها ، ليس كبير جاه في الدنيا ؛ إذا استأذن لم يؤذن له ، وإن شَفَع وتوسط في أمر لم يُشْفَع ، راض بما أعطي ، حراً في العبودية لله تعالى وحده ، لم يَسْتَعْبِدْ الدينار ، ولم يَسْتَرْقِ الدرهم ، ولم تستعبده الأناقة في الألبسة ، فهو ليس بعبد الخميصة - وهي كساء ذات قيمة - فما تهمه الألبسة ، والتكلف بتحسين المظاهر والأشكال ، ولا يهتم بكثرة المال ، وإنما قُصارى جهده وهمه الأكبر تقوى الله تعالى ، وحسن الأخلاق والفعال ، مع المراقبة الدائمة للكبير المتعال ، ذي الملك والملكوت والعزة والجلال - وهذا هو الحرّ الكامل عند العارفين، فإنه تحرر من العبودية لغير الله تعالى ، ومن الرقبة لغير الله تعالى ، فإذا كمل هذا المقام لصاحبه نال مرتبة الفتوة كما هو موضح عند القوم .

روى الطبراني عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك نوراً ، وإن قتلك فلك الجنة ، ولكن أعدى عدوِّك ولدك الذي خرج من صلبك ، ثم أعدى عدوِّك مالك وما ملكت يمينك)) .

فعلامه المال الذي هو خير لصاحبه السخاء به ، والعكس بالعكس .

ويرحم الله القائل :

إذا امتلأت يدا البخيل من الغنى¹

تزايد كالمرحاض فاح وأنتنا

وما كريم الأصل إلا الفضل كلما

تحمل من خير تزايد وانتما

فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بهما ، وأن يُشغلاه عن آخرته ، وعن القيام بواجبات دينه وشريعته ، فإنها كلها إلى الفناء والزوال - وإنما الباقيات مع الإنسان أبداً هي الصالحات ، وهي خير

¹ أي : امتلأت يده من المال .

ثواباً عند الله تعالى وخيراً أملاً ، فخير ما تأمل منه الخير والباقي النافع هو أعمالك الصالحة ، قال سبحانه : {المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً} .

وأما المال فأملك منه محتمل ، وكذلك البنون فإنهما قد ينعكسان عليك بالشر ، فالمال يطغيك والولد يُفسقك أو يكفرك ، ألم تسمع قوله سبحانه : {وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً} .

ولذلك أمر الله تعالى الخضر عليه السلام بقتل الغلام رحمة بأبويه ، لأنه كما جاء في الحديث الصحيح : ((الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً)) .

ولا تستبعد أيها العاقل هذا الأمر ، فكم رأيت أناساً كفرت أولادهم بأسباب متعددة ، ومنها ذهاب بعضهم إلى البلاد الأجنبية الكافرة ؛ فهناك فسق وتهتك ، وانهمك في المعاصي حتى وقع في شك من دينه الذي عليه أبواه ، فكفر بذلك ، وعاد بدعوى أنه حصل على معلومات متقدمة ، ومبادئ جديدة ، فأقنع بذلك أبويه الذين هما على الفطرة ، لكن معهما الغفلة والسذاجة ، وصدّقه فيما قال ، بدعوى أنّ ولداهم صاحب فهم وثقافة وحصافة ، فضلّ وأضلّهما ، وضلّوا عن سبيل الله تعالى ، وسخروا من الدين والشريعة وأحكام الله تعالى بدعوى الثقافة .

ويا حبذا لو أنّ ذاك راح إلى البلاد الأجنبية والتقط المعلومات النافعة ، ودرس تلك الفنون التي تعود على بلاده بالخير والنعمة ، والصلاح والنجاح ، وعاد إلى بلاده لينفعهم ، ويطبّق ما درسه من علوم نافعة ، وفنون فيها مصالح حيوية ومعاشية ، وفيها تقدم حضاري يرفع بشأن البلاد ، وينفع العباد ، مع الحفاظ على الأخلاق الفاضلة ، والتمسك بالمبادئ الصحيحة ، وهؤلاء قليل من كثير .

فإن التسابق في العلوم النافعة مطلوب لا سيما العلوم التي تنفع البلاد حضارياً وحيوياً ومعاشياً ، وفيها القوة والمنعة ، والاستعداد لصد الأعداء عن البلاد - ويُعدّ ذلك من الواجبات الشرعية .

قال تعالى: {واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم}.

فعلى العاقل أن يُحسن تربية ولده ، وأن يحافظ على أخلاقه ، ولا يتركه هَمَلًا ومهملاً ، يعيش في الأرض الفساد ، ويتسبب بما فيه ضرر العباد والبلاد ، والصبر على ذلك أجره عظيم عند الله تعالى .

روى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم)) .

وعن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن)) رواه الترمذي .

والنحل : بفتح النون والحاء هو العطاء والهبة ، فما أعطى الإنسان ومنح ولده شيئاً من مال ولا متاع ونحو ذلك أفضل من أن ينحله أدباً حسناً ، فإن هذا الأنفع والأصلح للولد والوالد والمجتمع كله .

فإن كل إنسان هو بالنسبة للمجتمع كاللبنة بالنسبة للبنيان الفخم الكبير ، ففساد اللبنة الواحدة يسبب على الجدار وهناً ، ويفتح ثغرة لتداعي البنيان إذا ترك على مدى الأزمان .

وجزى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير الجزاء ، الذي أرشدنا إلى كل ما فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة .

مسؤولية المال والحقوق المترتبة عليه :

إعلم أن مسؤولية المال الذي عند الأغنياء كثيرة ، وأمرها عظيم ، وخطرها جسيم .

قال تعالى : {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} .

نزلت هذه الآيات الكريمة في تاركي الزكاة كما يأتي من الأدلة على ذلك :

روى ابن المنذر وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}** الآيات قال : هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وكل مال لا تؤدي زكاته أكان على ظهر الأرض أم في بطنها فهو كنز ، وكل مال أدت زكاته فهو ليس بكنز ، أكان على ظهر الأرض أو في بطنها . . اهـ .

وروى نحو ذلك هذا ابن أبي شيبه وأبو الشيخ عن ابن عباس وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض . اهـ .

وروى البيهقي وابن مردويه عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: إن لي أوضاحاً من ذهب أو فضة أفكنز هو؟ قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((كل شيء تؤدي زكاته فليس بكنز)).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** الآيات - كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا لبعضهم: ما يستطيع أحد منا أن لا يبقى لولده مالاً من بعده ، فقال عمر رضي الله عنه : أنا أفرج عنكم .

فانطلق عمر رضي الله عنه واتبعه ثوبان رضي الله عنه فأتى عمر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم ، وإنما فرض المواريث في أموال تبقى بعدكم)).

فكبر عمر رضي الله عنه ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ((ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها أسرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته)).

فاعلم يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة أنّ الزكاة ثالث أركان الإسلام كما بينت ذلك في كتاب الإيمان بعوالم الآخرة ، وبينت ما يجب على أغنياء المال أنّ يعلموا أنّ في المال حقوقاً متعددة ، فالزكاة حق متعلق بعين المال، يجب أن يدفع في مصارفها المذكورة في قوله تعالى : {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم} .

فالزكاة فرض عين متعين على كل من بلغ ماله نصاب الزكاة ؛ وحال عليه الحول ؛ أن يدفعها في أحد هذه المصارف في الآية الكريمة .

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: ((إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله تعالى فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم)) .

وهناك حقوق أخرى سوى الزكاة تتعلق بالمال ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والدارقطني وغيرهما عن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنّ في المال حقاً سوى الزكاة)) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} .

فانظر في قوله تعالى : {وآتى المال على حبه} إلى أن قال : {وأقام الصلاة وآتى الزكاة} الآية ، والعطف يقتضي المغايرة .

وقد اختلف العلماء في تأويل حديث : ((إن في المال حقاً سوى الزكاة))
والحق أنه محمول على الحق الواجب بسبب أمر عارض ، وأما الحق
العيني فهو الزكاة ، ففرضيتها متعلقة بعين المال ، ومثال الوجوب بسبب
حق عارض هو أنه إذا جاءك رجل محتاج وهو مضطّر إلى مساعدة من
طعام أو علاج أو نحو ذلك - وقد كنت أديت زكاة مالك - فلا يجوز أن
ترده باعتبار أنك أديت الزكاة ، ولكن يجب عليك أن تسدّ حاجته
وضرورته من مالك ، فإن كان هذا الرجل لم يطلع عليه أحد غيرك
فالوجوب متعيّن عليك أن تساعد وتنفقه من ضرورته ، ما دمت قادراً
على ذلك ، وإن كان غيرك يعلم ذلك أيضاً ويعلم ضرورته وشدة حاجته
فالواجب على كل من علم بأمره أن يسعفه ويساعده ، ويكون ذلك واجباً
كفائياً عليهم ، فإن لم يساعدوه كانوا آثمين ؛ وإن كانوا قد أدوا زكاتهم -
وإذا كان عليهم بقية من الزكاة فلا مانع أن يعطوه منها .

فدفعهم زكاتهم عن أموالهم التي حال عليها الحول لا يسقط عنهم وجوب
مساعدة من قصدهم في حاجة ضرورية تُعلم ضرورتها في حكم الشرع ،
وعلى هذا يحمل حديث : ((في المال حق سوى الزكاة)) .

كما أنه لو جاء أحد أقربائك وأرحامك يسألك حاجة ضرورية فيجب عليك
أن تعطيه وتسد حاجته لوجوب صلة الرحم ؛ وإن كنت قد أديت زكاتك ،
لأن صلة الرحم واجبة ، وصلة الرحم المحتاج للمال هو أن تكفيه حاجته ،
وليست مواصلته مجرد زيارته والتسليم عليه إذا لقيته - فافهم وكن فهِمياً ،
ولا تكن بهيمة ، كبعض الأغنياء الذين هم أشبه بالبهائم ، وهمهم الأكبر
الجمع والمنع ، والاستكثار والتنافس على جيفة الدنيا ، لا يعرفون ولا
يرعون حقوق الله تعالى ، ولا حقوق عباد الله تعالى ، وربما أعطى
بعضهم ولكن على وجه الرياء والسمعة ، وحب الثناء والشهرة ، فاقراً
عليهم : {ذُرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} .

كما أنّ من حقوق المال سوى الزكاة بناء المساجد والمشافي
والمستوصفات ، وكل ما يحتاج العباد في أمور دينهم ودنياهم ، كالمدارس
ونحوها مما هو خير باق وصدقة جارية ، بحيث لا يكون مُلكاً لأشخاص

معينين بل هو صدقة جارية إلى يوم الدين ، فإنّ ذلك كله يُعتبر وقفاً مُلكاً لله تعالى خالصاً لا يشاركه فيه أحد .

وهكذا في المال حق سوى الزكاة وتفصيل الكلام على ذلك ليس موضعه هنا .

قوله تعالى : {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} .

فالأكرم عند الله تعالى هو الأتقى لله تعالى .

فهنا قد يسأل الإنسان ما هي التقوى ؟ وما هي أنواعها ، وما هي مراتب التقوى حتى يكون من المتقين الكمل الذين يطلق عليهم القرآن الكريم بأنهم المتقون ؟

أما التقوى فهي في اللغة توقي الإنسان ما يضره ، فهو يتقي أي : يتوقى الحرّ والبرد وغير ذلك مما يخشى ضرره عليه .

وتقوى الله تعالى هي توقي غضبه وعقابه ، وعذابه وعتابه وحجابه ، كما جاء في خطبته صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين قدم المدينة قال فيها : ((واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السرّ والعلانية ، فإنه من يتق الله يُكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإنّ تقوى الله تقى مقته وتقي عقوبته ، وتقي سخطه ، وإنّ تقوى الله تُبيّض الوجه وترفع الدرجة)) الحديث كما رواه ابن جرير بإسناده وغيره .

فتقوى الله تعالى أن تتوقى غضبه ، فتأخذ بالوقايات من غضبه وعذابه وعتابه وحجابه ، وهذه الوقايات هي قيامك بأوامره وتركك لما نهاك عنه ، والأوامر الإلهية كثيرة ، والمناهي كثيرة ، فإذا كمل ذلك لك بأن امتثلت ما أمرك به وانتهيت عن جميع ما نهاك عنه فأنت من المتقين ، لكن على حسب مرتبة تقواك .

وأما أنواع التقوى : فالتقوى نوعان : تقوى القلوب ، وتقوى القوالب - أي : الجوارح والحواس .

أما تقوى القلوب : فعلاقتها بالقلب إيجاباً وسلباً ، فالمحبة والتعظيم من أعمال القلوب ، قال تعالى : {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} فتعظيم شعائر الله تعالى هي من تقوى القلوب ، وليست هي كل تقوى القلوب فافهم .

فدلت على أنّ هناك تقوى القلوب ، وعلى أنّ لها مطالب كثيرة ، ومن أهمّها تعظيم شعائر الله تعالى ، وهي تشمل جميع معالم دين الله تعالى ، وأحكام شريعته ، ومواقيتها ، ومواضع عباداته ، فهي شاملة لجميع مناسك الحج ، ومواقع المناسك ، والبيت المعظم ، والمساجد ولا سيما المسجد الحرام المكي والمدني ، ومسجد بيت القدس ، فإنها أفضل المساجد على الترتيب في الأفضلية كما هو معلوم .

ويشمل تعظيم المصحف الشريف ، وكُتُب السنة النبوية بأنواعها ، وكتب السيرة النبوية ، ويشمل كتب العلوم الشرعية ، وكتب العقائد الدينية .

ويشمل تعظيم حملة الكتاب والسنة ، وعلوم الدين والشريعة ، فإنهم من أعظم شعائر الله تعالى ، لأنهم حملة الدين والشريعة ودعائه ، وحجة الله تعالى على عباده - وأعني بذلك العلماء الصالحاء العاملين ، والهداة المهتدين ، الذين قرن الله تعالى ذكرهم بذكر الملائكة ، وشهادتهم بشهادة الملائكة ، قال تعالى : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} نفعنا الله تعالى بهم ، فإن الله تعالى احتج بشهادتهم ، ووثقها فافهم .

ولا أطيل البحث في ذلك فإنني ذكرت طرفاً من ذلك في مناسبات متعددة من كتبي والحمد لله .

وقد جاء في (سنن) أبي داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلَا الْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُطِ)) .

فإجلال هؤلاء - أي : تعظيمهم هو تعظيم الله تعالى ، والاستخفاف بهم وعدم احترامهم وتكريمهم دليل على النفاق ، كما روى الطبراني وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((ثلاث لا يستخفُّ بهم إلا منافق : ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم، وإمام مقسط)).

فتعظيم شعائر الله تعالى هو راجع إلى تعظيم الله تعالى ، لأنها شعائره ، فمن عظمَّ الله تعالى عظمَّ شعائره ، ومن استهان بها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لأنه منافق ، ولأنه كالمستهين بجناب الله تعالى ربِّ العالمين .

قال تعالى : {وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ} واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين} .

أي : وإنه كنت في الدنيا لمن الساخرين بكلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبحملة الكتاب والسنة ، وبالمصاحف وكتب الحديث ، وكتب الشريعة ، وكان يراها في نظره خرافات أو فيها سخافات ، مع أنها جاءت بآيات بيِّنات ، وحجج وبراهين قاطعات ، ولكنه تعامى عن ذلك كله ، فأعمى الله تعالى قلبه {وَاسْتَحَبَّوْا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ} فانتهى أمرهم إلى الهلاك والردى .

وإنَّ من أعظم تقوى القلوب محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل محبوب ومرغوب ، والتعظيم له ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ومحبة ما يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكرهية ما يكرهه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا

يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهَ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ)) .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) متفق عليه .

ومن علامات المحبة الصادقة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، متابعة شريعته ، واتباع كتابه وسنته ، ومحبة أهل بيته ، ومحبة صحابته ، ومحبة كل من يحب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

روى الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أَحَبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمِهِ ، وَأَحْبُونِي بِحُبِّ اللَّهِ إِيَّايَ ، وَأَحْبُوا أَهْلَ بَيْتِي بِحَبِّي)) أي : بسبب حبي لهم .

وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ادَّبُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : حُبِّ نَبِيِّكُمْ ، وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ فِي ظِلِّ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ))¹ .

وروى الإمام أحمد عن سيدنا العباس رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ الرَّجُلِ الْإِيمَانُ : حَتَّىٰ يُحِبَّكُمْ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ)) وفي رواية له قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِيْمَانٌ : حَتَّىٰ يُحِبَّكُمْ اللَّهُ وَلِقَرَابَتِي)) .

فمحبة أهل البيت علامة صدق الإيمان .

وقد روى البخاري وغيره أنّ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لسيدنا علي رضي الله عنه : (والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحبّ إليّ أن أصل من قرابتي) .

¹ رواه الشيرازي وابن النجار وصاحب الفردوس كما في (الفتح) .

وفي البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : (ارقبوا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أهل بيته) .

وقال عمر بن الخطاب لسيدنا العباس رضي الله عنهما : (والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من إسلام الخطاب) .
فهذا الحال يجب أن يكون حال كل مسلم ، يقدم ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كل محبوب له .

قال عبد الله :

أولئك ساداتي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا أخي المجامع

سراة سرى نور النبوة فيهمو

فنورهمو في الناس باد وساطع

وقد تقدم بعض ذلك ، ولكن قد أعيد ذكر بعض الأدلة لمناسبة الشاهد والمقصود .

وأما تقوى الجوارح والقوالب وتسمى التقوى العملية ، وهي تقوى المحرمات التي يتعاطاه المذنب مما نهى الله تعالى عنه ، كشرب الخمر ، والسرقه ، وما وراء ذلك من المحرمات الكبائر والصغائر .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له : ((اتق المحارم تكن أعبد الناس)) الحديث كما تقدم.

ويجب على المسلم أن يعتقد أنّ ما أحله الله تعالى من المأكولات ، ومن تبادل الأموال وما وراء ذلك فإنّ ذلك كله هو نفع للإنسان وصلاح له في

الدنيا والآخرة ، وفيه سعادته ، وأنّ ما حرّمه الله تعالى من أنواع المحرمات كلها على اختلافها فإنّها ضرر وفساد للعباد والبلاد .

فقد أحل سبحانه الطيبات لأنّها نافعة ، وحرّم الخبائث لأنّها ضارّة قال تعالى : {يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} .

وأحل الله تعالى البيع لأنّ فيه منفعة للطرفين ، وحرّم الربا لأن فيه منفعة لأحد الطرفين ، مترتبة على ضرر الطرف الثاني ، فالمُرَابِيان وإنّ رضى بذلك فخالقهما أرحم بهما لا يرضى ذلك فلم يشرعه قال تعالى : {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} وهكذا جاء الشرع رحمة للعباد جميعهم .

وأما مراتب التقوى :

فالأولى : هي تقوى الكفر والشرك ، وذلك باجتناب ما يُوجب الكفر ، والابتعاد عن الشرك الأكبر ، وهو أن يجعل مع الله تعالى إلهاً آخر ، وهذا معلوم - وأنواع الكفر مفصلة في كتب الردة .

قال الله تعالى : {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} .

روى أصحاب (السنن) أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قرأ هذه الآية : {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} فقال صلى الله عليه وسلم : ((قال ربكم: أنا أهل أن أتقى ، فمن لم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له)).

وفي رواية : ((فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له)).

وهذا نظير قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} .

فالأمر معلق على المشيئة إنّ لم يتب من معاصيه ؛ إنّ شاء عدّبه وإنّ شاء غفر له - كما جاء ذلك مصرحاً به في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : ((بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا أنفسكم ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في

معروف - فمن وقى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئاً - من المحرمات - فعوقب به في الدنيا - أي : بأن أقيم عليه الحد - فهو كفارة له وطهور ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله تعالى فأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له)) فبايعناه على ذلك متفق عليه .
وأما من تاب وأناب فإن الله تعالى يتوب عليه ، كما جاء في كثير من الآيات ، والتوبة لها شروط معلومة .

وجاء في رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن قول الله تعالى : {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يقول الله تعالى : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معي شريك ، فإذا اتقيت ولم يجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك)) .

وإن بحر الغفران طام ، وإن ساحة المغفرة واسعة لجميع ذنوب المذنبين ، ولكن أين المستغفرون ، الذين يلتمسون غفرانه ورضوانه سبحانه ، فإنه تعالى فتح لعباده باب رجاء غفرانه وفضله فقال : {وَاللَّهُ يَعْذِكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} .

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ من يقرض غير عديم ولا ظلوم)) .

فمغفرة الله تعالى هي واسعة لا تضيق عن الذنوب ، قال تعالى : {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} .

وإذا كانت الأرض المخلوقة واسعة على أهلها مهما كثروا على ظهرها فإنها لا تضيق عليهم ، قال تعالى : {يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} ، مع أنها مخلوقة محدودة ، فما ظنك بسعة مغفرة رب العالمين

التي هي صفة من صفاته التي لا حَدَّ ولا انتهاء لها ، لأنها صفة غير مخلوقة ، فإذا فهمتْ هِمَّتْ ونلتْ .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجى عندنا من عملنا ، فاغفر لنا يا خير الغافرين ، وارحمنا يا خير الراحمين .

المرتبة الثانية : هي تقوى المحرمات ، قال الله تعالى : {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} .

وفي هذا يقول الحسن البصري رضي الله عنه : (المتقون هم الذين اتقوا ما حرم الله تعالى عليهم ، وأدّوا ما افترض الله عليهم) اهـ .

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)) .

المرتبة الثالثة : اتقاء الشبهات :

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكلِّ ملكٍ حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب)) متفق عليه .

فمن تباعد عن الشبهات حصلت له البراءة في دينه وعرضه ، وسلم من الوقوع في المحرمات ، والحلال بيّن عند كل مسلم ومسلمة ، فإنه يجب عليهما أن يعلما ما فرض الله تعالى عليهما ، وأن يعلما ما حرم الله تعالى من المحرمات المعلومة حرمتها في الدين بالضرورة ، كحرمة الخمر

والزنا والسرقة والربا ، ومنع الزكاة ، والغيبة والنميمة ، وما وراء ذلك مما يتساوى في علمه العوام والخواص .

فإن العلم بما تصح به العقيدة الإيمانية ، والعلم بما تصح به الأعمال الصالحة ، وجميع الأوامر التي أوجبها الله تعالى على عباده ، والعلم بما حرم الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مما هو معلوم من الدين علماً ضرورياً ؛ العلم بذلك كله فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، كما وردت الأحاديث في ذلك ، وأما الزيادة في العلم على ذلك ، مما قد يحتاج إليه الناس فهو فرض كفائي إن قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ، وإلا فالكل آثمون - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن ذلك العلم الكافي ببرد شبه الضالين ، وشبهات الطاعنين في الدين ، والمعترضين على شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أو على كتاب رب العالمين ، وغير ذلك فالعلم به فرض كفائي لا يسقط إثم تركه عن الأمة إلا إذا وجد العدد الكافي مع الدليل الشافي ، والبرهان الوافي ، والحجة الدامغة ، والحكمة الساطعة ، التي فيها يظهر نور الحق ، ويتجلى لجميع الخلق ؛ بدون لفّ ولا التواء ولا تورية ، ولا إيماء ، فذلك كله لا يغني من الحق شيئاً ، فالعلم بالمعلومات الضرورية من الدين هي فرض عين كما تقدم .

وقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي وابن ماجه والطبراني وغيرهم من أهل المسانيد والمعاجم عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((طلب العلم فريضة على كل مسلم . .)) .

جاء هذا الحديث بروايات متعددة عن عدة من الصحابة ، وقد رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، ولفظه : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمنقذ الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب)) .

ولذا قيل :

فمن منح الجهّال علماً أضاعه

وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ

فَأَهْ ثُمَّ آهٍ - وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

المرتبة الرابعة : اتقاء ما لا بأس به من المباحات مخافة الوقوع مما به بأس : المنهيات والمكروهات .

روى الترمذي عن عطية السعدي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع - أي : يترك - ما لا بأس به حذراً مما به بأس)) رواه ابن ماجه والحاكم .

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : (ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام) اهـ .

المرتبة الخامسة : تقوى الله تعالى حقَّ تقاته .

قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَموتنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } .

أي : مستسلمون منقادون لله تعالى ، إيماناً واعتقاداً وعملاً ، وقولاً ، وقياماً وعوداً ، وعلى جنوبكم كما جاء في (المسند) وغيره أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لعبد الله بن عمرو : ((قل : اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، اللهم احفظني بالإسلام قاعداً ، اللهم احفظني بالإسلام راقداً ، اللهم لا تُشمتَّ فيَّ عدواً ولا حاسداً .

اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك ، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك)) .

روى الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((اتقوا الله حقَّ تقاته : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يُذكر فلا ينسى)) .

وجاء من طريق أخرى عن الحاكم وابن مردويه وعبد الرزاق وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ } قال

: (أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر) - وروي مرفوعاً وموقوفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه قال : (لا يتقي الله تعالى العبدُ حقَّ تقاته حتى يخزن من لسانه) اهـ .

وروى أصحاب (السنن) والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون} .

قال : ((لو أنّ قطرة من الزقوم قطرت - أي : على الدنيا - لأفسدت على أهل الأرض عيشهم ، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم))!!؟

فتقوى الله تعالى بها يتفاضل المؤمنون يوم القيامة ، وبها تختلف رفعة درجاتهم ، لأنّ الجنة أعدت وهيئت ورتبت للمتقين على حسب تقواهم ، قال تعالى : {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين} .

فلقد أعدها الله تعالى يوم خلقها للمتقين ، وقوله تعالى : {أعدت} دليل قاطع على أنّ الجنة هي مخلوقة وموجودة الآن - خلافاً للمعتزلة وغيرهم .

وقد روى أصحاب (السنن) والترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لما خلق الله الجنة قال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها - فحفّها بالمكاره .

ثم قال : اذهب فانظر إليها ، فنظر إليها فقال : وعزتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد .

ولما خلق النار قال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها - فحفّها بالشهوات .

ثم قال اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فلما رجع قال : وعزتك لقد خشيتُ أن لا يبقى أحد إلا دخلها)) .

وروى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((حُقَّت الجنة بالمكاره ، وحُقَّت النار بالشهوات)) .

والمراد بالمكاره التكاليف الشرعية ، فإنها ثقيلة على أصحاب النفوس الفاسدة ، وأما أصحاب النفوس الطيبة فإنها رَوْحهم وَرِيحَانهم ، ولذتهم فيها قال تعالى - في الصلاة - : {وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون} .

فالكسالى وأصحاب النفوس المريضة ترى أن الصلاة ثقيلة عليهم ، كما أن الزكاة يستصعبها البخيل الذي استرقه الدرهم والدينار ، ويرى أن الزكاة كبيرة وثقيلة ، أما على أهل الإيمان والسماحة ففي دفعها سرورهم ونعيمهم ولذتهم .

وهكذا الصيام هو شاق جداً على ضعفاء الإيمان ، وأما أهل الإيمان الصحيح فلا يستثقلونه - ولو رأوا شيئاً من المشقة - لأنه يعقبه صحة كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((صوموا تصحوا)) .

وهكذا القتال في سبيل الله تعالى ، قال سبحانه : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} الآية .
فلذلك سهل عليهم لقوة إيمانهم .

وهكذا التزام تقوى الله تعالى ، التزام أوامره ، واجتناب مناهيه ، ففيه كُلفة ثقيلة على المنافقين لا على المؤمنين الصادقين ، والأمر يحتاج إلى رجولية في الدين قال تعالى : {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} .

فلما عرفوا وآمنوا بالثواب الأكبر ، والجزاء الأوفر ، والفضل الكبير من الله تعالى سهلت عليهم أمور التكاليف ، وأدوها بانسراح وفرح وسرور ، ورضى كامل بدين الله تعالى وشرعه - فهم الرجال في الدين حقاً .

ولذلك لم يزل عظماء السلف الصالح وكبارهم يتواصلون بالتقوى :

فهذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته وهو خليفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول :

(أما بعد : فَإِنِّي أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وَأَنْ تُثَنُّوا عليه بما هو أهله ، وَأَنْ تَخْلَطُوا الرغبة بالرهبة ، وَأَنْ تَجْعَلُوا الإلحاف في المسألة - أي : في الدعاء - فإن الله عز وجل أثنى على عبده زكريا عليه السلام وأهل بيته فقال : {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} .

ولما حضرت أبا بكر رضي الله عنه الوفاة وعهد إلى عمر رضي الله عنه فكان أول ما قال له : (اتق الله يا عمر) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما : (أما بعد : فَإِنِّي أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، فَإِنَّهُ مِنْ اتِقَاهُ وَقَاهُ) .

واستعمل سيدنا علي أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلاً على سرية فقال له : (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بدّ لك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، وهو يملك الدنيا والآخرة) اهـ .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى رجل : (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثيب إلا عليها ، فإن الواعظين بها - أي : بالتقوى والأمر بها - كثير ، وإنّ العاملين بها قليل - جعلنا الله تعالى وإياك من المتقين) اهـ .

ولما ولي الخلافة حمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : (أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، فإنّ تقوى الله عز وجل خَلْفٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وليس من تقوى الله تعالى خلف) اهـ .

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك ، وأسعدنا بتقواك ، ولا تُشَقْنَا بمعصيتك آمين ، بجاه سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم وعلى آله وآلهم وعلينا معهم أجمعين يا رب العالمين .

وإذا وقع العبد في مخالفة أمر من أوامر الله تعالى ؛ أو ارتكب بعض ما نهى الله تعالى عنه ولم يلتزم التقوى فعليه أن يُبادر إلى التوبة إلى الله

تعالى والاستغفار فإنَّ الله تعالى يَتوبُ عليه ويغفر له ، ويعود إلى مقام تقواه الذي كان فيه ؛ إذا صدق في توبته ، فإنَّ التائب من الذنب هو كمن لا ذنب له .

وتدبر قول الله تعالى : {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين} .

ثم ذكر صفات المتقين فقال : {الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} .

أي : يَعلمون إذا تابوا واستغفروا تاب الله عليهم وغفر لهم .

{أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين} .

فانظر يا أخي المؤمن في عظيم كرم الله تعالى ، وسعة مغفرته ، فإنه سبحانه فتح باب التوبة للتائبين في الليل والنهار ، ووعدهم بالقبول ، وبَسَط لهم يَدَه سبحانه بالعفو عنهم والكرم ، كما جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنَّ الله تعالى يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل - حتى تطلع الشمس من مغربها)) .

فلا يُغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

ألم تسمع خبر الثلاثة الذي خُلفوا ماذا أخبر الله تعالى عنهم :

{حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم} .

فاعتبر وتدبر : لِمَ ذكر الله تعالى خبرهم ؟ وسجل ذلك في كتابه الكريم
الباقى أبد الأبدى، نعم ليعلم الله تعالى الأولين والآخرين ويعلن لهم سعة
رحمته وعظيم مغفرته .

روى أبو نعيم عن الشيخ العارف الكبير الفضيل بن عياض رضي الله عنه
أنه قال : (ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرعى الليل سربال سترها ، إلا
نادى الجليل جل جلاله :

مَنْ أعظمُ مني جوداً والخلائق لي عاصون ، وأنا لهم مراقب أكلوهم -
أحفظهم - في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولّى حفظهم كأنهم لم
يُذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي ، وأفضل على
المسيء .

مَنْ ذا الذي دعاني فلم أستجب له ، أم مَنْ ذا الذي سألتني فلم أعطه ؛ أم مَنْ
ذا الذي أناخ ببابي فنحيتَه .

أنا المتفضل ومنى الفضل ، أنا الجواد ومنى الجود ، وأنا الكريم ومنى
الكرم ، ومن كرمي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن
أعطي العبد ما سألتني ، وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أني أعطي
التائب كأنه لم يعصني .

فأين إلى غيري يهرب الخلائق ؟ وأين إلى غير بابي يلتجى العاصون ؟ .

وقد جاء في كتاب (الزهد) للإمام أحمد في الأثر الإلهي يقول سبحانه :
(ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات
والأرض دونه ؛ فإن سألتني لم أعطه ، وإن دعاني لم أجبه ، وإن
استغفرتني لم أغفر له^١ .

وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت له السماوات والأرض
رزقه ، فإن سألتني أعطيتَه ، وإن دعاني أجبتَه ، وإن استغفرتني غفرت
له)) .

^١ أي : حتى يتوب

يا أخي : ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يقول الله عز وجل :

يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي.

يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا - أي : بملء الأرض - ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)) .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وحُوبنا ، وخطايانا ، وأنزل شفاءً من شفائك علينا ، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب آمين .

وصلِّ اللهم وسلم على حبيبك الأكرم ، ورسولك المعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، صلاة تليق بك منك إليه ، وكما هو أهله ، وعلى آله وصحبه ، وعلينا وعلى والدينا وأحبابنا والمسلمين أجمعين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

ويرحم الله تعالى قائل هذه الأبيات التي تُعدّ من المجربات في دفع الشدائد والكربات :

يا من يُنادى بالضمير فيسمع

أنت المعدُّ لكل ما يُتوقَّع

يا من يرجي للشدائد كلها

يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه في قول كن

امنن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري إليك وسيلة

فبالافتقار إليك فقري أرفع

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة

فلئن رددت فأني باب أقرع

حاشا لجودك أن تُقنط عاصياً

الفضل أجزل والمواهب أوسع

بالذلّ قد وافيتُ بابك عالماً

أنّ التذلل عند بابك يَنفع

وجعلتُ مُعتمدي عليك توكلأً

وبسطتُ كفي سائلاً أتضرع

فبحق من أحببته وأجبتّه

وأجبت دعوة مَنْ به يَسْتَشْفَع

اجعل لنا من كل ضيق مخرجاً

والطف بنا يا من إليه المرجع

ثم الصلاة على النبي وآله

خير الأنام ومن به يستشفع

ويرحم الله القائل :

يا من يراني في علاه ولا أراه

يا من يجير المستجير إذا دعاه

يا من يجود على العباد بفضله

جلّ الجليل وجل ما صنعت يداه

ويُنسب للسيد البكري رضي الله عنه :

يا رب إن ذنوبي في الورى كثرت
وليس لي عمل في الحشر ينجيني
وقد أتيتك بالتوحيد يصحبه
حب النبي وهذا القدر يكفيني
صلى الله عليه وعلى آله وسلم
ويرحم الله القائل :

ركبنا خطايانا وسترك مسبل
وليس لشيء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نهفو وتعفو تكرماً
فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو
لئن كنتَ ذا بطش شديد وقوة
فمن شأنك الإحسان والعطف واللفظ
وإن كنتَ أوعدتَ بالنار من عصى
فوعدك بالغفران ليس له خلف

فالعاصي مهما كثرت معاصيه ، وعظمت ذنوبه ، فإنَّ باب التوبة أوسع ،
قال سبحانه : {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى
ربكم} الآيات .

فمن سعة مغفرته دعا المسرفين للتوبة ليغفر لهم ويرحمهم - اللهم اغفر لنا
فإنك خير الغافرين ، وارحمنا فإنك خير الراحمين .
قوله تعالى : {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} .

في هذه الآية الكريمة بيانٌ من الله تعالى أنّ العلم بالأتقى من غيره هذا مردّه إلى الله تعالى العليم الخبير ، كما أنّه سبحانه هو أعلم بمن اتقى فهو العليم بمن هو أتقى ، قال تعالى : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} .

وينبني على هذا النهي ، وعلى هذا البيان الإلهي ، أمران عظيمان :

الأول : أنه لا يجوز للإنسان أن يمدح نفسه بالتقوى ، ويزكيها بالعمل الصالح ، ويطرفع بذلك ويتكبر ، وينظر إلى نفسه أنّه من المتقين ، أو هو أتقى من غيره . فالعليم بذلك هو الله تعالى وحده .

وإنما إذا رأى توفيقه للعمل الصالح ، وسلوكه طريق المتقين ، فالواجب عليه أن يحمد الله تعالى الذي وفّقه لذلك ، فيمدح الله تعالى ويثني عليه ويشكره ، ولا ينسب ذلك إلى نفسه ، ويكفر نعمة الله تعالى بذلك - وليحذر الإنسان العجب والرياء ؛ فإنهما يُفسدان العمل .

قال تعالى : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} أي : تمدحوها وتشكروها ، وتَمُنُّوا بأعمالكم ، وتترفعوا على غيركم ، محتقرين لهم ولأعمالهم ، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} فقد تستقلّ العمل الصالح أو عمل التقوى من غيرك ، وتستكثر عملك بالنسبة ، ولكنّه عند الله تعالى هو أتقى منك على قلة عمله بالظاهر ، فهو سبحانه أعلم بمن اتقى وبمن هو الأتقى .

قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا} .

فاعرفوا فضل الله عليكم ، واشكروه على توفيقه ، وإياكم والرياء والعجب والسمعة .

وقد ذكر ابن سعد في (الطبقات) عن عمر بن عبد العزيز أنّه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطع الكلام ، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزّقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي . اهـ رضي الله عنه .

الأمر الثاني : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} ، فهذا يشمل النفس الشخصية - وهو مدح الإنسان نفسه بالتقوى وبالتزكية وعلى طريق الترفع والمنة ، بل كما قلنا يجب أن يعترف أن ذلك من فضل الله تعالى .

قال تعالى : {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} .

اللهم ربّ آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} يشمل الأَنفس النوعية ، وذلك بأن تمدح وتزكي وتنثى بالتقوى على مَنْ ليس بذلك ؛ فهذا حرام لأنّه تعزير للممدوح ، وإقرار له على مخالفته ، وبذلك تكبّر نفسه وتعظم ؛ فهذا قول الزور ، وكذلك إذا كان الممدوح صالحاً ولكن ليس من أولئك الصالحين بل هو من عوامّ الصالحين وغلب على ظنك أنك إذا مدحته فسوف يعظم في نفسه ويكبر ، ويُورث ذلك في نفسه ترفعاً على غيره ، واحتقاراً لغيره فلا تمدحه بوجهه.

وإلى هذا يشير الحديث الوارد في (الصحيحين) وغيرهما - والرواية لأحمد - عن أبي بكر رضي الله عنه قال : مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مَرَارًا - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فليقل : أَحَسِبَ فَلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ وَلَا أَزْكَى عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ، أَحَسِبَهُ كَذَا وَكَذَا - إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ)) .

فالمدح بالحق لمن يحق له ذلك عن نية صادقة من المادح ينبغي أن يكون لا إفراط فيه ولا غلو .

وأما مدح : من لا يستحق فهو الذبح ، كما روي في الحديث عن معاوية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : ((إِيَّاكُمْ وَالْمَدْحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ)) ، وفي رواية : ((إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادِحَ)) .

قال العلامة المناوي : فأبّه الذبح لما فيه من الآفة في دين المادح ، وسماه ذبحاً لأنه يُميت قلب المادح - أي : ما دام يعلم أنه ليس بذاك - قال : وفيه ذبح للممدوح ، لأنه يورثه العجب والكبر وهو مُهلك كالذبح ، فلذلك شبه به .

ثم نقل عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنه قال : فمن صنع بك معروفاً فإن كان ممن يحب الشكر والثناء - أي: بحيث يظهر ذلك للناس - فلا تمدحه لأنّ قضاء حقه أن لا تُقره على الظلم ؛ وطلبه للشكر - منك علناً - ظلم ، وإلا - أي : وإن كان لا يحب ظهور الشكر خوف الرياء - فأظهر شكره ليزداد رغبة في الخير اهـ .

وأما مدح الرجل الغني لغناه وتعظيمه والثناء عليه لماله ، في حين أنه لا يؤدي واجب الله تعالى الذي أوجبه عليه من حقوق المال كالزكاة ، وصلة الرحم الفقراء ، ومساعدة المساكين المحتاجين ، وقد قصدوه في حاجاتهم فردهم خائبين ، فمدح مثل هذا حرام ، وتركية من هو ليس صاحب نفس زكية ؛ بل صاحب نفس خسيصة دنية ، فمدحه سيئة وحرام .

وأما مدح الرجل المؤمن الصالح الذي يخشى الله تعالى بالغيب ، والثناء عليه في وجهه ، وذكر أعماله الصالحة ، وأفعاله الخيرة ، بحيث لا يقع الممدوح في غرور ، ولا يعظم في نفسه ، بل كلما مدح ازداد تواضعاً لله تعالى ، وشكراً له سبحانه ، وخشية من الله تعالى ، ويلاحظ تقصيره مع الله تعالى ، وأنّ ما عنده من فضل وعمل صالح وفعل خير وبرّ فذلك من فضل الله تعالى عليه ، ولا يرد سائلاً محتاجاً ، ويؤدي حقوق المال على أكمل وجه ، فمدح مثل هذا الرجل في وجهه مطلوب ومحبوب ، لأنه يزيد نشاطاً في طاعة الله تعالى ، وفي عمل الخير والبر ، ويزيده خشية من الله تعالى وحباً لله تعالى ، واعتراضاً بتقصيره ، كما أنه ينفع السامعين مدحه ، فيصير عندهم نشاط لأن يعملوا مثله ، وبذلك يكون دعاية خير وبرّ ، وأسوة به حسنة ، وهذا من باب ما جاء في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً : ((إذا مُدح المؤمن في وجهه ربي الإيمان في قلبه)) - أي : زاد إيمانه لمعرفة نفسه وإذلاله لها .

قال العلامة المناوي : فالمراد المؤمن الكامل ، الذي عرف نفسه وأمينَ عليها من كِبَرٍ وعجب ، بل يكون ذلك سبباً لزيادته في العمل الصالح المؤدي لزيادة إيمانه ، وأما مَنْ ليس بهذه الصفة فالمدح له من أعظم الآفات المفضية بإيمانه إلى الخلل الذي ورد فيه خبر : ((إياكم والمدح)) .

وقد مدح النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً من أصحابه في وجههم ، بل أعلن مدحهم وثنائه عليهم ، لأنهم كَمَّلَ أهل الكمال ، ويخشون ربهم بالغيب ، فمن ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه أصحاب (السنن) وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أرحم الناس بأمتي أبو بكر ، وأشدُّهم في أمر الله عمر ، وأشدُّهم حياءً عثمان)) .

وفي رواية : ((وأصدقهم حياءً عثمان ، وأقضاهم عليّ ، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمينٌ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)) .

وقد بشر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عدة كثيرة من الصحابة بأعيانهم في الجنة ، في مجالس متعددة ، ومن أشهرهم العشرة الذين بَشَّرَهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالجنة في مجلس واحد ، واشتهروا مِنْ بين سائر الصحابة ، وقد جاء حديث العشرة المبشرين بالجنة عن عدة كما في (السنن والمسائيد) .

ومن ذلك ما رواه الترمذي وأبو داود - واللفظ له - عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة)) .

وسكت سعيدٌ عن العاشر - فقالوا له : مَنْ العاشر ؟

فقال : ((سعيد بن زيد)) - يعني نفسه .

ثم قال سعيد : (والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تغبّر فيه وجهه خير من عمل أحدكم عمره ، ولو عمّر عمر نوح)¹ .

وفي هذا دليل فضل الصحابة رضي الله عنهم كما قال سعيد بن زيد رضي الله عنه ، فإنّ مشهداً واحداً شهده مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في القتال والغزوات هو خير من عمل التابعي مهما أكثر من عمله الصالح ، ولو عمّر عمر نوح ، واشتغل طول عمره بالتقوى أو العبادة ؛ فإنّه ما يبلغ فضل الصحابي الذي شهد مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإنّي للعبد الصالح من غير الصحابة أن يبلغ مقام الصحابة ؟ ! هذا لا يكون ، فإنّ فضل الصحبة لا يعادله فضل ، ولا يساويه عمل إلا الصحبة .

فهات مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الفضيلة والأفضلية على العالمين ، وصاحبُه تكن من أفضل هذه الأمة ؟ ! ومن هو الذي يتساوى في الأفضلية على العالمين ، ويكون مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا محال - فإنّ مقامه فرد كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ثم سلو الله لي الوسيلة ، فإنّها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد واحد ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة)) .

وهنا لفتة نظر إلى أنّ من ساوى مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحداً من خلق الله تعالى في المحبة فما أدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقّه ، وما وفّاه واجبه عليه ، حيث قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) - أي : لأنه أحب الخلق إلى الله تعالى ، ولأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولذلك يجب أن يكون أحبّ إليك من نفسك التي بين جنبيك ، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعمر : ((لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك)) .

¹ ورواه النسائي أيضاً

فقال عمر رضي الله عنه : (والله الآن يا رسول الله أنت أحب إلي من نفسي) .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الآن يا عمر)) .

كما أُنبئُ النَّبِيَّه إلى ما روي حول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأنه يدخل الجنة حبواً - أي : مبطناً ومتأخراً - فقد قال الحافظ المنذري : وقد روي من غير وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله ، قال الحافظ المنذري : ولا يسلم أجودها - أي : أقواها - من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن - أي : حتى يُستدل به - .

قال : ولقد كان ماله بالصفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((نعم المال الصالح للرجل الصالح)) فأنى تنقص درجاته في الآخرة ، أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة ، فإنه لم يرد هذا في حق غيره اهـ - أي : من أغنياء الصحابة ، فلقد كان فيهم أغنياء كثيرون ومنهم عثمان بن عفان رضي الله عنه وعروة البارقي رضي الله عنه وغيرهما .

قال عبد الله : وكيف يدخل الجنة متأخراً أو حبواً مع أنه صح أنه من العشرة المبشرين بالجنة ، السابقين إليها ، فإن العشرة المبشرين بالجنة لهم فضلهم وكرامتهم عند الله تعالى ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الملاء الأعلى والأدنى وقد صُنفت في فضائلهم كتب واسعة .

{ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } .

الله تعالى عليم ، وعلمه محيط بكل شيء .

قال تعالى : { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

وقال تعالى : { وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } .

كما أنه سبحانه وسع كل شيء علماً ، قال تعالى : { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } .

كما أنه سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فهو يعلم المشهودات والمغيبات ، مما مضى ومما هو آت ، من المحسوسات والمدركات والمعقولات ، وما انطوت عليه النفوس وما تُخفى الصدور ، وعلمه سبحانه محيط بالواجبات والممكنات والمستحيلات ، ويعلم جميع ذلك بالعلم القديم الذي لا أول له ، فعلمه ذاتي له .

والذات الإلهية سبحانه متصفة بالقدم ، وصفاته ملازمة لذاته ، فهي قديمة لا أول لها .

فهو القديم الذي لا أول له ، في ذاته وصفاته وأسمائه جل وعلا . . .

وقد أعلم عباده بذلك ليكونوا على حذر من مخالفات أوامره ، وعلى بُعدٍ مما نهاهم عنه ، وليراقبوه في حركاتهم وسكناتهم ، وخلواتهم وجلواتهم ، وبيعهم وشرائهم ، وفي مدحهم وذمهم وبغضهم ، وفي جميع أطوارهم ، وتطوراتهم وتقلباتهم ، في مختلف الأمور ، في جميع الأوقات والحالات ، فإنه يعلم السر وأخفى .

كما أنه سبحانه هو الخبير أي : العليم ببواطن الأمور ودقائقها ، من الخيرة وهو العلم بالخفايا الباطنة - كما في شرح المناوي وغيره .

وقيل هو مشتق من الخبر ، بمعنى أنه المخبر عما علمه سبحانه من الخفايا الباطنة ؛ وإن كتمها العبد وأسرّها في نفسه ، وأضمرها في ضميره ، فإنه سبحانه سيخبره عنها يوم القيامة .

قال تعالى : {وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً} .

فسبحان من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم السر وأخفى ، ولا تخفى عليه خافية ، لأنه عليم خبير ، يعلم ويرى ما بدا في النهار وما خفي في الليل ، وما دقّ وما عظم ، وما صغر وما كبر ، وظهر واستتر ، وطمر وانتشر ، علمه بذلك كله ؛ وخبرته بذلك كله ؛ ورؤيته لذلك كله ؛ على حد سواء ، لا تختلف عليه الأمور ، قال سبحانه : - منبهاً إلى ذلك وما وراء ذلك : {الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما

تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء
منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب
بالنهار} .

فالكل عنده في العلم على حد سواء .

وقال تعالى : {أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} .

وقال تعالى : {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سُرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرَسُولْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ} .

فلا تختلف عليه الأمور : سرها وجهرها ، وظاهرها وباطنها وصغيرها
وكبيرها .

قوله تعالى : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَل لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

الأعراب هم سكان البادية ، وهم بادية العرب ؛ ولكل أمة حاضرة وبادية ،
فالعرب هم الحاضرة ، والأعراب باديتهم ، ومن سكن البادية جفا - كما
جاء في الحديث - إلا الذين خالطوا الحاضرة وهم أهل المدن المتحضرة
فتذهب عنهم جفوتهم ، ولذلك نقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى
آله وسلم هو عربي ولا نقول أعرابي ، فهو صلى الله عليه وسلم من أكرم
وأعز وأشرف أصول العرب ؛ وهم بنو هاشم ، وفي عاصمة عواصم
البلاد وأعلاها حضارة وعزاً ، وكرامة وشرافة ، ومرجعاً ومحجاً لأهل
الشرق والغرب ، والشمال والجنوب وهي مكة المكرمة .

وإن الله تعالى جرت عادته أن يرسل رُسله من البلاد المتحضرة ، والمدن
العامرة ، التي تُسمى في القرآن بالقرى ، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } ، ويريد بالقرى الأمصار
والبلدان العامرة ، والعواصم المتحضرة - مشتق من القرى وهو الجمع
لكثرة سكانها ، وتسمى العاصمة : لأنها مرجع ما حولها ، وإن أم أمهات

القرى والأمصار والبلدان وعاصمة العواصم هي مكة المكرمة ، لأنّ جميع الناس يَجِبُ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهَا فِي مَحْجَمِهِمْ ، وَقَبِلْتَهُمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ ؛ إِلَى مَا وِرَاءَ ذَلِكَ وَفِيهَا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} وهم : مزينة وجهينة وأشجع ، أسلموا وهم المذكورون في سورة الفتح : {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} فلما استأنفروا للهجرة تخلّفوا ، ثم إنهم قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الإسلام ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : جنناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان - يريدون بذلك الصدقات وعرض الدنيا ، وأن يكونوا مسلمين أي: سالمين من أن يحاربوا، وجعلوا يمتدحون بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وممتنين عليه ويقولون : آمنا فاستحققتنا الكرامة والعطية .

فردّ الله تعالى عليهم ذلك بقوله : {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} في هذا تكذيب لدعواهم الإيمان ، لأنّه هو التصديق الجازم مع الثقة وطمأنينة القلب ، وهذا لم يحصل لهم حينذاك ، وإلا لما آمنوا على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بترك المقاتلة والمحاربة له ، ولما طمحووا إلى الصدقات والعطيات ، ولذلك قال تعالى لهم : {وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} أي: استسلمنا خوف القتل والسبي ، ودخلنا في السلم حذراً من الحرب ، كما يقال : أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء ، وأصاف إذا دخل في الصيف ، وأربع إذا دخل في الربيع ، فهم إذا مسلمون أي: مستسلمون وداخلون في السلم ضد الحرب خوف القتل والسبي .

فلما أثبت الله تعالى لهم الإسلام ونفى عنهم الإيمان دلّ ذلك على أنّهم أرادوا بإسلامهم الاستسلام ظاهراً خوفاً للقتل ، ولتجري عليهم أحكام المسلمين من حقن الدماء ، وحفظ الأموال والأعراض ؛ وغير ذلك ، فقولهم : آمنا هذا قول بأفواههم - أي: قالوا آمنا بأفواههم ولما تؤمن قلوبهم، وهذا هو الإسلام ظاهراً وهو صفة المنافقين .

وعلى هذا جرى أكثر المفسرين كالقرطبي وغيره ، وذهب إليه أكثر المحدثين ، وهو أنّ هؤلاء منافقون - وإليه ذهب الإمام البخاري .

قال الإمام البخاري في (كتاب الإيمان) : باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ، وكان على الاستسلام والخوف من القتل لقوله تعالى : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} .

فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} .

وقال تعالى : {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} .

ثم أسند حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعطى رهطاً وسعد جالس فترك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلاً هو أعجبهم إليّ ، فقلت يا رسول الله : ما لك عن فلان ، فوالله إنني لأراه مؤمناً .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أو مسلماً)) .

فسكتُ قليلاً ثم غلبنى ما أعلم منه فعدتُ لمقاتلي ، فقلت : ما لك عن فلان؟ - أي: لم تعطه - فوالله إنني لأراه مؤمناً .

فقال : ((أو مسلماً)) .

فسكتُ قليلاً ثم غلبنى ما أعلم منه فعدتُ لمقاتلي ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم قال : ((يا سعد إنني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار)) .

وأما قوله تعالى : {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} .

يعني أنه سبحانه أخرج المؤمنين لينجيهم من العذاب ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، أي : فيها بيت واحد فيه مسلمون ، منهم مسلمون مؤمنون وهم الذين نجاهم ، ومنهم مسلمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً بل

¹ أي : لم يكن على الحقيقة الشرعية المعتبرة شرعاً ، وموافقة للحق الواقع في الظاهر والباطن ، وهو الإسلام المقبول عند الله تعالى ، الذي ينجو به صاحبه من الكفر .

منافقون كامرأة لوط ، فهي مسلمة غير مؤمنة فلم تشملها النجاة - إنّما السلامة والنجاة للمؤمنين الصادقين .

فإذا أثبت الشارع لأحد إسلاماً ونفى عنه الإيمان فإسلامه هو بمعنى الاستسلام ظاهراً خوفاً للقتل ، وهذا الاستسلام ولو ظاهراً يجري عليه أحكام المسلمين في الدنيا ، قدمه وماله وعرضه محفوظ ، ولكن إذا بقي على ذلك ومات عليه ولم يدخل الإيمان الجازم قلبه فهو مع المنافقين يوم القيامة - هذا ما عليه كثير من العلماء والمحدثين كالبخاري وغيره .

ولكن ذهب كثير من العلماء والمفسرين ، وهو قول ابن عباس والنخعي وقتادة وابن جرير كما حكى ذلك ابن كثير وغيره ، ذهبوا إلى أنّ هؤلاء الأعراب ليسوا بمنافقين كلياً ، ولكن كان إيمانهم ضعيفاً ، قالوا يدل على ذلك قوله تعالى :

{وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفور رحيم} .

أي : لا يُنقصكم من أجور أعمالكم شيئاً ، فدلّ على أنّ معهم من الإيمان ما تُقبل به أعمالهم ، ولذلك لا يُنقصهم من أجورهم شيئاً .

وأما إذا أفرد الشارع - أي: الكتاب والسنة - أفرد ذكر الإسلام أو ذكر الإيمان فإنّ ذلك يشمل أمور الدين كلها ، عقائده وأعماله وأقواله التكليفية ، فيكون المراد بالإسلام الاستسلام القولي والعمل والقلبي لما أمر الله تعالى به ، ويكون المراد من الإيمان : الإيمان الاعتقادي والعمل والقولي ، فإذا أطلق الإيمان شمل الكل ، وإذا أطلق الإسلام شمل الكل ، فيكون الإسلام والإيمان مترادفين - أي : عند أفراد أحدهما بالذكر .

وإذا اجتمع ذكر الإسلام والإيمان في نص من الكتاب أو السنة على وجه الإقرار ؟ فيختص الإسلام بالأعمال والأقوال التكليفية ، ويختص الإيمان بالعقائد القلبية .

فمثال الأول وهو إذا ذكر الإسلام أو المسلمين أو الإيمان أو المؤمنين على طريق الإقرار قوله تعالى : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} فيدخل تحت هذا الإسلام الدين كله ، عقائده الإيمانية ، وأعماله وأقواله التكليفية .

وقوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} - أي : حال كونكم مستسلمين مؤمنين اعتقاداً ، ومسلمين أقوالاً وأفعالاً .

وكذلك الإيمان إذا أفرد ذكره ، قال تعالى : {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم} .

وقال تعالى : {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حَقّاً} الآية .

وقال تعالى : {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} - فذكر التصديق الإيماني الجازم - {وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} .

فوصفهم بقيامهم بما أمرهم به سبحانه من الأعمال ، ومنها الجهاد بالمال والنفس .

إذاً كل مسلم عند الأفراد والإطلاق مؤمن أيضاً ، وكل مؤمن عند الأفراد والإطلاق مسلم أيضاً ، فالإسلام والإيمان عند أفراد ذكرهما مع الإقرار هما مترادفان - وعلى هذا جاءت أحاديث كثيرة :

ومنها حديث ابن عباس - المتفق عليه - أن وفد القيس جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : ((مَنْ الْوَفْدُ)) أو قال : ((مَنْ الْقَوْمُ؟)).

قالوا : ربيعة .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((مرحباً بالقوم)) أو ((بالوفد غير خزايا ولا ندامى)) .

قالوا : بيننا وبينك هذا الحيّ من كُفار مضر ، ولا نستطيع أن نأتيك إلا بالشهر الحرام ، فمُرنا بأمرٍ فُصِّل - أي : جامع وفاضل بين الإيمان والكفر - نُخبر به من وراءنا ، وندخل به الجنة .

فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالإيمان بالله تعالى وحده ، وقال لهم : ((هل تَدرون ما الإيمان بالله تعالى ؟)) .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : ((شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ^١ ، وأن تُؤدوا خُمساً من المغنم)) .

((ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير)) ^٢ .

وقال : ((احفظوهن ، واخبروا بهن من وراءكم)) .

وقال للأشجّ : أشجّ عبد القيس - وهو أميرهم - ((إنّ فيك لخصلتين ، يحبهما الله تعالى ورسوله : الحلم والأناة)) .

ففسر الإيمان بأعمال الإسلام .

وفي (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق)) - قال : ((والحياء شعبة من الإيمان)) .

فأطلق الإيمان على محتويات الدين كلّها : عقائد وأعمالاً وأقوالاً وأخلاقاً .

^١ لم يذكر الحج لأنه لم يُفرض وقتئذ .

^٢ هذه أسماء أواني كانوا ينتبذون فيها الزبيب والتمر ونحوهما ، وتتخمر ، فلما حرمت الخمر نهاهم عن استعمال تلك الأواني مطلقاً حتى لا تحن نفوسهم إلى الخمرة ولا يتذكرونها ، حتى إذا تمادت العهود وتركوا الخمرة تركاً باتاً ، قال لهم عليه الصلاة والسلام : ((كنت نهيتكم عن الانتباز بهذه الأسقية ، ألا فانتبذوا فيها غير أن لا تشربوا مسكراً)) فرخص لهم أن ينقعوا فيها الزبيب والتمر ونحوهما حتى تتحلل الحلاوة لكن قبل أن يصل حد الإسكار .

وأما إذا اقترن ذكر الإسلام والإيمان في نص قرآني أو نبوي لا على طريق الإقرار، بل على سبيل النفي كما هو في آية : {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} فنفي عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام فقال : {وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} فهذا جاء يثبت الإسلام - أي : الاستسلام ظاهراً لا قلباً - ولذلك نفى عنهم الإيمان الاعتقادي القلبي .

أما إذا اقترنا في نص آية أو حديث نبوي على طريق الإثبات والتقريب فيختص الإسلام بالأقوال والأعمال الشرعية كلها ، ويختص الإيمان بالعقائد القلبية كلها : قال تعالى : {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . } الآية .

وكما جاء في حديث سيدنا جبريل عليه السلام - المتفق عليه - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المسجد إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : ((يا محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أخبرني عن الإسلام)).

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)) .

قال : ((صدقت)) .

قال عمر : فعجبنا له يسأله ويصدقه - أي : كأنه يعلم ذلك من قبل - .

قال : ((فأخبرني عن الإيمان)) .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) .

قال : ((صدقت)) .

قال : ((فأخبرني عن الإحسان)) .

قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

قال : ((فأخبرني عن الساعة)) .

قال : ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)) .

قال : ((فأخبرني عن أماراتها)) .

قال : ((أن تلد الأمة رببتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)) .

قال عمر: ثم انطلق - فلبثت ملياً ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم :
((يا عمر أتدري من السائل ؟)) .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : ((أتاكم جبريل - عليه السلام - يعلمكم دينكم)) .

أخرجه الخمسة واللفظ لمسلم ، والبقية تختلف رواياتهم .

ففي هذا الحديث اقترن الإسلام والإيمان واجتمعا في حديث واحد ، وقد
فسر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الإسلام بالأعمال والأقوال
الظاهرة وأهمها هذه الخمسة ، ولذلك جاء في رواية أبي داود: ((والاعتساف
من الجنابة)) ، وفسر صلى الله عليه وعلى آله وسلم الإيمان بالعقائد
الإيمانية القلبية فقال : ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ،
واليوم الآخر)) إلى تمام الحديث .

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا
رسول الله ما الإيمان ؟

قال : ((أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده
ورسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما ، وأن تحترق في
النار أحب إليك من أن تُشرك بالله شيئاً ، وأن تُحب غير ذي نسب لا تحبه

١. إلا لله - فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان قلبك ، كما دخل حب الماء للظمان في اليوم القانظ)) - أي: شديد الحر - .

قال : قلت : يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أنني مؤمن ؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ما من أمتي)) أو ((ما من هذه الأمة عبد يعمل حسنة فيعلم أنها حسنة وأن الله يُجازيه بها خيراً ، ولا يعمل سيئة فيعلم أنها سيئة ويستغفر الله منها ويعلم أنه لا يغفرها إلا الله - إلا وهو مؤمن)) .

ويفسر آخر هذا الحديث ما جاء في (المسند) والترمذي وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : ((من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)) .

ففي هذه الأحاديث دليل على أن الإيمان الصحيح الكامل يتضمن أعمال الإسلام ، كما أن الإسلام الصحيح يتضمن الإيمان - أي : العقائد - فإذا أفرد أحدهما بالذكر شمل الآخر .

وفي (مسند) الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء ^٢ :

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ،

والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم .

ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل)) .

وخلص القول أن الإيمان إذا أُطلق كقوله تعالى : {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبَ إِلَيْكُمْ} الإيمان فإنه يعم التصديق الاعتقادي فيما جاء من العقائد ، والتصديق العملي بما جاء من الأعمال ، والتصديق القولي بما جاء من الأقوال ،

^١ والمعنى : أن تحب المؤمن لله تعالى أيّاً كان ؛ ذا نسب أو لا ، كما في رواية الصحيحين : ((وأن تحب المرء لا تحبه إلا لله)) .

^٢ والمعنى : أن إيمانهم قائم على هذه الأجزاء الثلاثة .

والتصديق - أي: التحقق - الخُلقي فيما جاء من الأخلاق الدينية ؛ كما بين صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال : ((الإيمان بضع وسبعون شعبة)) - فهناك شعب اعتقادية ، وهناك شعب عملية ، وهناك شعب قولية ، وهناك شعب خلقية ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((والحياء شعبة من الإيمان))، فإنَّ الحياءُ خُلُقٌ ومع ذلك فهو وغيره من الأخلاق الفاضلة داخل في محيط الإيمان .

وكذلك الإسلام إذا أُطلق فإنَّه يشمل محتويات الدين كله ، قال تعالى : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} فيشمل الاستسلام القلبي والاعتقادي الجازم فيما جاء في الدين من العقائد ، ويشمل الاستسلام العملي ، وذلك بالعمل فيما جاء به الدين من الأعمال ، ويشمل الاستسلام القولي وذلك فيما جاء من الأقوال والأذكار ونحوها ، ويشمل الاستسلام الخُلقي وهو التَّخَلُّق بما جاء به الدين من الأخلاق الحميدة الفاضلة ، والتخلي عن الأخلاق الذميمة السافلة - .

وقد أوسعت الكلام في مسألة الإسلام والإيمان والفرق بينهما لأنَّ كثيراً من الناس قد يشتهبه عليه ذلك فأزلت الاشتباه والحمد لله أولاً وآخراً .

قوله تعالى : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} .

ليس المراد بالأعراب العموم ، بل هي خاصة بأولئك الذين جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يمتنون عليه أن أسلموا دون حرب ولا قتال ، وهي بعض القبائل كما تقدم ، فقد ظهر منهم جفوة وتطاول ، وامتنان ، وفي هذا دليل الخفة في تفكيرهم وعقولهم ، ومن ثمَّ جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} فجاء ببناء التأنيث في الفعل مع أنَّ القاعدة في مثل هذا الجمع وهو جمع التفسير يجوز تذكير فعله وتأنيثه ، وأما جمع المؤنث السالم فيجب تأنيث فعله كما هو معلوم ، ولكن هذا من قبيل ما قيل :

لا تبال بجمعهم كلُّ جمع مؤنث

وهذا عكس ما أشير إليه في قوله تعالى : {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} .

فكان موقفهن من الاستنكار والإنكار على زليخا شديداً ؛ باعتبار أنها امرأة العزيز - أي: الملك - ولها شأنها واعتبارها وقيمتها في المجتمع ، ومع ذلك تنزل إلى هذا الحال؟ إن هذا الأمر مريب - فهذا موقف المتعقل ولذا جاء الخبر القرآني عنهن بقوله : {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ} ولم يقل : وقالت النسوة . . ولكن لما اعترهن الحال حيث شاهدن ذلك الجمال اليوسفي فنين عن أنفسهن في جمال يوسف وحن وحنن ووطن .

أما دليل فنائهن عن أنفسهن قوله تعالى : {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} وهل يقدم إنسان على قطع يده وهو صاحٍ يقظ!!

وأما دليل شطحن : {وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} مع أن يوسف عليه السلام بشرٌ وليس بملك ولكنه أعطاه الله تعالى شطر الحسن .

فاعتبروا يا أولي الألباب ، هذا سيدنا يوسف الصديق ، بشرٌ من بني آدم كساه الله تعالى شطر الجمال ، فلما شاهدن جماله حين اطع عليهن غلبهن الحال وفتنين في يوسف عن نفوسهن ، وحنن وحنن وهشن ووطن . .

فإذا سمعت عن بعض أولياء الله تعالى وأحبابه وعشاق الحضرة الإلهية أنهم يمر عليهم حال يفنون عن أنفسهم بمشاهدة بعض تجليات من له الجمال المطلق ، الذي لا شبيه له ولا نظير ولا مثال ، فيفنون بذلك المشهد، وربما شطحوا وتكلموا وصاحوا ، فلا عجب في ذلك ، ثم يرجعون إلى الصحو والبقاء به سبحانه ، وإنما يتجلى لهم سبحانه من وراء وراء حجب وحجب وحجب ، على حسب المتجلى عليه رحمة به . .

وأعظم من شاهد التجلي الأعظم بالجمال الإلهي المنزه عن الشبه والمثال هو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، صاحب مقام {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} أكمل أهل الكمال ، حبيب الله الأكرم ، ورسوله الأفخم ، إمام جميع الرسل والأنبياء ، وأفضل أهل الأرض والسماء ، وأكرم

الأولين والآخرين وسيد العالمين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى
إخوانه النبيين ، وعلى آله وآلهم أجمعين ، وعلينا معهم أجمعين في كل
وقت وحين ، عدد ما وسعه علم رب العالمين .

اللهم اجعلنا من أحبابه وأوليائه ، وأدخلنا تحت لوائه أينما كنا وحيثما كنا
بجاهه عندك صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يا معاذ إن أوليائي المتقون من
كانوا وحيث كانوا)) - جعلنا الله تعالى منهم بفضلهم وكرمهم .

يا ذا الجلال والإكرام إسمع واستجب .

ولما سئل أبو يزيد رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى : - في أهل الجنة -
{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} قال : سقاهم شراباً طَهُورَهُم به من محبة
غيره ، ثم قال : إنَّ الله تعالى شراباً ادَّخره لأفاضل عباده ، يتولى سقيهم
إيَّاه ، فإذا شربوا طاشوا ، وإذا طاشوا طاروا ، وإذا طاروا وصلوا ، وإذا
وصلوا اتصلوا ، فهم {فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} اهـ .
نعم نعم إذا فهمت همت .

{قالت الأعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} .

تقدم أنه ليس المراد جميع الأعراب بل طائفة خاصة منهم ، وذلك لأنَّ الله
تعالى أتى على كثير من الأعراب ومدحهم ، وشهد لهم بالإيمان الصادق،
وإخلاصهم مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

قال الله تعالى : {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا
يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخُلُوهَا اللَّهُ فِي
رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

فوصفهم بصدق الإيمان ، وصدق المحبة ، وإخلاص العمل مع الله تعالى
ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فيؤدي صلواته وزكاته ، وصيامه وحجّه ، لأنَّه يؤمن
بالآخرة وسؤالها وحسابها إلى ما وراء ذلك .

{وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ} وهذا شأن المؤمن الكامل لا يقصد بإنفاقه الرياء والسمعة ؛ بل التقرب إلى الله تعالى ، والقربات جمع قربة ، وهي بمعنى التقرب ، والمعنى : ويتخذ ما ينفقه في سبيل الله تعالى سبباً للتقرب إلى الله تعالى ، وهو مفعول ثان لفعل يَتَّخِذُ .

أو المراد بالقربة ما يُتقرب به إلى الله تعالى ، والمعنى : ويتخذ ما ينفقه من أنواع النفقات قربات يتقرب بها إلى الله تعالى ، مدخراً له عند الله تعالى ، خالصة لوجه الله ، لا يبتغي وراء ذلك لا جزاءً من الناس ولا شكوراً ، بل يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ومغفرته ورضوانه .

وقوله تعالى : **{وَصَلِّواتِ الرَّسُولِ}** معطوف على ما يُنْفِقُ والمعنى : ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ، ويتخذ صلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم قربات عند الله .

والمراد بصلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلواته على مَنْ يُنْفِقُ في سبيل الله ، فإنَّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يدعو بالخير والبركة لمن قَدَّمَ له الصدقة لينفقها على الفقراء والمساكين ، ويصلي عليهم، ويستغفر لهم .

ويجوز عطف **{وَصَلِّواتِ الرَّسُولِ}** على قربات والمعنى :

ويتخذ ما ينفق مُقربات إلى الله تعالى ، وسبباً لصلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ودعائه له .

قال تعالى : **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ}** الآية .

روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا أتى بصدقة قال : ((اللهم صلِّ على آل فلان)) فاتاه أبي بصدقة فقال : ((اللهم صلِّ على آل ابن أبي أوفى)) .

والمعنى : اللهم صلِّ على ابن أبي أوفى وآله .

وروى ابن أبي شيببة وغيره عن جابر رضي الله عنه قال : أتانا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقالت له امرأتي : يا رسول الله صل على وعلى زوجي .

فقال : ((صلى الله عليك وعلى زوجك)) .

وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يُصلي على بعض الصحابة ولو لم يأت بصدقة ، فإنها - صلاته - دعاء لهم فيقول : اللهم صل على فلان .

وإن صلاة الحبيب الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم على العبد ودعائه له هو مجاب قطعاً ، وفيها سعادة الدنيا والآخرة ، وفيها مجامع خير الدنيا والآخرة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : {وصلوات الرسول} أي : لها شأنها العظيم ، فبكرامتها وبجاهه وبجاءته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تكشف الظلماء ، وينتشر الضياء ، وتنفرج الكروب ، وتفرح القلوب ، وتُغفر الذنوب ، ويُظفر بالمطلوب .

ثلاثة تكشفُ الظلماءَ طلعتها

وجهُ الحبيبِ وضوءُ الشمسِ والقمرِ

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ولما كانت صلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم على مَنْ يصلي عليه أمرها عظيم ، وأجرها كبير ، وخيرها كثير ، وهي قرينة عظيمة ، تُقرب العبد إلى الله تعالى ، لذلك قال سبحانه منبهاً إلى ذلك بقوله : {ألا إنها قرينةٌ لهم} الضمير في إنها يعود إلى أقرب مذكور وهي صلوات الرسول ، وفي هذا ألوان من التعظيم والتفخيم .

أولاً : التنبيه بقوله سبحانه : {ألا} يشير لعظم الأمر الذي يلي .

ثانياً : الجملة الإسمية الدالة على الدوام ، المؤكدة بأنَّ للتقوية والتعظيم .

ثالثاً : تنوين {قرينةٌ} الدال على التفخيم والتعظيم .

ويجوز عود الضمير في {إنها} على جميع ما تقدم - أي : للنفقة المفهومة من فعل ينفق ، ولصلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولكن عود الضمير إلى أقرب مذكور هو الأصل .

وقد يقول المؤمن : لقد فانتننا صلوات الرسول علينا صلى الله عليه وعلى وسلم فأنى لنا أن ننالها ونحظى بشرفها ، ونحصل على خيرها وبرها ؟ فإن قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صل على فلان أو آل فلان هي دعاءً محقق الإجابة ، مع المضاعفة ، لأنها صدرت منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فدعاؤه ليس كدعاء غيره ، بل هو أجل وأعظم وأكبر وأقوم ، وأشرف ، وأدوم ، مع تحقق الإجابة لا محالة .

فيقال في الجواب للرجل الذي يُحب أن يصلي عليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وللمرأة التي تحب ذلك أيضاً يقال لهما : أكثرا من الصلاة عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإنه قال : كما جاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من صَلَّى عليَّ بلغتني صلاته وصلَّيتُ عليه ، وكُتِبَ له سوى ذلك عشر حسنات)) رواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد لا بأس به .

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

فلا تحرم نفسك أيها العاقل من صلوات الله تعالى عليك ، ومن صلوات رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليك ، ومن صلوات ملائكة الله تعالى عليك ، فإن ذلك يحصل لك إذا صليت على النبي صلى الله عليه وسلم في كل وقت وحين ، عدد ما وسعه علم الله العظيم .

وقد ذكرت ذلك مفصلاً واسعاً في كتاب خاص فارجع إليه ينفعك الله تعالى .

نصيحة وذكرى :

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز)) الحديث .

فعلى العاقل أن يسعى فيما ينفعه في دينه وفي دنياه التي تُعينه على دينه ،
وأما منفعة الدنيا التي لا تُعينه على دينه فهي خسارة في الحقيقة ، فاجعل
الدنيا خادمة لدينك ، وخادمة لآخرتك ، وإيّاك وعشرة أشياء فإنها ضائعة
لا يُنتفع بها .

١ - علم لا يعمل به .

٢ - عمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء بالمخلصين .

٣ - مال لا يُنفق منه في سبيل الله تعالى .

٤ - بدن معطل عن طاعة الله تعالى وعبادته .

٥ - قلب فارغ من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ،
والشوق إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

٦ - محبةٌ ليس فيها رضا المحبوب ولا امتثال أوامره وتحقيق ما يُحبه
المحبوب .

٧ - وقت معطل عن استدارك فارط ، أو اغتنام برٍّ وقربة ، إلى الله تعالى
فيه .

٨ - فكر يجول فيما لا ينفع .

٩ - خدمة من لا تقربك إلى الله تعالى خدمته .

١٠ - خوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله تعالى ، وهو أسير في قبضة الله
تعالى ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وأعظم الإضاعات إضاعة القلب باشتغاله في حب الدنيا ، وغفلته عن
محبة الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

قوله تعالى : {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ} .

والمعنى : وإن تطيعوا الله تعالى فيما أمركم به ، وفيما نهاكم عنه في كتابه، وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطاعته طاعة لله تعالى أيضاً ، قال تعالى : {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} الآية .
فالطاعة تقتضي امتثال الأوامر واجتناب المناهي .

{لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} أي : لا يُنقصكم ، بل يُؤتكم أجورَ أعمالكم التي فيها طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يُوفيكُم أجورها وثوابها كاملاً موفوراً ومضاعفاً .

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فيغفر السيئات والخطيئات ، فعليهم أن يُبادروا إلى التوبة ، فالمغفرة واسعة ، والرحمة واسعة ، وأبوابها مفتحة للقاصدين .

يُقال : لاته يليته ويلوته أي : نقصه ، وقرأ أبو عمرو : لا يَألتكم بالهمزة من ألت يَألت ألتاً ، قال تعالى : {وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} - أي : ما نقصناهم .

فإنه تعالى لا يُنقص أجر من أحسن عملاً ؛ وأطاع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ بل يضاعف ويزيد من فضله ما يشاء ، قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِّنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : وإذا قال الله تعالى لشيء عظيم فهو عظيم . اهـ .

والمعنى : أنك مهما تصوّرت من عظم ذلك الشيء فهو أعظم ، لأن الله تعالى ذو الفضل العظيم ، أخبر بأنه عظيم .

اللهم يا عظيم نسألك من فضلك العظيم ، بفضل القرآن العظيم ، وبجاه ذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم ، أن تتفضل علينا بالعفو والعافية في الدنيا والآخرة .

روى الإمام أحمد وابن أبي شيبة عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إنَّ الله تعالى ليضاعف الحسنه ألفي ألف حسنة)) ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه: {وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} ، قال أبو هريرة : وإذا قال الله تعالى : {أَجْرًا عَظِيمًا} فَمَنْ يَقْدِرْ قَدْرَهُ !!؟ .

وقال تعالى : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} فهو سبحانه لا يُضِيع ذرة من عمل .

وقال تعالى : {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} .

فإنَّه تعالى لا يظلم عباده ؛ لا يظلم المحسنين فيلْتهم وينقصهم من أجور أعمالهم الحسنه ، بل يضاعفها لهم ، ولا يظلم المسيئين بأن يزيد في عقوبتهم فوق ما يستحقون بل كما قال سبحانه :

{من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون} .

فالسئية بمثلها إلا إذا عفى وغفر سبحانه لصاحبها ، وأمَّا الحسنه فهي مضاعفة بعشر حسنات ، وهذه المضاعفة بعشر ملازمة لكل الحسنات ، وأمَّا الزيادة على العشر فهي لمن يشاء سبحانه .

فهناك من يضاعف الله تعالى له الحسنه إلى سبعين ، وهناك من يضاعفها إلى سبعمائة ، وهناك من يضاعفها له إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى ، وهو العليم الحكيم ، وهو بعباده خبير بصير ، فإنه أعلم بقوة الإيمان وصدق العمل ، وإخلاص القلب للربِّ سبحانه ، ويعلم مقاصد الإنسان في عمله وقوله وفعله ، وهل يبتغي بذلك وجه الله تعالى ورضاه أم غير ذلك .

جاء في (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى - قال : ((إنَّ الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك .

فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعلها كتبها الله سيئة واحدة)) .

قال الإمام النووي بعد ما أورد هذا الحديث : فانظر يا أخي وفقنا الله تعالى وإياك إلى عظيم لطف الله تعالى ، وتأمل هذه الألفاظ ، وقوله : ((عنده)) إشارة إلى الاعتناء بها ، وقوله : ((كاملة)) للتأكيد وشدة الاعتناء بها ، وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها : ((كتبها الله عنده حسنة كاملة)) فأكدّها بكاملة ، وإن عملها كتبها سيئة واحدة ، فأكدّ تقليلها بواحدة ، ولم يُؤكِّدها بكاملة .

ولله الحمد والمنة سبحانه لا نحصي ثناء عليه وبالله التوفيق . اهـ نفعا الله تعالى به .

روى الترمذي عن تميم الداري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلهاً واحداً ، أحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له كفواً أحد - عشر مرات كتب الله له أربعين ألف حسنة)) .

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يقول الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)) ، ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : - في قول الله تعالى - : {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ، ولذلك قال بعضهم رضي الله عنه : أخفوا الله عملاً - وهو قيامهم في الليل في خفاء عن الناس لا يراهم إلا الله تعالى - فأخفى لهم عملاً لم يخطر على قلب بشر ، والجزاء من جنس العمل .

¹ أي : لم يعملها خوفاً من الله تعالى كما دلت بقية روايات الحديث .

وفي (صحيح) مسلم والترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((سأل موسى عليه السلام ربه تعالى ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟

قال : هو رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة.

فيقول : يا ربّ وكيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أَعْدَاتِهِمْ .

فيقال : أما تَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟

فيقول : ربّ رَضِيْتُ .

فيقول سبحانه : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله .

فيقول في الخامسة : رَضِيْتُ رَبّاً .

فيقول سبحانه : لك ذلك وعشرة أمثاله ولك ما اشتتهت نفسك ولَدَّتْ عَيْنُكَ .

فيقول : رب رَضِيْتُ .

فقال موسى عليه السلام : فما أعلاهم منزلةً ؟ .

قال : أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدي وختمتُ عليها ، فلم تُرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

فانظر إلى سعة كرم الله تعالى ، وعظمة إكرامه لعباده المؤمنين ، كلُّ على حسب مقامه قد نال فوق الآمال ، فهو سبحانه لا يَلِيْتُ أَحَدًا مِنْ أَعْمَالِهِ شَيْئًا ، بَلْ يُضَاعَفُ لَهُ أَجْرُهُ أضعافاً ، ويزيده من فضله سبحانه ما شاء ، قال تعالى : {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} .

فما أكرم المؤمن على الله تعالى ، وما أكرمه عند الله تعالى .

جاء في (الصحيحين) والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً - من حديث طويل - وفيه : ((ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ؛ وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة - مقبلاً بوجهه

قَبْلَ النارِ - فيقول يا ربِّ اصرف وجهي عن النار ، فقد قشبنني ريحها ،
وأحرقني ذكاها - أي : اشتعالها ولهبها - .

فيدعو الله عز وجل بما شاء أن يدعو به ثم يقول الله تعالى هل عَسَيْتَ إِنْ
أُعْطِيتَ ذلكَ أَنْ تَسْأَلَ غيرَ ذلكَ ؟

فيقول : وعزتكَ وجلالك لا أسألك غيره - فيعطي الله ما شاء مِنْ عَهْدٍ
وميثاقٍ أَنْ لا يسألَ غيره ، فَيَصْرِفُ وجهه عن النار ، فإذا أَقْبَلَ بوجهه
على الجنة ، ورأى بَهْجتها سكت ما شاء الله تعالى أَنْ يَسْكُتَ ثم قال : يا
ربِّ قدمني عند باب الجنة .

فيقول الله تعالى : أَلَسْتَ قد أعطيتَ العهودَ والمواثيقَ أَنْ لا تسألَ غيرَ الذي
كنتَ تسألُ ، ويحك يا ابن آدم ما أغدرك ؟

فيقول : يا ربِّ لا أكون أشقى خلقك .

فيقول الله تعالى : هل عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذلكَ أَنْ تَسْأَلَ غيره ؟

فيقول : لا وعزتكَ وجلالك ، لا أسألَ غيره ؛ وربُّه يعذره لأنَّه يرى ما لا
صبر له عنه - فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيقدمه إلى باب
الجنة، فإذا بَلَغَ بابها ، ورأى زَهْرَتِها ، وما فيها مِنَ النضرة والسرور ؛
سكت ما شاء الله تعالى أَنْ يسكتَ ثم يقول : يا ربِّ أدخلني الجنة .

فيقول : ويحك يا ابن آدم ما أغدرك ، أليس قد أعطيتَ العهودَ والمواثيقَ
أَنْ لا تسألَ غيرَ الذي قد أعطيتَ .

فيقول : يا ربِّ لا تجعلني أشقى خلقك - فيضحك الله تعالى منه ، ثم يَأْذَنُ له
في دخول الجنة ويقول له : تَمَنَّ - فيتمنى حتى إذا انقطعت أُمْنِيَّتُهُ قال الله
تعالى : تَمَنَّ كذا ، تَمَنَّ كذا ، ويُذَكِّرُه ربُّه حتى إذا انتهتْ به الأمانى ، قال
الله تعالى : لك ذلك ومثله معه)) .

قال أبو سعيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول :
(لك ذلك وعشرة أمثاله معه)) .

فهذا عطاؤه سبحانه لآخر مَنْ يدخل الجنة ، وهو آخر مَنْ يخرج من النار بمعاصيه - فما أكرم رب العالمين ، وما أعظم جوده ، وما أوسع رحمته !!

نعم هو كما نعلم وفوق ما نعلم ، وأعظم مما نعلم ، وأكبر مما نتصور ، فكرمه وجوده ورحمته وإحسانه لا يتناهى ذلك كله .

فحدّث عما لا يتناهى ولا حرج ، قال تعالى : - لأهل الجنة - {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} ، وقال : - فيهم - {لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} .

اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك يا ذا الفضل العظيم ، ويا أرحم الراحمين - آمين .

قوله تعالى : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} .

لما ادعت تلك الطائفة من الأعراب أنهم آمنوا ، ورد الله تعالى عليهم بقوله: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} ،

فأثبت لهم الإسلام الظاهر بمعنى الاستسلام كما تقدم ، فلما نفى عنهم الإيمان الصادق ، بيّن في هذه الآية الكريمة مَنْ هم الصادقون في الإيمان، فجاءت هذه الجملة منفصلة دون عطف ، جواباً عن سؤال مُقدّر ، كأن قيل: مَنْ هم الصادقون عند الله في إيمانهم ؟ ، وفي هذا تعليم للجاهل ، وتنبيه للغافل ، وتحذير من ادعاء الصدق في الإيمان بدون أن يكون هناك دليل على صدقه في دعواه أو برهان ، فليس الإيمان الصادق مجرد الدعوى بل لا بد له من بيّنة ، فذكر سبحانه أمارات الإيمان وبيّناته الباطنة والظاهرة فقال سبحانه : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أي: تحققوا بالتصديق القلبي الجازم القطعي ، وثبتوا عليه ، بحيث لا يعترئهم بعد ذلك ريب - أي: شك - مهما تطاولت عليهم الأزمنة ، وتقلب بهم العصور ، فهم صادقون لا يعترئهم ارتياب - يقال رابه الأمر إذا أوقعه في الشك ، فارتاب مطاوع رابه ؛ والمعنى : أنهم قد تعترئهم

الفتن ، وتلقى عليهم الشبه ، ومع ذلك فهم مؤمنون إيماناً قاطعاً جازماً لا يقبل الشك ، ولا الارتياب ، ولا الاضطراب في عقيدتهم .

ولذلك وصف الله تعالى المنافقين بالارتياب والاضطراب فقال : {وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون} ، هؤلاء هم المنافقون .

ثم وصف المؤمنين الصادقين فقال : {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون}.

فعلامه الإيمان الصادق القلبي الجازم هو عدم الارتياب مهما اختلفت عليه الأمور والأسباب المضللة المغوية المشككة ؛ وهذه آية الإيمان القلبي .

وخذ مثلاً على ذلك : هل يشك الإنسان في النهار إذا كان الوقت نهراً ، وأنواره منتشرة ، والشمس طالعة ، فلو أن أهل الأرض راحوا يشكونه ويأتونه بأنواع من أدلتهم وبراهينهم الفلسفية لأجل أن يحولوا قلبه عن عقيدته بوجود النهار إلى الاعتقاد بأنه ليل مظلم فإنهم لا يقدرّون على ذلك إلا إذا كان ذلك الإنسان إنساناً بالصورة لكنه حمار في المعنى أو مجنون مسلوب العقل ، والحكم عليه بالجنون القطعي أحقّ من أن نحكم عليه بأنه حمار ، لأنّ الحمار لا يتحول عن عقيدته ومعرفته الجازمة ، فلو أن صاحب الحمار أقنع حماره بأن يدخل النار ويمشي في النار ما يوافق على ذلك ، ولو حاول صاحب الحمار أن يسير حماره فوق الحفرة الواسعة السحيقة ما يوافق صاحبه على ذلك ، لأنّه جازم بأنّها حفرة سحيقة ، لا بد إذا اجتازها أن يقع فيها ويهلك ، ولا يدخل النار مهما حاول صاحبه بالإقناع إلا إذا حمل الحمار حملاً وألقاه في الحفرة فهو أضل من الحمار ، قال تعالى : - في الكفار - {أمّ تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنّ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} .

¹ أي : يخافون أن يظلمهم الله تعالى ويجور عليهم : أو يظلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجور عليهم ويحرمهم حقوقهم فيعطئها لغيرهم ، كلاً بل أولئك هم الظالمون ، فالله تعالى يحكم بالحق ، ورسوله صلى الله عليه وسلم يحكم كما شرع الله تعالى له .

ثم ذكر سبحانه براهين وعلامات الإيمان الصادق ، تلك العلامات والبيانات الظاهرة الدالة على صدق الإيمان فقال : {وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} .

الجهاد هو بذل الجهد بكل ما ينبغي أن تجهد النفس فيه تصديقاً لدعواهم الإيمان ، وذلك بقيامهم ما أمرهم الله تعالى به من جهاد الكفار ، وقتلهم الذين يؤذون المسلمين ، ويعتدون على أموالهم وأنفسهم ، ويحاولون أن يخرجوهم من ديارهم ، قال تعالى : {الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله} وبقيامهم بأنواع العبادات البدنية المحضة ؛ والمالية المحضة ؛ والمشتملة عليهما معاً .

فالبدنية المحضة كالصلاة فإنها تحتاج إلى جهد وصبر عليها في أدائها ولزوم أوقاتها ، قال تعالى : {وإنها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} ، وقال تعالى : {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} - أي: على الصلاة - فلا تعجل فيها وأدها في أوقاتها - {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} فلا تظن أن إطالة صلواتك على وجه السنة سوف يشغلك ، أو يأخذ من وقت عملك ؛ ويكون ذلك سبباً لنقصان رزقك فإن الله تعالى قال : {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا} أي: ما طالبناك أن ترزق نفسك حتى توفر من وقت الصلاة لشغلك {نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} .

فرزقك أيها الإنسان على الله تعالى ، الذي تكفل برزق الآدمي ، ورزق الجان والحيوان والحيتان والديدان ، قال تعالى : {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} .

فالواجب على الإنسان أن يضرب في الأرض ويمشي في مناكبها حسب الطاقة ، بحيث لا يشغله ذلك عن الطاعة والعبادة لربه ، وبمشيه وسعيه يقع على صرة رزقه المكتوبة ، قال تعالى : {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} فرزقه سبحانه مقسوم ومحتوم لكل مخلوق ، فعليه أن يسعى ويمشي فيوفقه الله تعالى إليه .

وَمِنْ الْعِبَادَاتِ الْبَدْنِيَةِ الْمَحْضَةِ الصِّيَامُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ .

وأما العبادات المالية المحضة فالزكاة ، وهي تحتاج إلى بذل الإنسان جُهدَهُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا كاملة بلا نقص في كل عام ، طيبة بها نفسه ، غير متحرج فيها ، ولا متضايق ومتناقل من أدائها ؛ كالمنافقين الذين في قلوبهم مرض ، ويبذل جُهدَهُ أَنْ يَضَعَهَا في مواضعها المشروعة ، فَإِنَّهَا حَقُّ الْفُقَرَاءِ قَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } الْآيَةَ .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه داعياً إلى اليمن وقاضياً قال له موصياً : ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلُ كِتَابٍ ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى فرض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم - وإياك وكرائم أموالهم)) - أي : خذ الزكاة من وَسَطِ أَمْوَالِهِمْ ، ولا تؤخذ خبيثه ولا خيرته وأكرم شيء عليهم .

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)) - أي : ولو كان المظلوم كافراً ، فإن له رباً ينتصر له مِنْ ظَالِمِهِ لَا مُحَالَةً .

روى الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا ؛ فَفَجْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ)) .

وأما العبادات المشتملة على البدنية والمالية فكالحج ، والجهاد للأعداء المحاربين ، فذلك يحتاج إلى بذل المال وجُهد البدن ، وبذل النفس والنفيس .

وتقديمُ الأموال على الأنفس في الآية الكريمة ونحوها هذا من باب الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، والترقى من بذل المال النفيس إلى ما هو أنفوس وهو النفس ، وفيه حَتُّ وتَحْرِيزٌ للذين يَحْرِصُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ الْحَرِصِ الْعَظِيمِ ، حتى إنهم يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ في جمعها والتكاثر فيها ، ويتفانون في حبها وكأنها آلهتهم - والعياذ بالله - وهم عبيد لها حباً فيها حباً جَمًّا ، وحرصاً عليها بأقوى طرق الحرص ، والاحتفاظ بها ، وتكالباً عليها أقوى

من الذباب المتكالب على الحلوى ، وفرحاً بكثرتها ، وترحاً كبيراً على نقصانها ، ولذلك ترى بعضاً منهم تزهرق روحه ولا تسمح نفسه أن يدفع ما أوجبه الله تعالى وهو على فراش الموت ، ويا ليت أنّها تذهب معه إلى القبر تنفعه ، بل إذا مات انصرفت وتحولت للورثة من قبل أن يُغسل ويكفن ويُدفن في قبره ، لا رحمه الله تعالى لأنّه قدّم حب المال على حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأيّ خير يُرجى منه ، أو هو يرجوه وحاله كذلك - نعوذ بالله العظيم ألف مرة من أدنى شيء ، من ذلك .

قال تعالى : {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} لا تخفى عليه خافية .

وروى الشيخان والنسائي - واللفظ له - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((مثل المنفق المتصدّق والبخيل ، كمثل رجلين عليهما جُبَّتَانُ أو جُنَّتَانُ من حديد ، من لدن تُدبِيهَما إلى تراقيهَما¹ ، فإذا أراد المنفق أن يُنفق اتَّسعت عليه الدرع)) .

وفي رواية ((فأما المنفق فلا يُنفق شيئاً إلا سبقت على جلده حتى تخفى بنانه ، وتعفو أثره)) .

((فإذا أراد البخيل أن يُنفق قلصت وألزمت كل حلقة موضعها ، حتى أخذت بترقوته أو برقبته .)) الحديث .

فدرع الحديد والجُنة هي ما يلبسه الإنسان للاحتفاظ من ضربات العدو وهي كالجبة ، فالمنفق تتسع عليه إذا أنفق ولا تضايقه ولا تخانقه بل تتوسع عليه عند رقبته إلى أطراف يديه إلى بنانه إلى أسفله ، ويجد في لبسها راحة ، وأما البخيل فإنّه كلما أراد أن يتصدق قلصت وضاق عليه

¹ التراقي : جمع ترقوة بفتح التاء وهو العظم الذي يكون بين ثغرة نحر الإنسان وعاتقه .

، واشتدت حَلَقَاتُهَا إِلَى بَعْضِهَا حَتَّى تَضَايِقَهُ وَتَشُدَّ عَلَى تَرْقُوتِهِ وَرَقْبَتِهِ ،
فَتَحْنَقُهُ ، فَيَتَعَذَّبُ بِحَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ شَيْئاً .

{**أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**} .

{**أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**} – أَي : الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمْ الْإِيمَانَ ، وَفِي
الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَصَرَ لِلصَّادِقِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ الصَّادِقُونَ قَالاً وَحَالاً
وَأَفْعَالاً ، فَلَا بَدَّ لِلدَّعْوَى مِنْ بَيِّنَاتٍ تُثَبِّتُهَا حَتَّى يَصْدُقَ الْمَدْعَى .

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءَ : الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِي يَأْمَنُهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
، وَالَّذِي إِذَا أَشْرَفَ عَلَى طَمَعٍ تَرَكَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) .

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِصِفَاتٍ
تَدُلُّ عَلَى رُسُوخِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَعَدَمِ مَدَاخِلَةِ الْارْتِيَابِ وَالِاضْطِرَابِ
إِلَيْهِمْ ، مَهْمَا امْتَدَّ بِهِمُ الزَّمَنُ ، وَتَقَلَّبَتْ بِهِمُ الْعُصُورُ ، كَمَا ذَكَرَ الْأَدْلَةُ عَلَى
صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ ، الثَّابِتِ بِبَذْلِ جِهْدِهِمْ وَجِهَادِهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ .

فَجَاءَتْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ فِي مَنَاسِبَةِ الرَّدِّ عَلَى تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ
وَأَشْبَاهِهِمْ ، الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ مَعَ أَنَّهُمْ فِي شَكُوكٍ وَارْتِيَابٍ ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ
دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاهُمْ .

كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بِصِفَاتٍ أُخْرَى مَنَاسِبَةٍ لِسَابِقِهَا
وَلَا حَقَّهَا ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ وَالْإِيْقَاطُ ، وَبَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّادِقَ لَيْسَ مَجْرَدُ
ادْعَاءٍ بِالْكَلَامِ ، وَمَجْرَدُ الْإِيمَانِ بِالْأَفْوَاهِ وَاللِّسَانِ ، وَلَكِنَّ فِي الْقَلْبِ ارْتِيَابَ
وَخَرَابَ ، وَشَكُوكَ وَاضْطِرَابَ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : { **مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ** } ، وَقَالَ تَعَالَى : { **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا**

نَشْهَدُ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ} .

ومن المعلوم أنّ الكذب هو ما خالف الواقع الحقيقي .

وَمِنْ تَمَّ تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكَرُ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةً صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
الصَادِقِينَ ، لَتَتَجَلَّى الْأُمُورَ ، وَتَظْهَرُ كُلُّ الظُّهُورِ ، حَتَّى لَا يَغْتَرَّ الْغَافِلُ
وَالْجَاهِلُ الْمَغْرُورُ ، فَبَيَّنَ سَبْحَانَهُ أَهْلَ الْإِيمَانِ الصِّدْقَ كَمَا بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ
الْحَقِّ .

قال تعالى : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} .

فهذه صفات المؤمنين الكمل ، إذا ذُكر الله تعالى وجلت قلوبهم ، أي :
خشيت ورقت هيبه وإجلالاً لله تعالى ، وإذا تُلِيَتْ عليهم آيات الله تعالى
زادتهم إيماناً ، لأنّ كلام الله تعالى له رُوح يحيى القلوب ، وله نور فيشرق
على القلب فيستتير ، ويزداد نوراً على نور - وهذا شأن من كان له قلب
حيّ بالإيمان ، غير غافل بل هو يقظان ، وأما من اعتراه نوع من الغفلات
فيقال له : إذا تُلِيَتْ عليك آيات الله تعالى فألق إليها سمعك ، وأشهد لها قلبك
، وأصغ لسماعها بكليتك ، فلا بدّ أن تسري رُوح القرآن في قلبك فيحيى ،
ولا بد أن تتعظ فتعي وترعوي ، هذا وعد أكده الله تعالى على نفسه حيث
قال : {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} -
أي: حاضر القلب - .

وأما من استمع بأذنيه ، معرضاً بقلبه ، أو غافل القلب فله أجر السماع
فحسب ، ولم يُحصَلْ ذلك الانتفاع .

فالقرآن العظيم له روح تسري في القلوب فتزدها فتخشع وترق ، قال
تعالى : {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وكثير منهم فاسقون اعلموا أنّ الله يُحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون} .

وفي هذه الآيات عتابٌ من الله تعالى للمؤمن الذي لا يخشع قلبه لذكر الله تعالى ، وأول ما يدخل تحت قوله تعالى : {الذكر الله} القرآن الكريم ، فإنّه الذكر الحكيم ، وهو أفضل الأذكار الإلهية .

وقوله تعالى : {وما نزل من الحق} أي : الوحي النازل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهي الأحاديث النبوية المعبر عنها بالحكمة ، قال تعالى : {وأُنزل الله عليك الكتاب والحكمة} .

ثمّ حذّر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، فإنهم طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، وغفلوا عما ذكروا به في كتبهم .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الوحي القرآني والنبوي - أي: ما جاء في الكتاب والسنة فإنّ ذلك روح يحيى به أرض القلوب ، وإن الله تعالى يحيى القلوب بذلك ، كما يحيى الأرض بعد موتها بالمطر ، فعلى المسلم أن يفتح قلبه للكتاب والسنة ، وأنّ يُصغي إليهما قلبه ، وأن يُحضر قلبه عند تلاوة القرآن وسماع الحديث . .

فالمؤمنون يزداد إيمانهم إذا تليت عليهم آيات القرآن الكريم ، كما وصفهم سبحانه في الآية المتقدمة ، كما أنّه سبحانه وصف المؤمنين بأنّ إيمانهم الصادق يحمّلهم على امتثال أوامره واجتناب نهيه ؛ وإذا لم يتحقق ذلك منهم فدعواهم الإيمان ليست صادقة أصلاً - إن استحلوا المناهي واستحسنوها ، أو تهاونوا بأمرها ولم يخافوا الله من عواقبها وعقابها الذي أوعد الله تعالى به .

ومن ذلك قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأنذروا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي يخاطب الله تعالى بها عباده بقوله :
{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أو قوله : {إِنْ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} ، كقوله
تعالى : {الزّانية والزّاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم
بهما رافة في دين الله إِنْ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَد
عذابهما طائفة من المؤمنين} .

وأشبه هذه الآيات الكريمة .

وها أنا العبد لله أَلْفِتُ النظر والانتباه إلى قوله تعالى في النهي عن الربا
والتحذير من عقابه في الدنيا والآخرة ، وأنّ المرابي قد أعلن الله تعالى
ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليه الحرب الشعواء ، والغضب
والبغضاء ، فإنّ الله تعالى ورسوله يحاربه ويبغضه ، فماذا يكون موقف
المؤمنين مع مَنْ أعلن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الحرب عليه
والغضب ، وعداوته سبحانه له ، هل يجوز للمؤمن أن يُحبه أو يُكرمه ،
فاعتبروا يا أهل الإيمان ، واعلموا أنّ أمر الربا عظيم عند الله تعالى ،
وخطره جسيم على خلق الله تعالى : إنّ المرابي يهدم بيوتاً ، ويشنت
عائلات ، ويزيد الفقير فقراً .

فهذا فقير احتاج إلى من يُقرضه من الأغنياء فلم يُقرضه أحد قرضاً حسناً
ابتغاء وجه الله تعالى ، بل راح يشترط عليه أن يدفع كذا في المائة ، وإذا
بهذا الفقير يستقرض ويوافق على شرط دفع النسبة المئوية ؛ ضرورة شدة
الحاجة ، ولكن لم يُوفّق الفقير في عمله ، فتراكمت عليه ديون وديون ،
وأقساط الربا فهلك وأهلك بسبب ذلك المقرض الذي فرض عليه الفائدة ،
فهذا آكل الربا قد كثر ماله على حساب فقر غيره ، فدَمَّرَه ، وسيأتي على
آكل الربا يَوْمٌ يُدَمِّرُه الله تعالى .

قال تعالى : {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}.

فالذي يأكل الربا كَفَّارٌ لنعم الله تعالى ، وتوسعة الله عليه بالمال .

وأما مَنْ أقرض المحتاج قرضاً حسناً لله تعالى ؛ فينال الثناء الحسن
والشكر من خلق الله تعالى ، ونال البركة من الله تعالى ، والأجر العظيم

عنده سبحانه ، فإنّ الصدقة بعشر ، والقرض ثوابه ثمانية عشر ، ولذلك قال تعالى : { وَإِنْ كَانَ - أي: المديون - } ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، والأفضل إذا كان في حاجة أن لا تُخرجه بل تتصدق عليه ؛ فتسقط الدين عنه ، لأنّه في حاجة شديدة ، فلو تعلم فضل إسقاط دين المحتاج ؛ وآمنت بما وعدك الله تعالى ؛ لنتل أجراً عظيماً لا تعلم مقداره ؛ ولذلك قال سبحانه : { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ علماً جازماً ؛ وتؤمنون إيماناً صادقاً ؛ لعلمتم أنّ الخير الذي وعدكم الله تعالى به على إسقاط دينكم عن المحتاج - هذا الخير والأجر لا يعلمه إلا الله تعالى ، وأنتم في يوم أشد الحاجة إليه ، ولذلك قال تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } - وهذه آخر آية قرآنية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فيها وصية الله تعالى لعباده بتقوى ذلك اليوم العظيم ، الذي فيه لقاء الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب والسؤال ، فليراقب المؤمن ربّه ، وليكن ذلك اليوم يوم الحساب والسؤال في حافظته ، بل نُصب عينيه ، لا تشغله الدنيا فينساه ، ولا ينسى الله تعالى ، ولا ينسى موقفه بين يديه سبحانه ، ولا ينسى الوعيد الذي أوعده الله به الفاسقين .

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } .

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك ، وأسعدنا بتقواك ، ولا تُشغفنا بمعصيتك يا أرحم الراحمين - آمين .

وفي قوله تعالى : { وَإِنْ تَبْتُمْ } - أي: من الربا - { فَلَکُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ } دليل قاطع على أنّ الربا قليله وكثيره حرام ولا واحد في المائة ، لأنّه سبحانه قال { فَلَکُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ } وهذا آخر أحكام الربا وليس هنالك ما ينسخه ولا ما يبده أو يُغيره ، فإنّه حُکم الله تعالى المحکم ، وشرعه المبرم { ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } في شرعه وأحكامه ، وقضائه وتدبيره في جميع ما يصدر عنه سبحانه .

وقد جاء عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون : إن
آخر ما نزل في الربا من الآيات هذه الآية قوله تعالى : {يا أيها الذين
آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا
فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم . . } الآيات.

وآخر آية نزلت عند الجمهور هي قوله تعالى : {واتقوا يوماً ترجعون فيه
إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} .

وفي هذه الآية وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ بِالِاسْتِعْدَادِ لَذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَأَنْ
يُعِدُّوا عَدَّتَهُمْ ، وَلِيَحْسِنُوا أَعْمَالَهُمْ ، وَلِيَصْلِحُوا مَا أَفْسَدُوا ، وَيَتُوبُوا مَنْ
ذُنُوبَهُمْ تَوْبَةً نَصُوحاً ، وَلِيَحْذَرُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي تَبْيِضُ فِيهِ وُجُوهُ وَتَسْوَدُ
وُجُوهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى - .

اللهم بيض وجوهنا في الدنيا والآخرة .

فذاك يَوْمٌ يُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فَيَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ،
وَيُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : {وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَاً لَقَدْ
جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنَا لَكُمْ مَوْعِدًا} .

فيا له مِنْ مَوْقِفٍ رَهِيْبٍ ، فِي يَوْمٍ عَصِيْبٍ ، يَطِيْشُ فِيهِ الْأَرِيْبُ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ
السَّيِّدَ الْحَبِيْبَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، رَسُولَ اللَّهِ
الْأَكْرَمِ ، وَالْإِمَامَ الْأَعْظَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فَأَوْلَيْكَ فِي أَمْنٍ
وَأَمَانٍ ، وَسَكِينَةٍ وَاطْمَئِنَانٍ ، وَكِرَامَةٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ وَإِحْسَانٍ ، قَالَ
تَعَالَى : {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمَمْنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفُرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ} اللَّهُمَّ آمِينَ ، يَا مَنْ هُوَ بِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ .

فالتوبة التوبة ، والإنابة إلى الله تعالى الإنابة .

يا من غدا ثم اعتدى ثم اعترف

ثم ارعوى ثم اهتدى ثم اعترف

أبشر بقول الله في آياته

إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ

ويرحم الله القائل :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة

فَلَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمَ

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنًا

فَمَنْ الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمَجْرِمَ

مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَاءُ

وَجَمِيلَ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ

والقائل :

يا كثير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

ذنوبك أعظم الأشياء في جانب عفو الله يُغْفِرُ

فالتوبة التوبة ، بادر إليها ، فبحر الغفران يُطَهِّرُ وَيَطْمُؤُ الدُّنْبَ وَالْعَصِيَانَ ،
فاستغفر الله تجد الله غفوراً رحيماً .

استغفر الله مما يعلم الله

إِنَّ الشَّقِيَّ لَمَنْ لَا يَرْحَمُ اللَّهُ

مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَمَّنْ لَمْ يَرِاقِبْهُ

كُلُُّّ يَسِيءٍ وَلَكِنْ يَحْلُمُ اللَّهُ

فاستغفر الله مما كان من زلل

طوبى لمن كفَّ عما يكره الله

طوبى لمن حسنت منه سريرته

طوبى لمن ينتهي عما قد نهى الله

سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : {وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} .

فإذا تحقق الإنسان بذلك كَمُلَتْ لَهُ مراتب الجهاد والصدق في إيمانه ، فإنَّ الجهاد بالمال والنفس يَحْتَاجُ إِلَى جِهَادِ النَّفْسِ وَالْهَوَى ، وَالشَّيْطَانِ وَالدُّنْيَا - كما قيل :

إِنِّي ابْتَلَيْتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينِي

بِالسَّهْمِ عَن قَوْسٍ لَهَا تَوْتِيرٌ

إِبْلِيسَ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى

يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى الْخِلَاصِ قَدِيرٌ

فمن جاهد هذه الأربعة في الله تعالى هداه الله تعالى سبيل رضاه وقربه ، كما قال الإمام الجنيد رضي الله عنه : - في قوله تعالى - : {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} قال : والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة إلينا، لنهدينهم سُبُلَ الْإِخْلَاصِ . اهـ .

فهذه الآية الكريمة تشمل أنواع الجهاد في الله تعالى كلها ، ومنها جهاد الأهواء .

وينبغي للمجاهد أن يستعين على جهاد أعدائه بالله تعالى ، وأن ينتصر بالله تعالى ، وأن ينصر الله على نفسه ؛ مستعيناً به ، فإنَّ الله تعالى يقول : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} فهذا عامٌ يَشْمَلُ ذلك كله فافهم .

قال شقيق بن إبراهيم رضي الله عنه : أغلق باب التوبة عن الخلق ستة أشياء :

١ - اشتغالهم بالنعمة عن شكرها .

٢ - ورغبتهم في العلم وتركهم العمل .

٣ - والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة .

٤ - والاغترار بصحبة الصالحين ، وترك الاقتداء بأعمالهم .

٥ - وإدبار الدنيا عنهم وهم يبتغونها .

٦ - وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها . اهـ .

والعجيب أنّ كثيراً من الناس يتهافتون على الدنيا ، ويخدمونها طيلة حياتهم ، ويجمعون ويمنعون ، وكأَنَّهُم فيها خالدون ، مع أنّ الموت مسارع إليهم ، وكلّما مَضَى على الإنسان يوم اقترب من الموت أكثر ، حتى إذا جاء أحدهم أجله تَمَنَّى أن يعود ولو ساعة واحدة لأجل أن يؤدي زكاته ، وما عليه من الحقوق والواجبات ، وأنّى له ذلك ، ألم يسمعوا قول الله تعالى :
{يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكُنّ مِنَ الصالحين ولئن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون} .

ولا يظن الأغنياء الأشحاء أنّ أموالهم هي سعادة وخير لهم ، بل هي شر ووبال عليهم ، قال تعالى : {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرّ لهم} الآية .

ولا يجوز أن يظن من قُدِرَ عليه رزقه أنّه هو مَهين غير مكرم ، قال تعالى : {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعمه} - أي : في الدنيا - {فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقه فيقول ربي أهانن} قال تعالى : {كلّا} .

قوله تعالى : {قُلْ أَتَعْلَمُونَ الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم} .

والمعنى : أتعلمون الله بدينكم فتخبرونه بما في ضمائركم ، والله يعلم ما في السموات وخفاياها ، وما حوته زواياها ، ويعلم ما في الأرض وما في خباياها ، وما حوت وخفي في بطونها ، وما في قعر بحورها ، وأرجاء

برها ، وكنوز جبالها ، وما في بطون شعابها وأوديتها ، ومن جملة ما يعلمه ما في خفايا نفوسكم ، وضمانر قلوبكم ، وخبايا صدوركم .

قال تعالى : {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} .

وقال تعالى : {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} .

وقال سبحانه : {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} . أي : عليم بالقلوب التي في الصدور .

وقال سبحانه : {وَإِنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ} الآية .

وقال تعالى : {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} ؟ .

فجميع المخلوقات هو خلقها فكيف لا يعلمها؟! فإن علمه بها سابق على وجودها ، لأنه لو لم يعلمها قبل وجودها فكيف يُوجدها، وهذا أمر معقول لا يُختلف فيه .

أرأيت الذي يُريد أن يصنع آلة فإنه إذا لم يعلم بها ويعرف صنعها كيف يتصور أن يصنعها ، فالله سبحانه هو عليم بالمخلوقات ، علماً أزلياً لا أول له ؛ فَخَلَقَ الخلق عن علم سابق ، وهو بكل خلق عليم ، وبكل مخلوق عليم، وبكل نوع من أنواع التخليق عليم ، ويخلق ما يشاء كيف يشاء .

وهو سبحانه يعلم مكابيل البحار ، ومثاقيل الجبال ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد أوراق الأشجار ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، ولا بر إلا يعلم ما في سهله ووعره ، ولا تُوارى منه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، فلا يخفى عليه شيء ، ولا يغيب عنه غيب ، بل هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، {سِوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} .

لا تختلف عليه الأشياء ، والكل في علمه سواء ، فسبحانه وسع كل شيء علماً كما قال سبحانه : {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فهو وحده العليم بكل شيء ، وهذا الشيء يعم الواجب والمستحيل والممكن وجوده .

فالعلم الإلهي مُحيط بجميع الأشياء المستحيلات التي يُحيل العقل وجودها ، فهو يعلم المستحيل أنه مستحيل ، ويعلم ما يكون حال المستحيل لو فُرض وجوده مع استحالة وجوده .

قال تعالى : {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} - أي : لم تُوجدا ، فلو فرض على وجه الاستحالة وجود هذا المستحيل لأدى أمره إلى الاستحالة ، وهو قوله تعالى : {لَفَسَدَتَا} - أي : لفسد وجودهما ونظامهما ، مع أنّ هذا لم يقع ، فالسماوات والأرض موجودتان بإتقان وإحكام وحُسن صنع وانتظام ، فلو كان هناك آلهة لم يكن شيء من ذلك .

والله سبحانه يعلم الممكن الذي كان ، والذي هو كائن ، والذي سوف يكون إلى ما شاء الله من حيث الأبد ، ويعلم الممكن الذي لا يكون ؛ ويعلم كيف يكون لو كان .

قال تعالى : - في الكفار - {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} - أي : أسمع قلوبهم القرآن - {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} لأنهم لا يُحبون ذلك بل يكرهونه .

وقال تعالى : - في الكفار لما تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن عاينوا العذاب - {وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} .

قال تعالى : - رداً عليهم - {بَلْ بَدَأْ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} .

وقال تعالى : {وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ} .

{والله بكلِّ شيءٍ عليم} هذه الشئئية عامة لجميع الأشياء ، الواجب والمستحيل والممكن ، وبها يتعلق العلم ، لأنّ العلم إدراك المعلوم ، فجميع الأشياء على أصنافها هي معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلمه بها لا أول له ولا آخر له ، فعلمه محيط بالأشياء كلّها .

وقد اختلفت الأقوال حول كلمة الشيء وما يراد به ؛ اختلافاً كبيراً بين علمائنا السابقين ، ولكن القول الجامع الذي يرفع الخلاف هو كما في التفصيل الآتي :

لقد نص إمام النحو سيبويه رحمه الله تعالى - كما نقل العلماء عنه أنه قال - : الشيء لغة : هو ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه اهـ .

وهذا شامل للمعدوم والموجود والواجب الوجود والممكن ، وتختلف إطلاقاته في آيات القرآن الكريم ، ولكن المراد منه يُعلم بالقرائن ، إما بالصفة الإلهية المذكورة قبله المتعلقة به ، وإما بقرينه السباق واللاحق .

فيطلق الشيء تارةً ويُراد به جميع أفراد كقوله تعالى : {والله بكلّ شيء عليم} و {إنّ الله كان بكلّ شيءٍ عليماً} ونحو ذلك من الآيات ، بقرينه العلم الإلهي بالواجب والممكن المعدوم والموجود ، والمحال وجوده .

ويطلق أحياناً ويراد به الممكن مطلقاً ، موجوداً في الخارج أو غير موجود، وهذا هو المراد بقوله تعالى : {إنّ الله على كل شيء قدير} بقرينة أنّ القدرة لا تتعلق إلا بالممكن لأنّ من شأن القدرة أن تُؤثر في الإيجاد أو الإعدام ، فلا تتعلق بالموجود الواجب الوجود لأنّها لا تُؤثر فيه وجوداً ، باعتبار أنّه موجود وجوباً ، ولا تُؤثر فيه عدماً لأنّ وجوده واجب لا يمكن عدمه ، ولا تتعلق القدرة بالمُحال عقلاً لأنّه محال وجوده ، فلا تتعلق به القدرة ، فإنّ التعلق هو ظهور أثر الصفة فيما تعلقت به فافهم ذلك ، كما هو مبين في كُتب التوحيد .

فلا تتعلق القدرة إلا بالممكن ، فإنّه موضع تأثيرها ، كالإرادة فإنّها تقتضي التخصيص ببعض الممكنات ، وهذا التخصيص ليس له موضع إلا الممكن، لأنّ الواجب واجب والمحال محال .

ومن هنا يُقال لمن يسأل هل يمكن أن يخلق الله تعالى مثلاً له .

فالجواب : أنّ وجود مثله سبحانه مستحيل ، والمستحيل لا يتعلق به القدرة، لأنّ من شأنها التأثير إيجاباً وإعداماً ، والمستحيل ليس موضعاً لذلك ،

فالقدره لا تتعلق بالمحال - هذا جواب مفحم علمي نظري - أي : يُعلم بعد النظر والتأمل .

وهناك جواب علمي بديهي ، وهو أنّ القاعدة العلمية هي أنّ الحكم على الشيء هو فرغ عن تصور العقل وجوده ، فهل يتصور العقل وجود مثل يخلقه الباري ؟

فالجواب : أنّ هذا لا يتصور ، لأنّ المخلوق الذي يدعي أنّه مثل للخالق هو مخلوق ، والله تعالى خالقه ، وأمّا الله تعالى فهو خالق غير مخلوق ، فكيف يلتقيان في المثل ، فهذا هو الله تعالى خالق كل شيء ، وما سواه سبحانه فهو مخلوق له ، فكيف يكون مثل خالقه؟! .

فلا يقال هل يقدر على أن يخلق مثله ، فإنّ هذا السؤال غير صحيح ، بل هو ناشيء عن جهل عميق سحيق جداً ، وإذا تكلم به العامي يجب إسكاته ، ويقال له : تعلم ما تُصحح عقيدة توحيدك ، فإنّ هذا السؤال يدل على جهلك بخالقك ، وبصفاته سبحانه وتعالى .

وقد يطلق الشيء في القرآن الكريم ويُراد به الممكن الخارجي الموجود في ذهن الإنسان ، كما في قوله تعالى : { **وَلَا تَقُولنَ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ** } فالشيء هنا هو ممكن خارجي ، ظهر في خارج العلم ، لكن في الوجود الذهني الإنساني ، بدليل كونه مُتصوراً في ذهن الإنسان ، ومشيناً فعله غداً .

وقد يطلق الشيء ويُراد به الممكن المعلوم الثابت في نفس الأمر ، لكنّه لم يظهر في الوجود الخارجي ، كما في قوله تعالى : { **إِنَّمَا قَوْلُنَا لشيءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } فسماه سبحانه شيئاً قبل أن يوجد في خارج العلم ، فهو ثابت في العلم الإلهي ، ثمّ خصصته إرادة الله تعالى بترجيح وجوده على عدمه ، فوجّه إليه سبحانه خطابه بقول كن ، فخاطبه وهو شيء ثابت في علمه ، خاطبه أمراً له بكن ، وكلمة كن تُعطي الشيء المعلوم ثوب الوجود والكون ، فهو يكون فوراً ؛ أقرب من لمح البصر ، قال تعالى : { **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ** } .

وقال تعالى : {وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب} - أي :

بل هو أقرب .

فنفوذ الأمر هو بغاية السرعة ، ضرب المثل بلمح البصر بل هو أقرب ، سبحانه سبحانه ما أعظم قدرته ، فجميع الممكنات ثابتة في العلم الإلهي ، ثبوتاً ملازماً للعلم الذي لا أول له ، ولا مبدأ له ، فما أراد وجوده أو جوده ، وما لا فلا ، فما شاء كونه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكلمة الحق {كن} وقوله سبحانه للشيء {كن} تلبس المخاطب ثوب الوجود الخارجي وإن لم يزل ثابتاً في العلم أزلاً وأبداً ، وكلمة {كن} لا تملك ثوب الوجود للموجود بها ، بل هو لا يزال مفنقراً إلى أن يمده الله تعالى بكن حتى يثبت عليه وجوده ، ويطوره وينقله في كل لمحة بصر أو أقرب ، فإن أحداً ما لا يملك وجوده بذاته ، وإنما وجوده بإيجاد الله تعالى له بدءاً ومآلاً وانتهاءً .

قال تعالى : {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز} .

فمن هنا تعلم أن المراد بالفقر هنا فقر الوجود بالذات إلى واجب الوجود بالذات ، ومن ثم قال : {أنتم الفقراء} ثم قال : {إن يشأ يذهبكم} ولو أراد فقر المال فحسب لقال : إن يشأ يهلك أموالكم فيجعلكم فقراء بعد أن كنتم أغنياء بالمال - فافهم توحيد القرآن الكريم ، ولا تكن من الذين قال الله تعالى فيهم {فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً} .

فالمتكلم بذلك هو الله تعالى ، فافهم عنه كلامه ، وافقه وتفقه ، فهو سبحانه القيوم الذي قامت به المخلوقات كلها ، وجميع المخلوقات لا قيام لها من ذاتها بل به سبحانه .

قال تعالى : {ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره} .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((اللهم لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن . . .)) الحديث .

ومن عظيم القدرة الإلهية أنه سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فهذا خطابه لأنواع الموجودات على اختلاف أصنافها وأنواعها ، فإنه

يُخاطبها بتلك الكلمة ، ويأمرها بكن فتكون كما عَلِمَ وأراد ، فليس هناك حاجة إلى أن يقول للشيء إذا أراد كونه إنساناً - لا حاجة أن يقول له كن إنساناً ، أو للحيوان كن حيواناً ، أو للحجر كن حجراً ، أو . . الخ - ذلك لأنها ثابتة في العلم ، فهو يخصصها بإرادته على الوجه الذي يُريده لها ، ثم يُوجه عليه قوله كن فيكون كما علم وأراد ، ولذا قال تعالى : **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ} أي : ثابت في علمنا - {إذا أردناه} - أي : خصصته إرادتنا بما هو مقتضى علمنا وحكمتنا سبحانه - {أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} - أي : فهو يكون فوراً ، وتلك الفورية لا تُحد سرعتها ، سواء كان ذلك الشيء صغيراً أو كبيراً ، جزئياً أو كلياً .**

قال تعالى : **{مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} .**

وقد يطلق الشيء في القرآن الكريم ويراد به الموجود الخارجي في عالم الكيان ، كما قال تعالى : **{هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً} - أي : لم يكن شيئاً موجوداً خارجياً يُذكر في عالم الشهود ، ويوصف بأنه إنسان ، وفلان ابن فلان ونحو ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى : **{وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلِ وَلَمْ تَكُن شَيْئاً} - أي : شيئاً مذكوراً ، وقال سبحانه : **{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} - أي: حتى الذرة ، فإنها تدل على خالقها .******

فليس المراد بقوله تعالى : **{وَلَمْ تَكُن شَيْئاً} الشيء اللغوي العام للمعدوم والموجود والمحال ، فإن جميع الأشياء هي معلومة عند الله تعالى ، وجميع الممكنات هي أشياء ثابتة في العلم الإلهي القديم الذي لا أول له .** وهناك إطلاقات أخرى للشيء ظاهرة المراد حسب سياقها كقوله تعالى : **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} .**

والمعنى : لستم على شيء ينفعكم عند الله تعالى ويرضاه سبحانه منكم ، حتى تحققوا العمل بالتوراة والإنجيل ، وحتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ربكم على رسولكم موسى وعيسى من الوحي النبوي ، ومن ذلك أمرهما

بالإيمان بمحمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبشارتهما به صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقد قال الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه : هذه الآية هي أشد آية نزلت في القرآن وأخوف آية :

ويريد بذلك أنّ هذه الآية الكريمة وإن كانت موجهة الخطاب لأهل الكتاب ، ولكنها تُعرّض بهذه الأمة ، وتسمّعهم بأنّ كتاب الله تعالى القرآن الكريم هم أعظم وأهدى ، وقد أنزله تعالى على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليتحققوا به ، ويطبقوا ما فيه من أوامر ، وينتھوا عما فيه من المناهي ، وكذلك يحققون العمل بما أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من الوحي النبوي ؛ وهي السنة وأحاديثه الشريفة ، فليسوا على شيء يَنفَعهم عند الله تعالى ، ولا قيمة لهم ولا كرامة ، حتى يُطبقوا ذلك ويتحققوا به .

فإنّ كتاب الله تعالى هو أصدق الحديث ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فما كان العمل في نظر فاعله عظيماً فهو ليس بشيء عند الله تعالى ما لم يكن مُتَّبِعاً فيه لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وفي الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطب فقال : (أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أنتكم الساعة بَغْتة ، بُعثت أنا والساعة هكذا ، صبحتكم الساعة ومستكم .

أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، مَنْ ترك مالاً فلأهله ، ومَنْ ترك ديناً أو ضياعاً)) - أي : عيالاً - ((فإليّ وعليّ ، وأنا وليّ المؤمنين)) رواه مسلم وأحمد والنسائي .

وقد يطلق الشيء على وجه العموم ويراد به شيء مخصوص خصصه
سباق الكلام ولحاقه أو خصصه العقل .

فمن الأول قول الله تعالى : {وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه وهو خير
الرازقين} فالشيء المراد هنا ما يصلح للنفقة ، وفيه المنفعة للمنفق عليه
من المال الحلال ، كما قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات
ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تُنفقون
ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنيٌ حميدٌ} .

فإنفاق المال غير الحلال غير مقبول ؛ وتَقَصَّدُ إنفاق الرديء من المال فير
مأجور ؛ بل أنفق أصلح المال أو وسطه ، قال تعالى : {لئن تنالوا البر حتى
تنفقوا مما تحبون} .

ومن الثاني قول الله تعالى : - مخبراً عن الهدهد قائلاً لنبي الله سليمان على
نبينا وعليه الصلاة والسلام : {إني وجدت امرأة تملكهم} - أي : هذا أمر
عجيب أن امرأة تملك رجالاً وتتولى عليهم - {وأوتيت من كل شيء} - أي :
هذا خبر هام ، يدل على قوتها وكثرة عدتها ، فإنها أوتيت من كل شيء -
أي : مما تؤتاه الملوك الأقوياء ، من أسباب القوى والمعدات ، وكثرة
العساكر والجنود ، فليس المراد من قوله تعالى : {وأوتيت من كل شيء} -
أي : من سموات وأراضي وجبال وبحار ، ولا غير ذلك ، بل المراد
أشياء مخصوصة يقوم عليها أساس الملك .

وقد ذكر علماء الأصول في المطولات أنواع المخصص للعام - جزاهم الله
تعالى خيراً

فللشيء في الآيات القرآنية إطلاقات عامة ، وله معاني خاصة تدل عليها
الدلالات المختلفة يفهمها اللبيب .

قال تعالى : {كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدبروا آياته وليتذكر أولو
الألباب} .

وأما الشيء في اصطلاح المتكلمين فهو : الموجود بالوجود الخارجي كما
قال العلامة اللقاني رحمه الله تعالى - في الجوهرة - :

وعندنا الشيء هو الموجود وثابت في الخارج الموجود

وجود شيء عينه والجوهر الفرد حادث عندنا لا ينكر

فهذا اصطلاح المتكلمين ؛ ولا مشاحة في الاصطلاح ، وهذا من باب تعريف الشيء اصطلاحاً لا لغة - فافهم ذلك ولا تخط .

وقد أراد المتكلمون بذلك أن يردوا على المعتزلة كما هو مفصل في الكتب الكلامية ، ولا أريد أن أخوض غمار البحث في الخلاف بين المتكلمين وبين المعتزلة في موضوع الشيء ، والبحث في الجوهر الفرد وما حول ذلك من كلام الفلاسفة المتقدمين - فإنّ البحث في ذلك طويل الذيل ، فمن أراد التوسع فيه فليرجع إلى شروح المواقف .

قوله تعالى : {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

روى الطبراني وابن مردويه بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن أناساً من العرب قالوا : يا رسول الله : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان .

فأنزل الله تعالى : {يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} - والمعنى : أنهم جاؤوا إليك يُعِدُّونَ إِسْلَامَهُمْ مِنَّةً عَلَيْكَ .

والمِنَّةُ هي : النعمة لا يطلب معطيها جزاءً ممن أنعم بها عليه ، مشتقة من المَن وهو القَطْع من العطاء الذي لا يُراد عليه جزاء .

فجاء الجواب : {قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ} لو فرض أنكم كنتم مسلمين حقاً - أي متدينين بدين الإسلام حقيقة ، وهو انقياد الظاهر مع إذعان الباطن ، فلا تذكروا ذلك على وجه الامتنان أصلاً ، فإنه لا وجه لامتنانكم عليّ بذلك ، {بل الله يمن عليكم} أي: الله رب العالمين هو الذي له المنّة على كل موجود ، ولا منّة عليه سبحانه .

فهو تعالى له أن يَمُنَّ عليكم أن هداكم للإيمان ، ووفقكم للاهتداء والتحقق به اعتقاداً وعملاً ، {إن كنتم صادقين} في ادعائكم ذلك الإسلام الحقيقي الكامل .

فإنه تعالى هو وحده له المِنَّةُ لأنه يُعطي العطاء ولا يحتاج إلى الجزاء ، وإن أعظم المِنَّةِ والعطايا الإلهية هي نعمة الإيمان ، فله المنة العظمى على المؤمنين ، والله تعالى قد امتن على عباده بأنواع المنن التي لا تحصى ، ولكن امتن على هذه الأمة خاصة بنعمتين كبيرتين عظيمتين : نعمة الإيمان ، ونعمة إرسال أفضل الرسل وأكرمهم على الله تعالى ، فجعله رسولهم ، وشرّفهم فجعلهم من أمته مؤمنين به .

قالت تعالى : {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} .

فلما بعث فيهم خير الأنبياء والمرسلين وأفضلهم ، صاروا به خير أمة أخرجت للناس ؛ إذا صاروا على هديه المستقيم ومنهاجه الحكيم - اللهم اجعلنا منهم بجاهه صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وهذه النعمة تُذكر وتشكر ، أما بلغك خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الأنصار ، يذكرهم بهذه النعمة الكبرى ، والمِنَّة العظمى ، كما في (الصحيحين) و(المسند) أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في خطبة له: ((يا معشر الأنصار أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فهداكم الله بي؟! وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالّة - فقراء - فأغناكم الله بي)) .

وكَلَّمَا ذَكَرَ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمُّنٌ .

((يا معشر الأنصار أم ترضون أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى رحالكم؟! - أي: في المدينة المنورة - .

لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، لو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها .

إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)) صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

اللهم أوردنا حوضه الأصفى ، واسقنا بكأسه الأوفى ، وعطف علينا قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم بجاهه عندك يا رب العالمين .
فالإيمان منة من الله تعالى على عباده المؤمنين ، وفضل عظيم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد جعل سبحانه واسطة الهدى إلى الله تعالى سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلا تنكر مقام وساطته ، فهو الواسطة الكبرى ، والوسيلة القربى ، ولذلك قال لهم ؛ ((ألم أجدكم ضالاً فهداكم الله بي)) ، فلا تنكر قوله : ((بي)) ولا تنكر السبب والواسطة .

قال تعالى : {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} فلقد أثبت الله تعالى الأسباب ، وبيّن أنه المسبب ، وهو المؤثر الفعال ، كما أثبت الواسطة والوسيلة ، فإذا أنكرت واحدة من هذه الثلاثة فقد كذبت خبر القرآن الكريم .

وقال سبحانه : {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَأذْكَرُونِي أذْكَرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ} .

فتدبر الآية تفهم .

وقال تعالى : {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} . . { الآية كما تقدم .

والحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا أن يُحمد ويرضى .

ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ونحن بفضلك قد استغينا

قوله تعالى : { قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ
لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .

ههنا لطيفة وهي أنهم امتنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء
الجواب : { قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ } . الآية ، وذلك
لأن امتنانهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه امتنان على الله تعالى
، لأن الله تعالى أرسله إلى جميع العباد ؛ وهم من جملة العباد ، فهو صلى
الله عليه وعلى آله وسلم هو رسول الله ، بل خاتم الأنبياء والمرسلين ، فمن
امتّن عليه بمثل هذا الامتنان فقد امتن على الله تعالى ، وليس لأحد أن يمتن
على الله ، بل الله تعالى المنة على جميع العباد .

ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أطاعه فقد أطاع الله تعالى ،
ومن عصاه فقد عصى الله تعالى ؛ الذي أرسله ، وأمر بطاعته ، وحذّر من
مخالفته ، ومن آذاه فقد آذى الله تعالى ، ولقد قبّح الله تعالى الذين يؤذون
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ
وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُوبِنَا خَيْرٌ لَكُمْ } .

فمن آذى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد آذى الله تعالى .

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شاس الأسلمي
قال : خرجت مع علي رضي الله عنه إلى اليمن فجفاني فوجدت في نفسي
فقدت المدينة فاستظهرت - أي : أظهرت شكايته بالمسجد ، فبلغ رسول
الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : ((يا عمر ، والله لقد آذيتني)) .

قلت : أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من آذى علياً فقد آذاني))^١ - أي :
ومن آذاني فقد آذى الله تعالى ، كما جاء في الحديث عن أمير المؤمنين
رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : ((من
آذى شعرة مني فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله)) رواه ابن عساكر
وأبو نعيم ، وزاد في روايته والديلمي أيضاً : ((فعليه لعنة الله ملء
السموات والأرض)) وهو مسلسل بأخذ شعرة .

وروى الدارقطني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه سمع رجلاً
يقع في علي رضي الله عنه فقال له عمر : ويحك أتعرف علياً ؟ هذا ابن
عمه ، وأشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والله ما أذيت
إلا هذا - أي : رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في قبره الشريف
صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وفي الحديث الذي رواه عبد الله بن مَعْقَل ، أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : ((الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي ، فَمَنْ
أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد
آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه))^٢ رواه
الترمذي .

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى في شرحه : ((الله في أصحابي))
أي : اتقوا الله تعالى فيهم ، ولا تلمزوهم بسوء ، أو المراد : اذكروا الله
فيهم ، وفي تعظيمهم وتوقيرهم ، وكرر قوله : ((الله فيهم)) إيذاناً بمزيد
الحث على الكف عن التعرض لهم بمنتهى .

((لا تتخذوهم غرضاً)) بالعين المعجمة - أي : هدفاً - ترمونهم بقبيح الكلام
كما يُرمى الهدف بالسهم ، قال وهو تشبيه بليغ .

((لا تتخذوهم غرضاً من بعدي)) أي : بعد وفاتي .

^١ ورواه الإمام البخاري في (تاريخه) والحاكم وصححه وأقره الذهبي ، وقال
الهيتمي : رجاله رجال الصحيح ، كما في (فيض القدير) .

^٢ ورمز الحافظ السيوطي إلى حسنه .

قال في (الصحيح) : الغرض هو الهدف الذي يُرمى إليه .

((فمن أحبهم فبحبي أحبهم)) أي : بسبب حبهم إياي ، أو بسبب حبي إياهم أحبهم - أي: إنّما أحبهم لحبهم إياي ، أو لحبي إياهم .

((ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم)) أي: بسبب بغضه إياي أبغضهم ، بمعنى : إنّما أبغضهم لبغضه إياي .

((ومن آذاهم)) أي: بما يسوؤهم ((فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى)) ولا يضره سبحانه ذلك بدليل قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في الحديث القدسي عن الله تعالى - ((يا عبادي ، إنّكم لن تبّلعوا ضري فتضروني ، ولن تبّلعوا نفعي فتتفعلوني)).

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((ومن آذى الله يُوشك أن يأخذه)) - أي: يُسرّع في انتزاع روحه أخذة غضبان منتقم ، عزيز مقتدر ، جبار قهار - إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .

فهذه وصيته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأصحابه من بعده ، وذلك لأنه كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حياته حريصاً على حفظهم والشفقة عليهم .

روى الترمذي وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((لا يُبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإنّي أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)).

فمحببة الصحابة رضي الله عنهم ، وتعظيمهم ، هذا من الإيمان ، لأنّ الله تعالى أتى عليهم ، ومدحهم في آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى : {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيّماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة¹ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً} .

¹ والمعنى : هذا وصفهم الذي وصفهم الله تعالى في التوراة .

فشبهم الله تعالى بالنسبة لموقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كفروع الزرع ، وهو الشطء أي : فراخ الزرع .

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصل الزرع وهم فراخه ، وقد قوّاهم وأمدهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فصاروا به أقوياء ، وهذا معنى {فآزره} أي : قوّى أصل الزرع شطأه ، وهكذا فالصحابا كشطء الزرع وفراخه ، وأصلهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قوّاهم وتقوّى بهم ، فقاتل وجاهد ، ونشر دعوة الإسلام حتى عم المعمورة . والكلام على هذه الآية طويل يأتي في حينه إن شاء الله تعالى .

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول كما في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لا تسبوا أصحابي ؛ فو الذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصفيه)) .

قوله تعالى : {بَلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

وفي هذه الآية دليلٌ على أنه سبحانه له المنة على كل مؤمن صادق ؛ ومؤمنة صادقة ؛ أنّ هداهما للإيمان ، ووفقهما لذلك ؛ وحبّيه إليهما ، فعشقت قلوبهم الإيمان ، وأشربوا في قلوبهم الإيمان ، وهو أعظم المنن الإلهية على عباده ، ولذلك إذا دخل أهل الجنة الجنة بدؤوا بتحيتهم لله تعالى ، وافتنحوا بحمدهم له على نعمة الإيمان .

قال تعالى : {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتْلَمَحُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

فلما حمدوه سبحانه ، وأنثوا عليه بما تفضّل عليهم وهداهم للإيمان ، ناداهم سبحانه مُثْنِيّاً عليهم {أَنْ تَتْلَمَحُ الْجَنَّةُ} - أي : تلمح الجنة - {أورثتموها بما كنتم تعملون} فأثنى عليهم بما قدّموه من أعمال صالحة ، وبما تسببوا فيه ، وتعاطوه لينالوا به الفضل من الله تعالى .

فاعتبروا في هذا الكرم الإلهي ، فإنه سبحانه لم يُضيع لهم عملاً حسناً ، ولا يُضيع أجر المحسنين ، ولم يُضيع لهم تعباً ولا نصيباً بما أدوا من واجبات التكليف وأمور الشريعة ، بل مدحهم بذلك ، وأثنى عليهم بعملهم المبرور ، وأنهم بسبب ذلك تفضل عليهم .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء} .

فقدّموا عند دخولهم الجنة قدموا الحمد لله تعالى ، والثناء عليه سبحانه ، والشكر لله والاعتراف له بالفضل ، فجاءهم الجواب : {فنعم أجر العاملين} أثنى عليهم وشكر لهم عملهم كما قال تعالى : {إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً} فقبوله للسبب هو فضل منه سبحانه ، فمنه الفضل أولاً أن هداهم للإيمان ، وثانياً بأن وفقهم للعمل الصالح ، وثالثاً بأن قبل منهم أعمالهم فضلاً منه ، ورابعاً بأن أثابهم على ذلك الجنة - كل ذلك بفضله سبحانه .

قال تعالى : - في أهل الجنة - {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضلاًّ من ربك ذلك هو الفوز العظيم} .

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((سَدُّوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا ، وشيئاً من الدُّلْجَةِ والقصدَ القصدَ تَبَلَّغُوا ، واعلموا أنّه لَنْ يُدْخَلَ أحدكم عمله الجنة)) .

قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)) .

وفي رواية : ((بمغفرة ورحمة)) .

فلا تنافي بين قوله سبحانه : {وتلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون} وغيرها من الآيات الدالة على أنّ الله تعالى يُدْخِلُ المؤمنين

بعملهم ، ويثيبهم على أعمالهم ، فهذا لا يتنافى مع قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((لن يدخل أحدكم عمله الجنة)) الحديث ، فإن الآيات تُثبت أنّ الأعمال الصالحة هي أسباب ، قال تعالى : {بما كنتم تعملون} فالبناء سببية ، والأسباب ليست موجبة على الله تعالى أمراً ، ولا تأثير لها في ذاتها ، وإنما هي بيد ربّ الأسباب ، فإنّ تفضل بقبولها فأعملها فله الفضل والمنة ويُدخل أهل العمل الصالح الجنة ، وقد وعد الله تعالى المؤمنين بالجنة بسبب إيمانهم ، فهو لا يُخلف وعده ، فإنّ له سبحانه أن يُحق على نفسه ، ويُوجب على نفسه ، تفضلاً منه وكرماً ، ولكن ليس للعباد حقٌّ واجب من ذاتهم عليه - خلافاً للمعتزلة حيث أوجبوا للعبد حقاً ذاتياً على الله تعالى وهذا باطل . قال تعالى : {أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون} فهو وعد المؤمنين بالجنة فهو لا يخلف وعده أبداً ، بل حقٌّ ذلك على نفسه فقال تعالى : {وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدده من الله} .

وقال تعالى : {وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم} .

فمن آمن حقاً دخل في جملة الذين وعدهم بالجنة ، وناله فضل الله تعالى بإدخاله الجنة ، ومن لم يؤمن فلا حظ له من الوعد ، لأنّ الكافر ليس أهلاً لهذا الفضل ، فإنّ الله عليم حكيم .

قال تعالى : - في المؤمنين - {أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم} .

وقال تعالى : {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير} .

قوله تعالى : {إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون} .

يُبين سبحانه أنه عليم بكل شيء ، والأشياء منها المشاهد ومنها المغيب .

قال تعالى : {عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال} .

والمغيبات : منها مغيبات لم يشهدها البصر ، ولم تدركها الحواس ، ومنها ما لم ينته إليه علم المخلوقات ، فالله تعالى يعلم ذلك كله ، وإنما خص غيب السماوات والأرض باعتبار أنها محيطه بالإنسان ، فالسماوات من فوقه ، والأرض من تحته ، وهو يراها ؛ ولكن لا يعلم ما فيها من مغيبات وما أودع الله تعالى فيهما ، وما خبأه في غيابتها من عوالم وأرواح ، ومن ملائكة وأمور أوحاها في كل سماء ، قال تعالى : {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} فأوحى تلك الأوامر ، وأودعها في السماوات ، وكل سماء خصّها بأوامر وأخفاها فيها ، ويُظهرها سبحانه للملائكة عليهم السلام لتنفيذها والعمل بمقتضاها على مَمَرِّ الأيام ، وتعاقب الأوقات ، وهو العليم الخبير بما كان وبما يكون ، وهو سبحانه يعلم غيب ما في الأرض من معادن وخزائن وكنوز كنزها ، وأثقال حَمَلها إيّاها ، وأودعها في جوفها ، ويُظهر فيها أنواعاً من المعادن على مدى العصور حسب حاجة البشرية ، فهو سبحانه الذي خَبَأَ فيها ذلك ، وأودع فيها ما هناك ، وهو يظهر منها ما شاء مِنْ ذلك إلى أن تقوم الساعة ، وهو الذي جَعَلَ فيها مِنْ جملة ذلك نيران ومعادن مشتعلة ؛ كما يدل على ذلك انفجار البراكين وحدوث الزلزال ، وهي أرض تَحْتَنَا تُقَلْنَا ولا نعلم جميع ما في جوفها ، وأعماقها ، وخفاياها ، وخبايها، ومعادنها المختلفة التي يَظهر بعض منها على مدى الأيام ودور العصور ، فإنه سبحانه يعلم ذلك كلّه ، لأنّه هو الذي خلق ذلك كله ، وخالق الشيء هو أعلم به {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}؟! الآية .

فهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى تردد وتفكر ، يعلم ذلك كل عاقل .

قال تعالى : {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} .

فإذا كانت غيوب السماوات فوقهم ؛ وغيوب الأرض تحتهم لا يعلمونها فما ظنك بتلك العوالم التي فوق السماوات ، وهي محيطه بالسماوات كعالم السدرة ، والكرسي ، والعرش ؛ وما هنالك من العوالم العلوية ، فهم لا علم

بذلك من باب أولى ، فإنّ الذي أحاط علماً بذلك هو الله تعالى وحده ، وقد يُطلع بعض عباده على ما يشاء من ذلك قال تعالى : {وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين} .

وقد اطلع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على تلك العوالم العلوية الغيبية لئلاّ المعراج وأخبرنا عن ذلك .

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم وأخبر عن كثير من العوالم الغيبية فيجب الإيمان بها ، والتصديق الجازم ، وذلك لأنها ثبتت بخبر القرآن المعجز القاطع البرهان أنه كلام الرحمن ، وثبت ذلك أيضاً برؤية العيان التي عاينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصدق خلق الله تعالى ، وسيد العالمين ، فرؤيته ومعاينته أصدق وأقوى من معاينتنا ورؤيتنا ، لأنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أعدل وأعلم ، وأوعى وأقوى بصراً وبصيرة ، وأعظم رؤية وفكرة واستيعاباً واطلاعاً .

اللهم إنا آمنا بما جاء به رسولك وحبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبجميع ما أخبرنا عنه فاكتبنا مع الشاهدين الذين قلت فيهم : {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} .

{إنّ الله يعلم غيب السموات والأرض} .

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : {بل الله يمتن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} ليقوم الحجة على علمه سبحانه بما في قلوبهم ، فإن يكن الإيمان الصادق قد انتهى إلى قلوبهم فإنّ الله يعلمه ، لأنّه سبحانه يعلم غيب السموات والأرض ، فكيف لا يعلم ما غاب في قلب الإنسان ؟ فجميع المغيبات هي معلومة ومشهودة له لا تخفى عليه .

وهداية القلب للإيمان على مراتب متعددة ، فهناك الهدى الإيماني القلبي العام للمؤمنين الصادقين كلهم ، وهناك هدى فوق هدى وهكذا على وجه لا ينتهي ، قال تعالى : {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} .

وقال تعالى : {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} .

وقال تعالى : {وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

فهو يعلم القلب الذي يليق به الهداية الخاصة فيعطيه ذلك ، وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم دائماً يستزيد في الهداية الخاصة النبوية ، والتي هي خاصة الخاصة ، ويدعو بالزيادة منها .

فقد روى أصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو فيقول : ((ربِّ أعني ولا تُعن عليّ ، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ويسر لي الهدى ، وانصرني على من بغى عليّ .

ربِّ اجعني لك ذكراً ، لك شكاراً ، لك رهاباً ، لك مطواعاً ، مخبتاً إليك ، أواهاً منيباً .

ربِّ تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وثبت حجتي ، وأجب دعوتي ، واهد قلبي ، وسدد لساني ، واسلل سخيمة صدري)) صلى الله عليه وعلى آله وسلم أجمعين .

{إنَّ الله يعلم غيب السموات والأرض} .

دَلَّ هذا على أن السموات متعددة ، نعم هي سبعة بنص :

{الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهنَّ ينتزل الأمر بينهنَّ لتعلموا أنَّ الله على كل شيء قدير وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً} .

فالسماوات سبع ، والأرضون سبع ، بنص قوله تعالى : {ومن الأرض مثلهنَّ} ولم يأت بكلمة الأرضين لثقل الكلمة مع تكرار ذكرها في كثير من الآيات حسب المناسبات ، ولكن جاء جمع الأرضين في الأحاديث النبوية وأنها سبع أرضين ، جاء ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة في مناسبات متعددة بروايات متعددة تَبْلُغ حد التواتر القطعي :

فمن ذلك ما جاء في الذي يَغْصَبُ أرضاً فَيَدُ شبر ، أو يظلم جاره فيبغى على أرضه ويضمها إليه ونحو ذلك : جاء في (الصحيحين) عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى

آله وسلم قال : ((من ظلم قَيد شبر - أي : قدر شبر - من الأرض طوقه من سبع أرضين)) .

قال الحافظ المنذري : قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((طوقه من سبع أرضين)) قيل : أراد طوق التكليف لا طوق التقليد وهو أن يُطَوَّق - أي: يكلف - حملها يوم القيامة . وقيل : إنه يُخسف به الأرض فتصير البقعة المغصوبة في عنقه كالطوق - أي: في عنقه إلى سبع أرضين اهـ .

قال الإمام البغوي : هذا أصح ، ثم روى بإسناده عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين)) .

قال : وهذا الحديث رواه البخاري وغيره اهـ .

وعن يعلى مُرَّة رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : أيما رجل ظلم شبراً من الأرض كَلَّفَهُ اللهُ عز وجل أن يحفره حتى يبلغ به سبع أرضين ، ثم يطوقه يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس)) رواه أحمد والطبراني وابن حبان في (صحيحه) .

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أعظم الغلول عند الله تعالى ذراع من الأرض ، تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، إذا اقتطفه طوقه من سبع أرضين)) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن والطبراني في (الكبير) .

وعن الحكم بن الحارث السُّلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((من أخذ من طريق المسلمين شبراً ؛ جاء به يوم القيامة يحمله من سبع أرضين)) رواه الطبراني في (الكبير) والصغير).

وقد جاء جمع الأرضين السبع في مناسبات من الأدعية النبوية الشريفة ، ومن ذلك ما جاء في الدعاء لدفع الأرق وقلة النوم والانزعاج فيه :

روى الترمذي وغيره عن بُريدة رضي الله عنه قال : شكَا خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق .

فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم ربّ السماوات السبع وما أظلت ، وربّ الأرضين وما أقلت ، وربّ الشياطين وما أضلت ، كن لي جارا من شرّ خلقك كلهم جميعاً أن يفرط عليّ أحدٌ منهم أو أن يبغى عليّ - عزّ جارك ، وجلّ ثناؤك ولا إله غيرك ، لا إله إلا أنت)) .

فقد تواترت جملة الأرضين السبع في هذه الأحاديث كما رأيت .

ومن ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنّه قال : ((قال موسى عليه السلام : يا ربّ علّمني شيئاً أذكرك به ، وأدعوك به .

قال : قل لا إله إلا الله .

قال : يا ربّ كل عبادك يقول هذا؟

قال : قل لا إله إلا الله .

قال موسى عليه السلام : إنّما أريد شيئاً تَخصني به ،

قال : يا موسى لو أنّ السماوات السبع ، والأرضين السبع ، في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله)) .

قال المنذري : رواه النسائي وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وصحح إسناده .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((إذا كان يوم القيامة جمع الله السماوات السبع ، والأرضين السبع في قبضته ثم يقول : أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً ، أنا الذي أعيدها .

أين الملوك أين الجبارون ؟^١ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : (يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ .

ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟) رواه الشيخان وأبو داود وهذا لفظ مسلم .

وقد جاء هذا الحديث في (الصحيحين) وغيرهما بروايات متعددة^٢ .

وعن أبي ذر رضي الله عنه ، أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الكرسي فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإنّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة))^٣ .

قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.

جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى : {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

ليبين سبحانه أنّه يعلم قطعاً صدق إيمان قلوبهم وإن كانوا صادقين في دعواهم ذلك ، فإنّ الإيمان اعتقادي جازم ، وهو خفي غيبي ، ولكن الله تعالى يعلم ما غاب في القلوب ، فإنه سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض ، وما حَوَّته من خفَيَّاتٍ وخبيئات ؛ فالذي يعلم ذلك هو من باب أولى يعلم ما في هذا القلب من الغيب ، على أنهم مهما يكونون فإنهم ما خرجوا عن كونهم في عالم الأرض ، وهو سبحانه يعلم غيب السماوات

^١ رواه أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) بهذا اللفظ ولكن أصل الحديث في (الصحيحين) وغيرهما بألفاظ أخرى .

^٢ كما في التيسير .

^٣ رواه البيهقي وأبو الشيخ وابن مردويه .

والأرض ، فهم داخلون في جملة معلوماته التي لا نهاية لها ، فعلمه محيط بكل شيء كما قال تعالى : **{تَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}** .

والإنسان بظاهره وباطنه ، وقلبه وقلبه من جملة الأشياء التي أحاط بها علمه سبحانه ، فالله تعالى **أَعْلَمَنَا أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِنَا** ، قال تعالى : **{وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}** .

أي : يعلم ما أخفيتم في أنفسكم فاحذروه ، وهو يعلم ما أضمرت قلوبكم وأسررتموه .

قال تعالى : **{وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}** .

قال بعضهم : **الجهر** ما أسمعته جيرانك ، **والسر** ما أخفيته ، ولكنك **تَسْمَعُهُ** ويسمع من لصق بك ، **والأخفى** ما أخفيته في قلبك فلم تجهر به ولم تسر .

وقال بعضهم رضي الله عنه : **الجهر** معروف ، **والسر** ما أخفيته في قلبك ، **والأخفى** ما خفي عنك ولكنه **خَبِيءٌ** خبأه الله تعالى في زوايا قلبك فتظهر آثارها وثمارها ، فهو سبحانه يعلم منك ما تعلمه وما لا تعلمه من نفسك ، وما أودع وأخفي في قلبك ؛ حتى يحين أوان ظهوره فيظهر لك ، فهو سبحانه أعلم بك منك لأنه أقرب إليك منك .

قال تعالى : **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** .

وليس هو جسماً ولا روحاً حتى تقول هذا قرب الأجسام أو الأرواح ، بل هو القرب المطلق ، المنزه عن جميع قيود الحوادث ، فلا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، بل إثبات ما أثبتته لنفسه مع التنزيه عن التشبيه .

قال تعالى : **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** فهذا إثبات مع التنزيه ، فقد أعلم الله تعالى عباده بإحاطة علمه وقدرته ، وأعلمهم أنه أعلم بهم منهم .

قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

فهو يُخبرهم بأعمالهم عن عِلْمٍ شهود عليهم .

قال تعالى : {وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه} الآية .

وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : {فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلْمِ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} .

أي : نُخبر عن أعمالهم بعلمٍ مِنَّا ، ونقول لهم : ما كنا غائبين ، بل كنا شهوداً عليكم حين عملتموها .

فأعلم الله تعالى عباده بعلمه المحيط بالغيب والشهادة ، وبأعمالهم الظاهرة والخفية ، المشهودة والغيبية ، كما أعلمهم سبحانه وتعالى بأنه بصير بما يعملون ، فقال تعالى : {والله بما تعملون بصير} وذلك ليتقوا الله تعالى في السر والعلانية ، والقلب والقالب ، وفي الظاهر والباطن ، وليأخذوا حذرهم فيتباعدوا عَمَّا نهاهم عنه ، ويجتنبوا ما حَرَّمَ اللهُ تعالى ، فإنَّ الناقد بصير ، وهو عليم خبير .

قال تعالى : {اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير} .

وقال تعالى : - في أبي جهل وأمثاله لما حاول إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم - {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} .

فهو سبحانه يرى ماذا يعمل وينوي أبو جهل في قلبه ، وما هياه في نفسه من الأعمال التي يُريد أن يؤدي بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وهكذا هو سبحانه يرى ما تعمله الجوارح ، وما تطويه الجوانح ، وما ينويه العبد ويضمرة في قلبه ، فإنه سبحانه يرى ذلك كله ، لأنها داخلة في عالم الوجود المخلوق ، الغيبي أو الشهودي .

وقد قال بعض المشايخ لمريد له : إذا أردت أن تعصي الله تعالى فاعصه حيث لا يراك .

فمن علم علماً جازماً وأيقن أنّ الله تعالى يراه حيث كان في خلواته وجلواته ، وأنه سبحانه مُطَّلِعٌ على ظاهره وباطنه ، بصير بسرّه وعلانيته ، واستحضر ذلك في أوقاته كلّها ، كان ذلك سبباً مانعاً له من مخالفة أوامر الله تعالى ، وسبباً باعثاً له على ترك المعاصي في السر والعلانية ، وهذا معنى قوله تعالى : {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} .

والمعنى : أنّ الله تعالى رقيب عليكم ، فراقبوا رقابته عليكم ، فإنّ ذلك يحملك على التقوى ، ويوجب لكم الخشية من الله تعالى في السر والعلانية.

ولذلك كانت المراقبة لله تعالى هي أصل عظيم في سير العبد ، وسلوكه طريق عبادة الله تعالى ، لأنها تحمله على العمل الصالح ، وعلى إخلاص العمل لله تعالى ؛ دون رياء ولا سمعة ، ويجعله في مقام العبودية والتواضع لله تعالى .

وسئل الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى عن المراقبة ؟ فقال : هي علم القلب بقرب الربّ جلّ وعلا . اهـ .

وقد كتب ابن السّمّاك العلامة العارف الواعظ رحمه الله تعالى ونفعنا به وبأولياء الله تعالى أجمعين - كتب إلى أخ له : أما بعد :

فإني أوصيك بتقوى الله تعالى الذي هو نجيتك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاجعل الله تعالى من بالك على كل حال ، في ليلك ونهارك ، وخفّ الله تعالى بقدر قربه منك ، وقدرته عليك ، واعلم أنّك بعينه - أي : يراك ولا تخفى عنه مهما استخفيت - ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حدرك ، وليكثر منه وجلّك - والسلام . اهـ .

وسئل الإمام الجنيد رضي الله عنه عما يُستعان به على غض البصر فقال : بعلمك أنّ نظره سبحانه إليك أسبق إلى ما تنظره . اهـ .

ودخل أعرابي غِيضَةً ذات شجر كثير ، فقال : لو خلوت هنا بمعصية من يراني ؟

فسمع هاتفاً بصوت ملاً الغيضة : {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}.

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه ينشد :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل

خلوت ولكن قل : عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

فعلى العاقل أن يُراقب ربّه في جميع أمورهِ الظاهرة والباطنة ، وفي الخلوة والجلوة ، وفي الجامع والشارع ، وفي البيت والمتجر ، فإنّ الله تعالى معه حيث كان ، ورقيب عليه مهّما اختفى في أيّ ظلمة أو مكان.

وعلى المؤمن أن يلبس ثوب ذلّ العبودية لعظمة الله تعالى وحده ، ولا يتعاضم أبداً بدعوى الأنانية والكبرياء ، فالعظمة والكبرياء لله تعالى وحده .

فقد روى مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالاً : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((يقول الله عز وجل : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ؛ فمن نازعني شيئاً منهما عذبتّه)) .

ورواه البيهقي بلفظ : ((الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ؛ فمن نازعني شيئاً منهما قصمته)) .

ورواه البيهقي أيضاً من طريق أبي داود الطيالسي بلفظ : ((العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ؛ فمن نازعني واحدة منهما قذفته في جهنم)) .

ورضي الله تعالى عن الإمام الشافعي ونفعنا الله تعالى به وبجميع أئمة الهدى أجمعين الذي كان يقول في مناجاته لربه تعالى :

بموقف ذلّي دون عزتك العظمى

بمخفي سرّ لا يحاط به علما

باطراق رأسي باعترافي بذلتني

بمدّ يدي أستمطر الجود والرحما

بأسمائك الحسنی التي بعض وصفها

لعزّتها يستغرق النثر والنظما

بعهد قديم من ألت بربكم

بمن كان مخفياً فعلمته الأسماء

أذقنا شراب الأنس يا مَنْ إذا سقى

مُحبّاً شراباً لا يُضام ولا يظما

أمين بجاه من أرسلته رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ويرحم الله القائل :

إلى بابك العالي مددت يد الرجا

ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الردى

والقائل :

لعزّتك العلياء وجهت حاجتي

وحاشا لقصّاد الكريم يخيبوا

والقائل :

يا من يراني في علاه ولا أراه

يا من يجير المستجير إذا دعاه

يا من يجود على العباد بفضله

جلّ الكريم وجل ما صنعت يداه

واعلم أن العزة لله تعالى جميعاً ، فمن أراد العزة فعليه بالتذلل والتواضع لمن له العزة جميعاً .

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : - في حديث طويل - ((وما تواضع عَبْدُ اللَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى)) .

فعلى قدر تواضعك تكون رفعتك ، وعلى قدر تذللك يكون تذللك .

وقد أنشدوا رحمهم الله تعالى في ذلك :

تذلل لمن تهوى لتكسب عزةً

فكم عزة قد نالها المرء بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن

ذليلاً له فاقرا السلام على الوصل

نعم نعم

كما قالوا :

بين التذلل والتدلل نقطة

فيها يتيه العالم النحرير

هي نقطة الأكوان إنْ جاوزتها

صِرتَ الحكيمَ وعلمك الإكسير

فالكون وما جواه من عوالم كثيرة وكبيرة ، وعوالم علوية وسفلية ، وملكية وملكوتية ، ومشهودة وغيبية ، جميع ذلك هي نقطة في بحر القدرة الإلهية ، فلا تقف عند النقطة بل جاوز بنظرك وقلبك من النقطة إلى البحر الذي لا يتناهى ، ومن ثمَّ قالوا : لا تقف عند الصورة بل فكّر في عظمة قدرة المصور وسعة علمه وحكمته .

قال تعالى : {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

فلو فَكَّرْت في معنى اسم المصور لعرفت أَنَّهُ هو المصور للأشياء المخلوقة صُوراً إبداعية ليس لها مثال سابق ، وَأَنَّهُ يعلم من أنواع الصور ما لا يُحيط بعلمه إلاَّ هو المصور ، وكل صورة يُصوِّرُها لمخلوق هي لا تشبه غيرها من أي نوع كان ؛ إنساناً أو حيواناً ، أو طيراً ، أو ذبابة ، أو نملة ، ولكن قد تتقارب الصور ولكن لا تتساوى ولا تتماثل ، فإنَّ التجلي لا يتكرر كما قالوا .

وأما المصورون من العباد فإِنَّمَا يصورون ما رأوه من الصور ، وقد يُركبون صوراً غير موجودة بكليتها ولكنها موجودة بأجزائها ، كمن يصور جملاً : رأسه جمل ، ويده أجنحة ، وأسنانه ذهب ، فكل ذلك سرقة من الصور المخلوقة .

ولا تقف مع المباني ولكن فَكِّر في عظمة قُدرة الباني ، وعظيم سلطانه ، وسعة علمه ، وبديع حكمته .

قال تعالى : {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} .

وقال تعالى : {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقْتَ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعْتَ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نَصَبْتَ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَحْتَ فَذَكَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} .

فافهم يا أخي الأسرار المطوية في قوله تعالى : {كَيْفَ} ، وقوله تعالى بعد ذلك أيضاً : {كَيْفَ} وهكذا . . فإنك إذا فهمتْ هِمَّتْ ، وإذا هِمَّتْ أُلْهِمْتَ الصواب وفهمت الخطاب .

ويرحم الله تعالى القائل :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يُرَجِّى للشدائد كلها	يا مَنْ إِلَيْهِ المَشْتَكِي والمَفْرَع
يا من خزائن رِزقه في قول كن	امنن فإنَّ الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أرفع

مالي سوى قرعي لبابك حيلة
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه
حاشا لجودك أن تُقنط عاصياً
بالذل قد وافيت بابك عالماً
وجعلت معتمدي عليك توكلأً
فبحق من أرسلته وبعثته
اجعل لنا من كل ضيق مخرجاً
ثم الصلاة على النبي وآله
ويرحم الله تعالى القائل :
فواعجباً كيف يُعصى الإله
وفي كل تحريكة وتسكينة
وفي كل شيء له آية
ويرحم الله تعالى القائل :
تأمل سطور الكائنات جميعها

من العالم العلوي إلى العالم السفلي

ويرحم الله تعالى القائل :

قف بالخضوع وناد ربك يا هو
واطلب بطاعتك رضاه فلم يزل
شملت لطائفه الخلائق كلها
فعزیزها وذليلها وغنيها
ملك تدين له الملوك وترتجي
إن الكريم يجيب من ناداه
بالجود يُرضي الطالبين رضاه
ما للخلائق كافل إلا هو
وفقيرها لا يرتجون سواه
يوم القيامة فقرهم بغناه

سبحان من عنت الوجوه لوجهه وله سجدن أظلة وجباه
وإليه أذعنت العقول فأمنت بالغيب تؤثر حبها إياه
طوعاً وكرهاً خاضعين لعزه وله عليها الطوع والإكراه
اطرق باب الرجا بصدق الالتجا، وليكن حالك حال القائل رحمه الله تعالى:
لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا

وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة

ومنّ عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها

ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً

إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنها يا رباه خائبة

فبحر جودك يروي كل من يرد

اللهم يا خير من مدت إليه الأيادي ، نسألك بخير من مد إليك يديه أن
تعطينا سؤالنا ؛ ولا تردنا خائبين ؛ فإنك قلت وقولك الحق : وأنت وعدت
ووعدك الصدق : {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} فقد أمرتنا بدعائك ،
ووعدتنا بإجابتك ، وها نحن دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا
إنك لا تخلف الميعاد .

وصلى الله العظيم وسلم على أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين
وعلى آله وصحبه وذريته أجمعين ، والتابعين ، وعلينا معهم أجمعين ؛ في
كل وقت وحين عدد ما وسعه علم الله العظيم - آمين .

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} .

في هذه الآية دليل على أنّ علم الغيب المطلق المحيط بكل شيء هذا لله تعالى وحده ، لا يشاركه فيه غيره ، لأنّ هذه الجملة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} تدل على الحصر ، فهو سبحانه وحده الذي أحاط بكل شيء علماً ، وهو وسع كل شيء علماً .

قال تعالى : {إِنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} .

جاء هذا بعد صيغة توحيد ليبين أنّه واحد أيضاً في علمه بكل شيء ، وقد أطلع الله تعالى من شاء من عباده على بعض المغيبات :

قال تعالى : {عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} .

وأوسع رسل الله تعالى اطلاعاً على المغيبات هو سيد السادات سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الذي أطلعه الله تعالى على ما مضى وما هو آت كما جاء في (الصحيحين) عن حذيفة رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وجهله من جهله) .

قال حذيفة : (وقد كنت أرى الشيء قد نسيته فأعرفه ، كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب فراه فعرفه) .

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه) .

وقد أطلعه الله تعالى على جميع ما يجري بعده إلى يوم القيامة :

روى مسلم عن عمرو بن الخطاب الأنصاري رضي الله عنه قال : (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى

حضرت العصر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ؛ فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة - فأعلمنا أحفظنا) .

ومن هنا يعلم العاقل أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه .

وقد روى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال : (والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا ؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ معه ثلاثمائة فصاعداً إلا سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته) .

وقد أراه الله تعالى العوالم العلوية ليلة المعراج ، وكشف الله تعالى له عن تلك العوالم الغيبية ، وحدّث عنها صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما جاء في أحاديث المعراج مفصلة .

كما أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أطلعه الله تعالى عما يجري بين الملائكة من الاختصام حول الكفارات والدرجات المرتبة على أعمال المكلفين ، وجلّى سبحانه له الأشياء كلّها وعرفها .

وقد روى الترمذي والإمام أحمد والطبراني وغيرهم واللفظ لأحمد كما في (المسند) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نترأى قُرب الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فتوّب بالصلاة فصلّى وتَجَوَّز في صلاته ، فلما سلم قال ((كما أنتم على مصافكم)) ثم أقبل علينا فقال : ((إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمت من الليل فصليت ما قُدّر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت - هكذا في بعض نسخ (المسند) - وفي روايات أخرى : حتى استنقذت - فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة - أي : صفة - فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب .

قال : يا محمد فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب .

قال : يا محمد فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب .

فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري)) .
قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((فتجلى لي كل شيء وعرفت .

فقال : يا محمد فيم يختصم الملائة الأعلى ؟

قلت : في الكفارات والدرجات .

قال : وما الكفارات؟

قلت : نقل الأقدام إلى الجمعة ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ،
وإسباغ الوضوء عند الكريهات .

قال : وما الدرجات؟

قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة بالليل والناس نيام)) .

قال سبحانه : يا محمد سل .

فقلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ،
وَأَنْ تَغْفِرَ لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ،
وأسألك حُبَّك وحُبَّ مَنْ يحبك ، وحُبَّ عَمَلٍ يقربني إلى حُبِّك)) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنها - أي : الكلمات
والدعوات - حق فادرسوها وتعلموها)) الحديث .

وقد ذكرته برواياته المتعددة وخرجته في كتاب (صعود الأقوال ورفع
الأعمال) .

وقد أطلع الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عمَّا يجري
في آخر الزمن من كثرة الفتن في الدين ، وإفسادها إيمان كثير من
المسلمين ، وإن كثيراً منهم يتبعون أهواءهم الفاسدة ، وآراءهم الكاسدة ،
ويتخذون كتاب الله تعالى وحديث رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم
وراءهم ظهرياً .

وَمِنْ ثَمَّ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ مِنْ تِيَارَاتِ تِلْكَ الْفِتَنِ ، وَتَأْتِيرِهَا عَلَى الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَإِنَّهَا أَعَاصِيرٌ مُحْرِقَةٌ ، تَعْرُضُ عَلَى قُلُوبِ ضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ فَتَقْلِبُهَا رَأْسًا عَلَى عَقْبٍ ، فَلَا تَتْرِكُ فِيهَا قَطْرَةَ مِنْ إِيمَانٍ كَالْإِنَاءِ الْمَقْلُوبِ عَلَى وَجْهِهِ ، فَيَسْتَحْلُونَ الْحَرَامَ ، وَلَا يَعْرِفُونَ الْمَعْرُوفَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرْعِهِ ، وَلَا يَرُدُّونَ مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ مِنَ الْمَعَامَلَاتِ الْمَحْرَمَةِ ؛ وَتَعَاظِي الرِّبَا ؛ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ ظُلْمًا ؛ وَتَرْكِ الزَّكَاةِ ؛ وَعَدَمِ إِعْطَاءِ الْفُقَرَاءِ حَقَّهُمْ ؛ يَرُونَ جَمِيعَ تِلْكَ الْمُنْكَرَاتِ الشَّرْعِيَّةِ لَيْسَتْ مُنْكَرَةً ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهَا مَسْلُومَةٌ ، وَإِنَّمَا يَسْتَحْسِنُونَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُمْ ، وَيَكْرَهُونَ وَيُنْكِرُونَ مَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ ، وَيَتَكَلَّبُونَ عَلَى الدُّنْيَا وَيَنْسُونَ الدَّارَ الْآخِرَةَ - كَمَا سَيَتَضَحَّ لَكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْآتِيَةِ .

روى مسلم وغيره عن حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً^١، فأَيُّ قلبٍ أشربها نُكِّتت في قلبه نكتة سوداء ، وأَيُّ قلبٍ أنكرها نُكِّتت في قلبه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين : قلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مرباداً^٢ كالكوز مُجْخِيًّا^٣ لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب منه هو)) .

^١ بضم العين - أي : تلتصق ببعضها كعود الحصير المقرون ببعضه ببعض ، - وفي بعض الروايات : بفتح العين - أي : تأتي الفتن وتعرض على القلوب وتعود بتتابع متوالية - ، وفي بعض النسخ عَوْدًا عَوْدًا بالذال المعجمة - أي : نعوذ بالله من ذلك عوداً بعد عود اهـ ملخصاً من شرح النووي والمرقاة .

^٢ قال في (المرقاة) : مربادٌ بكسر الميم والذال المشددة من قولهم : اربادٌ كاحمارٍ - أي : صار كلون الرماد من الربدة ، لون بين السواد والغبرة ، وهو منصوب على الحال .

^٣ بضم الميم وسكون الجيم وبخاء مكسورة وياء آخره مشددة وقد تخفف قال في (النهاية) : وروي بتقديم الخاء على الجيم - أي : مائلاً منكوساً ، تشبيهاً بالكوز المقلوب لا يستقر فيه شيء من الماء ، وهذا القلب قد استقرغ الإيمان فلم يبق منه شيء - والعياذ بالله تعالى من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ؛ يبيع - أحدهم - دينه بعرض من الدنيا)) رواه مسلم وأحمد وغيرهما .

وروى ابن ماجه والطبراني وغيرهما عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : ((ستكون فتن يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ؛ إلا من أحياه الله تعالى بالعلم)) .

وقد بيّن صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن أمته سيصيبها بلاء شديد ، وأمور تُتكرونها ، منكرات في الدين ، وفتن ، فعلى المؤمن أن يُحافظ على إيمانه ويَبقى متمسكاً به .

روى مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فمنا من يُصلح خبائه ، ومنهم من هو في جشره - أي : القيام في رعاية المواشي ونحو ذلك - إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصلاة جامعة - فاجتمعنا إليه .

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((إنه لم يكن قبلي نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أُمَّته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أُمَّتكم هذه جعلت عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء شديد ، وأمور تتكرونها ، فتجيء الفتنة فيزلق بعضها بعضاً ، فيقول المؤمن : هذه مُهلكتي ثم تنكشف ، ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه .

فمن أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويُدخل الجنة فلتأته موته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه)) الحديث وقد كررت ذكره في مواضع متعددة للمناسبة المقتضية لذلك ، كما أنني قد أعيد ذكر الحديث الواحد في مواضع حسب المناسبات .

وقد أطلع الله تعالى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أمته من بعده فرأهم كلهم وعرفهم .

روى الطبراني والضياء المقدسي عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((عُرِضت أمتي البارحة لدى هذه الحجرة ، حتى لأنا أعرف الرجل منهم مِنْ أَحَدِكُمْ بصاحبه ، صُورُوا لي في الطين)) .

وجاء في (الصحيحين) وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((عُرِضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رُفِع لي سواد عظيم فظننت أنّهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، هم الذين : لا يرقون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتون وعلى ربّهم يتوكلون)) .

كما عرضت عليه أعمال أمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((عُرِضت عليّ أعمال أمتي حسننها وسيئها ، فرأيت مِنْ محاسن أعمالها إماطة الأذى عن الطريق ، ورأيت في سيء أعمالها النخامة في المسجد لم تُدْفَن)) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : ((عرضت عليّ أجور أمتي حتى القذاة يُخرجها الرجل من المسجد ، وعرضت عليّ ذنوب أمتي ، فلم أر فيها ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها)) رواه الترمذي وأبو داود .

فقد أطلع الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كثير من المغيبات ، والبحث فيها طويل وقد ذكرت جملة منها في كتاب : (شمائله الحميدة صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فارجع إليه .

تنبيه وذكرى

لقد مر عليك أيها الأخ المسلم في هذه السورة الكريمة النداءات الإلهية ،
والخطابات الربانية ، يأمرك الله تعالى فيها بكل خير وسعادة ، وفلاح
ونجاح في الدنيا والآخرة ، وينهاك سبحانه عن كل ما يعود عليك شره في
الدنيا والآخرة ، وأرشدك فيها إلى ما يصلح به أمر دينك ودنياك ، وأولئك
وأخراك ، فأوع سمعك إليها ، وأصغ بقلبك إليها ، وتفكر بعقلك بمضامينها
، وأقبل بكليتك على تحقيقها والتحقق بها ، ولا تتخذ آيات الله هزواً ، بل
خذها بقوة وحزم ، ويقين وحزم ، فإنك مسؤول عنها ، فإن القرآن حجة
لك أو عليك ، فأعرف كيف يكون موقفك معه ، ولا تقل في المنهيات أنا
لست من الذين يفعلونها ، ولا تزك نفسك ، فإذا كنت أنت تقول لست من
أهل المناهي ، ولست بمخالف ، وغيرك يقول ذلك . . فالقرآن لمن يتوجه
، والله تعالى يُوجّه خطابه لمن ؟

ألم تسمع قول الله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا} فوجه الخطاب للمؤمنين ،
ألست منهم ؟ بلى ، فلا تُعرض عن القرآن الكريم ، ولا تهجره ، فإنَّ
هَجْرَهُ على أنواع ، وكلها مهالك ، وفيها الوعيد الشديد .

**فهناك هجر لسماعه ، والإيمان به ، والإصغاء بالفؤاد إليه ، وهذا أفحش
وأكبر أنواع الهجر المصحوب بالكفر .**

**وهناك هجر للعمل به ، وهجر للوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأ به
وآمن به .**

**وهناك هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاداته ،
وأنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته غير قطعية لا توجب العلم والجزم ، أو أن
التحاكم إليه لا يُوصل الحقوق إلى أهلها تامة ، أو أنه لا يصلح لكل زمن ؟
! - بل هو المصلح لكل زمن .**

وهناك هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أريد منه .

**وهناك هجر الاستشفاء به والتداوي به في أمراض القلوب وشبهاتها ،
وأدواء الأهواء وشهواتها ، وأمراض الأجسام وأسقامها ، فإن القرآن أنزله
الله تعالى شفاء عاماً .**

قال تعالى: {وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} .

وقال تعالى : {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً} .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((الفاتحة شفاء من كل داء)) .

ولا يُعارض هذا ما شرعه الله تعالى من التداوي بالأدوية والعقاقير المركبة ، وجاء الأمر بالتداوي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم القائل : ((تداووا عباد الله ، فما أنزل الله داءً إلا وأنزل معه دواء)) .

وفي رواية : ((فإن وافق ذلك الدواء الداء برىء بإذن الله تعالى)) .

وقال تعالى : - في العسل - {فيه شفاء للناس} .

وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالأدوية ، وبالآيات القرآنية ، وبالعقاقير ، وبالأسباب الحسية ، كما هو معلوم من كتب الحديث .

هذا وإن جميع ما تقدم ذكره من أنواع الهجر هو داخل في قوله تعالى :
{وقال الرسول : يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} .

فاحذر أيها العاقل أن تقع في نوع من أنواع الهجر وأنت لا تشعر ، فلا تتخذ كتاب الله تعالى كتاباً مهجوراً ، بل اتخذه كتاباً منشوراً ، فإن القرآن الكريم أنزله الله تعالى هُدىً ونوراً ، فاقرأه واتبع ما فيه ، وتحقق بأوامره ، واجتنب ما نهاك عنه ، فإنك غداً مسؤول - فاقنت برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، واتبعه ، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان خُلُقَه القرآن .

ولا يمكن أن تُطبق ما في القرآن إلا بمتابعتك لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أقواله وأفعاله ، فإن أقواله وأفعاله وأخلاقه هي بيان لما جاء في القرآن .

قال تعالى : {لتبين للناس ما نزل إليهم} .

وقد بيّن ذلك قولاً وعملاً ، وخلقاً وتطبيقاً وتحققاً صلى الله تعالى عليه
وعلى آله وسلم .

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا

كفى لمطايانا بذكرك حاديا

وإن نحن أضللنا الطريق لغفوة

كفى لهدانا نور وجهك هاديا

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

الختم

وقد تمّ جمع هذا الكتاب بفضل الله تعالى وتوفيقه في اليوم العاشر من
رجب الفرد شهر الله الحرام سنة ١٤١٢ هـ/ فلله الحمد أولاً وآخراً ، حمداً
كثيراً طيباً مباركاً فيه ، دائماً بدوامه سبحانه ، وكما يحب ربُّنا أنْ يحمد
ويرضى وكما هو أهله سبحانه .

اللهم إنني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ،
وأعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برحمتك من عذابك ، وأعوذ بك منك
جَلَّ وجهك الكريم لا أحصي ثناء عليك أنتَ كما أثنيت على نفسك ، أحق
ما قال العبد ، وكلنا لك عبد .

اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت ،
ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، تباركت ربنا وتعاليت .

اللهم لا تكني إلى نفسي طرفة عين ، ولا تنزع مني صالح ما أعطيت ،
فإنه لا نازع لما أعطيت .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب
الآخرة .

^١ جميع ما تقدم قد جاء في الأحاديث النبوية بروايات متعددة .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلينا معهم
أجمعين ، وعلى والدينا ، ومشايخنا ، ومن له حقُّ علينا ، وعلى جميع
عبادك المسلمين ، في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علمك يا ربَّ
العالمين.

اللهم صل على سيدنا محمد حبيبك ، صلاة تُرضيك وترضيه ، وترضى
بها عنا يا رب العالمين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأزواجه
وذريته ، وأتباعه ، وعلينا معهم أجمعين ، صلاة تُغفر بها ذنوبنا ، وتستتر
بها عيوبنا ، وتُفرِّج بها كربنا ، وتُنور بها قلوبنا ، وتُشرح بها صدورنا ،
وتُيسر بها أمورنا ، وتُلهمنا بها رشدنا ، وتحفظنا بها من مكاره الدنيا
والآخرة .

اللهم وارض عن والديَّ وارحمهما كما ربَّيتني صغيراً ، وأغدق عليهما
سحائب كرمك وإحسانك ، وفضلك وإنعامك ، وارحم كافة عبادك
المسلمين .

{سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله
رب العالمين} .